ابنة الدب

الأديبة الصينية: ماي تسي

حائزة على الميدالية الذهبية

لجائزة الحوت الأبيض

Telegram:@mbooks90

ترجمة: أية عبد الله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسم الكتاب: ابنة الحب

تأليف: ماي تسي

ترجمة: أية عبد الله

رقم الإيداع: 2021/26819

ر.د.م.ك.: 9789776912489

الناشر: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية

مجموعة بيت الحكمة للثقافة
شارع التحرير- ميدان التحرير- القاهرة
ت: 20223936038+ 201030328888+
info@baytelhekma.com
www.baytelhekma.com

الإشراف العام
د. أحمد السعيد

مدير التحرير
عمرو مغيث

التدقيق اللغوي
محمد ماهر بسيوني

الإخراج الفني
حسام عنتر

تصميم الغلاف
محمد حسام

فريق العمل في الصين
قشانغ شين
ما قشياو نا
وانغ هاي تشياغ

تم نقل حقوق الترجمة والنشر بموجب العقد الموقع مع الناشر الأصلي بالصين 大连出版社

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى والمكتبات بالدول العربية والعالم.

للطلبيات والحجز:
Tel./ Whatsapp: +201030965555

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة
©baytalhekma

لا يجوز نسخ أو استخدام أي جزء من هذا الكتاب سواء بالتصوير أو الطبع أو إعادة إنتاجه عبر أي وسائط مسموعة أو مرئية أخرى، أو عبر أي من وسائط تسجيل واسترجاع البيانات دون إذن كتابي من الناشر، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية.

Copyright 2015© 麦子

《大熊的女儿》
ابنة الدب

Arabic edition copyright© 2021

Bayt Alhekma Group For Culture

Dalian Publishing House

All rights reserved.

Telegram:@mbooks90

1. دب في حجرة النوم

في أول أيام العطلة الصيفية، نامت لاو دو نومًا عميقًا حتى استيقظت دون أن يوقظها أحد.

كان الهدوء يعم غرفة المعيشة، وقد اخترقتها أشعة الشمس حتى بدت أرضيتها الأسمنتية كأنها مكسوة بطبقة ساحرة من شمع العسل. ولم يكن هناك أي شيء فوق طاولة الطعام.

ذهبت لاو دو للمطبخ وهي تدندن، فإذا بالموقد فارغ، وآلة حليب الصويا باردة! أزاحت لاو دو شعرها القصير المتناثر فوق كتفيها، ثم قررت أن تواسي نفسها بطبق ساخن شهي من عصيدة الشوفان.

Telegram:@mbooks90

لكنها بعدما أنهت طبق العصيدة شعرت بضرورة أن تملأ معدتها ببعض الأطعمة سريعة الإعداد، كالدوكان (كبيس جبن الصويا أو التوفو المجفف)، أو أرجل الدجاج المخللة، أو رقائق البطاطس المقلية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتحت لاو دو باب غرفة يين قه.

لم يكن فوق فراشه. لقد دقت الساعة معلنة التاسعة صباحًا، وبالطبع لا ينبغي أن يكون في فراشه!

كان على فراش يين قه دب!

دب؟! أغلقت لاو دو الباب، ظنًا منها أنها ما زالت نائمة تحلم.

تجولت لاو دو بغرفة المعيشة، وبعدما تأكدت أنها مستيقظة، وأن نظرها ليس زائغًا وعقلها ليس تائهًا، دفعت باب غرفة يين قه ثانيةً. هناك دب مستلقٍ فوق فراش يين قه فعلًا! إنه دب ضخم. كان يتنفس وأسنانه تصدر صريرًا، وبطنه تصعد وتهبط كموج البحر الهائج. لم توقظ لاو دو الدب، فهي تحترم حق مَن يغط في نوم عميق، تمامًا مثلما ترغب في أن يحترمها الآخرون حينما تستغرق في النوم. لكنها أيضًا لم تقف متفرجة، فراحت تتأكد من باب البيت ونوافذه لتفهم كيف دخل هذا الدب غرفة يين قه، ونام فوق فراشه الذي يحبه، وتَغطى بغطائه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استيقظ الدب قبل أن تفهم لاو دو ماذا يحدث.

نظر الدب المستيقظ لتوه إلى لاو دو، وحلقه يصدر غمغمة.

سألته لاو دو: «ماذا تقول؟».

أجابها بالغمغمة نفسها، فقالت لاو دو بكل براءة: «لا أفهمك».

نظر الدب إلى لاو دو نظرة يملؤها الذعر كأنما رأى وحشًا صغيرًا يقتحم عالم أحلامه.

«هيه! هل جئت من الغابة؟».

هناك غابة قريبة من مدينة تشيباي، ويقال إن الدببة والغزلان تضل طريقها عنها دومًا.

لم يُجب الدب سؤال لاو دو، بل خفض رأسه ونظر النظرة نفسها التي يغمرها الذعر للشعر البني السميك الذي يغطي جسده بالكامل.

قالت لاو دو بصوت عال: «لا تنظر هكذا. لم أنتف شعرة منك»؛ فرد الدب بالغمغمة نفسها.

مدت لاو دو يدها لتدفع الدب وهي تقول: «هيه! كيف دخلت بيتي؟». ولكنها تذكرت فجأة أن الدب مهما كان بليدًا فهو قادر على أذية الإنسان؛ فسحبت يدها، ورد الدب بالغمغمة نفسها.

لم تدرس لاو دو لغة الدببة، وهي على يقين من أن الدب الجالس أمامها لم يدرس بدوره لغات البشر. لذلك استدارت وخرجت. كان لزامًا عليها أن تخبر يين قه بأمر الدب الذي ظهر في منزلهما.

كان يين قه يقول لها دومًا: «اتصلي بي متى احتجتِ شيئًا».

اتصلت لاو دو به فلم يُجب. وسمعت الدب حيثما كان قبيل قليل وقد بُح صوته وهو يحاول الكلام.

ارتعدت لاو دو حينما ومض الهاتف وانطلق رنينه، إذ لا يمكن أن يكون يين قه خرج دون أن يحمل هاتفه، فسألت الدب: «هل أكلت يين قه؟»؛ فصرخ الدب!

«لم تأكله؟».

لم تصدقه لاو دو، وقفزت على الفراش، وراحت تتحسس بطنه.

كان بطن الدب ضامرًا خاويًا.

سألت لاو دو الدب: «أين ذهب؟»؛ فنظر الدب إليها بعينين حزينتين.

ثم سألته: «ألم يعد يريدني؟». لكنها بعدما سألته شعرت بأن هذا السؤال غبي بعض الشيء.

صرخ الدب مرة أخرى في وجه لاو دو، فقالت له: «لا تصرخ، أعرف أنه من المستحيل أن يتركني يين قه».

فكرت لاو دو في أن يين قه ربما يكون قد خرج للتنزه فحسب، وأنه سيكون بعد قليل واقفًا أمام الباب حاملًا كيسًا مملوءًا بالدجاج المقلي، ويقول لها ضاحكًا: «كلُّها لكِ أيتها الهرّة النهمة».

لكن مثل هذا الحدث لا يحدث إلا في نهاية الأسبوع، واليوم الاثنين، ويجب أن يكون يين قه في عمله!

قرقرت بطن الدب؛ فنظرت لاو دو إليه ثم نظرت لبطنه. ونكس الدب رأسه كأنما يعتذر عن ذلك.

أتت لاو دو ببضع تفاحات، ثم تذكرت أن الدببة تحب أكل العسل، فعادت وفتحت الثلاجة.

الدب لا يأكل التفاح، ولم يلمس العسل، وكل ما يفعله أن ينظر بحزن إليها تارة، ويطأطئ رأسه وينظر بحزن إلى نفسه تارة أخرى.

خرجت لاو دو في الظهيرة لشراء سمكتين. كانت تأمل أن تجد الغرفة خالية حينما تعود، لكنها بعدما دفعت الباب وجدت الدب حيث كان!

قَلَت لاو دو سمكة، ووضعت الأخرى في صحن خزفي. أكلت وعاء أرز مع السمكة حتى لم يتبق منها إلا عظمها. لكن الدب لم يلمس سمكته، وظل ينظر إلى لاو دو بلا حول ولا قوة.

لم تعره لاو دو اهتمامًا.

هاتفت لاو دو زميلتها دينغ شياو دينغ، التي تشاركها المقعد نفسه في المدرسة، وبمجرد أن رفعت سماعة الهاتف صاحت: «لقد أتى دب إلى منزلنا».

ضحكت دينغ شياو دينغ وقالت: «لا تطلقي مثل هذه الدعابات الرديئة، هل ستصدقينني إن قلت لكِ أن فيلًا أتى إلى منزلنا؟».

ردّت لاو دو: «لا أصدقك».

فقالت دينغ شياو دينغ: «لذلك لا أصدقك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم اتصلت لاو دو بصديقتها العزيزة مي ران ران وقالت لها: «لقد أتى دب إلى منزلنا».

في البداية أطلقت مي ران ران ضحكات عالية، ثم غلب عليها الجد فجأة وقالت: «هل يمكن أن آتي لرؤيته؟».

فنظرت لاو دو للدب المستلقي على الأرض وقالت: «كنت أمزح معك».

حاول الدب بكل قوته أن يُفهم لاو دو ما يريد قوله بالإشارة، ومع ذلك لم تفهم، لكنها شعرت أن هذه الإشارة تعني أنه لا يريد أن يزوره أحد.

ذهبت لاو دو بعد الظهر لدرس السباحة.

كان ييين قه مَن سجّل اسم لاو دو في تلك الدروس.

أرادت لاو دو تعلم التايكوندو، لكن ييين قه قال لها: «أنتِ شرسة بما فيه الكفاية، فكيف إذا تعلمتِ هذا الفن القتالي؟! من الأفضل أن تتعلمي السباحة، فهي مفيدة في الحفاظ على قوام رشيق، وإنْ حدث فيضان فلن تغرقي».

عارضته لاو دو، واحتد الجدال بينهما كالعادة، ثم عقدا اجتماعًا عائليًا من فردين فقط، وفي النهاية كانت الغلبة لمَن يدفع المال.

لم تكن لاو دو مطمئنة لهذا الدب، إذ خشت أن يستغل فرصة غيابها ليعيث في المنزل خرابًا، لكنها حين تذكرت أن أغلى ما تملكه هي وييين قه ليس إلا ذلك التلفزيون الذي اشترياه قبل ثلاث سنوات، انطلقت للخارج.

لم تتدرب جيدًا، بل غرقت وابتلعت بضع جرعات من المياه، فقال لها المدرب إن ذهنها شارد، فقالت له: «هل كنت ستتمكن من تركيز انتباهك لو كان في بيتك دب؟»؛ فأجاب المدرب: «يمكنني التركيز حتى لو كان في بيتي أسد، لأنني لا أسرح بخيالي قط».

ضحكت لاو دو، وضحكت معها الفتاة التي بجوارها.

«أوقفا هذه الضحكات البلهاء، وتابعا السباحة إلى الأمام بكل قوتكما. إلى الأمام! اسبحا إلى الأمام!».

غضبت أم الفتاة الواقفة خارج حمام السباحة.

ضمت لاو دو شفتيها غضبًا وقالت في نفسها: «لا أريد مثل هذه الأم، ولو بلا مقابل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يُتلف الدب شيئًا وعاد ليتمدد فوق فراش يين قه، وغطى رأسه باللحاف.

جلست لاو دو في غرفة المعيشة تنتظر يين قه. كانت تعرف أنه قادر على حل أي مشكلة قد تواجههما مهما كانت، فكيف بأمر بسيط كأمر الدب. لكن الساعة دقّت السابعة ثم الثامنة مساءً، وانتصف الليل ولم يعد يين قه بعد.

حينها أدركت لاو دو أن الأمر قد يكون أخطر مما تصورت.

انتظرت لاو دو الدب حتى يصحو وعادت تسأله: «هل أكلت أبي؟».

هز الدب رأسه بكل ما أوتي من قوة، وبعد أن نظر إلى كفيه الأزغبين وفروه البني الكثيف، استلقى مرة أخرى واستغرق في النوم.

بحثت لاو دو في هاتف يين قه كثيرًا حتى وجدت اسمًا تألفه.

اتصلت بصاحب الاسم ولكن كان الرد في الهاتف مفعمًا بالاندهاش: «ماذا؟ اختفى أبوك؟».

سألت لاو دو: «هل يعمل اليوم ساعات إضافية؟»؛ فأجاب بكلمات متقطعة: «ربما... من الأفضل أن تنتظري، ربما يعود بعد قليل. إنه... مشغول جدًا في الفترة الأخيرة».

أغلقت لاو دو الهاتف، فإنْ لم تفعل لتساقط دمعها.

لم يعد يين قه إلى البيت في تلك الليلة، ولم تأكل لاو دو ولم تعرف للنوم طريقًا. ظلت في غرفة يين قه تستمع لشخير الدب الذي يرده السقف؛ فيعود ليصطدم بالأرض!

في الصباح كانت لاو دو تنتظر عند مدخل شركة ييتو للتصميمات المعمارية السكنية.

سألها رجل متوسط العمر تعلو رأسه بضع شعرات متفرقة بابتسامة مصطنعة وهو يفتح بوابة الشركة المزخرفة: «أبوكِ؟ مَن هو أبوكِ؟»؛ فأجابت سريعًا: «يين قه، أبي هو يين قه!».

تلاشت البسمة من وجه الرجل وقال: «لا يعمل في الشركة أحدٌ بهذا الاسم».

كيف ذلك؟ إنها تذكر جيدًا عبارة: «كبير المصممين بشركة ييتو للتصميمات المعمارية السكنية» المطبوعة على بطاقة اسم يين قه، كما تذكر جيدًا أنه أشار لهذا المبنى الصغير في أثناء تجوالهما معًا في الشوارع وهو يقول متفاخرًا: «أتدرين يا بنيتي؟ إن أباك يعمل في هذا المكان الأنيق الفاخر العالي المستوى لتصميم منازل دافئة لآلاف الأسر».

لاو دو على يقين من صحة ذلك.

قالت لاو دو: «إن أبي يعمل هنا. إنه مصمم، وتصميماته رائعة يحبها الناس».

كانت لاو دو تنظر للرجل متوسط العمر وهو يقول وضحكة باردة تعلو ثغره: «حقًا؟ إنه إذن مصمم ممتاز؟»؛ فردت لاو دو: «أنت تعرفه!»، فأجاب بالنفي، فقالت: «أنت كاذب».

لوى الرجل شفتيه كأنما صفعه أحدهم على وجهه، وقال: «حسنًا، أنا أعرفه بالتأكيد، لكنه لم يعد يعمل في هذه الشركة منذ زمن طويل».

ذهلت لاو دو حين سماعها أن يين قه لم يعد يعمل بشركة بيتو، إذ كيف لم تسمعه يذكر ذلك من قبل؟ فعادةً يخبرها بكل شيء، بالعملاء الذين يصعب إرضاءهم، وبتصميمه منزلًا جديدًا لعروسين، وبخلافاته مع مديره، وبالجودة السيئة لفيلم ما... إلخ. لكن حديثه معها مؤخرًا قلّ كثيرًا بالفعل، وصار يعود من العمل في وقت انتهاء الدوام بالضبط، ولم يعد يعمل ساعات إضافية في عطلة نهاية الأسبوع، وإذا سمع أغنية مبهجة لا يبتسم، وإذا شاهد فيلمًا كوميديًا لا يضحك.

قالت لاو دو وهي تضم قبضة يدها بغضب: «لقد أخفى عني الحقيقة طوال الوقت!».

اندهش الرجل الذي هاتفته بالأمس حينما رأى لاو دو تقف حائرة أمام مدخل الشركة. كانت لاو دو قد أرخت قبضة يدها لكن قلبها كان قد امتلأ بالوحشة.

«ما الأمر؟ ألم يعد والدكِ حتى الآن؟».

هزت لاو دو رأسها أن نعم.

أخبر لووه داتو صديق يين قه المقرب وزميله في العمل لاو دو أن يين قه لم يعد يعمل في شركة بيتو فعلًا، فقد استقال منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر.

«ثلاثة أشهر؟».

جلست لاو دو في المطعم تأكل بيتزا بنهم حتى كادت تلتهم لسانها، وظلت تؤنب نفسها وتسألها: «كيف غفلت عن ذلك؟ كيف لم ألاحظ؟».

قال لها لووه داتو إن يين قه ورئيسه في العمل تشي قنفا كان بينهما خلافات منذ زمن طويل، وقد افتتح تشي قنفا شركة لبيع مستلزمات الديكور، وطلب من المصممين حث العملاء على شراء المواد اللازمة للديكورات من تلك الشركة، كما طلب منهم أن يُدرجوا في تصميماتهم مواد البناء باهظة الثمن التي تحتكرها شركته، لكن تصميمات يين قه كانت تأتي في كل مرة وفقًا

لمتطلبات العميل لا أكثر، ولم يحدث قط أن أوصى عملاءه بشركة رئيسه تلك لشراء مستلزمات الديكور.

قالت لاو دو: «كان يجب أن يستقيل منذ فترة طويلة».

تردد لووه داتو لحظات ثم تابع: «لكن... يعمل تشي قنفا في هذا المجال منذ سنين طوال، وقد كان والده أيضًا يرأس هذا المجال، لذلك لا تجرؤ شركات التصميم الأخرى على توظيف أبيكِ مع علمها بكفاءته. بالإضافة إلى...».

تجشأت لاو دو بقوة وهي تشد قبضتها على كوب عصير البرتقال الذي ابتاعه لها لووه داتو وسألته: «بالإضافة إلى ماذا؟».

«بالإضافة إلى أن أباكِ يرغب في تغيير هذه المهنة والعمل في أخرى، وقد بحث في المعارض الفنية والمطاعم والحانات، لكن أحدًا لم يقبل به، لا لقلة خبرته بل لكبر سنه».

غصت لاو دو بالعصير وجاهدت حتى بلعته، وقالت: «هل كان على استعداد لأن يكون عاملًا؟».

هز لووه داتو رأسه أن نعم، فقالت لاو دو: «إنه يرسم، ولوحاته رائعة».

«وقد ذهب أيضًا للبحث في دور السينما ومراكز التسوق عمّن يريد رسم الملصقات الإعلانية، لكن الجميع قال إن السائد في عصرنا هذا هو الصور الكارتونية، وإن أسلوبه هذا قد عفا عليه الزمن».

«يمكنه بيع اللوحات للمعارض الفنية!».

قال لووه داتو وهو يهز رأسه: «مَن قد يشتري الآن لوحة رسام غير معروف؟ إن ما يسعى الجميع إليه ليس جودة العمل الفني، بل مستوى شهرة الفنان صاحب العمل».

تجشأت لاو دو بقوة مرة أخرى.

«لذلك فهو لم يجد عملًا مناسبًا قط. وقيل إنه مؤخرًا قابل تشي قنفا صدفة في الشارع... ذلك الرجل حقير، ولسانه جارح».

رفعت لاو دو رأسها وهي تلقي بكامل المشروب الحمضي اللذيذ في معدتها دفعة واحدة، وقد ساورتها رغبة ملحة في التجشؤ مرة أخرى.

«لقد استهزأ بأبيكِ وقال إنه غير كفء، كما قال إنه مهما كانت كفاءته فلا يساوى شيئًا بلا

رئيسه تشي قنفا».

فغرت لاو دو فاها حتى أطلقت أخيرًا جشاءً واضحًا! وندمت كثيرًا على عدم ضرب تشي قنفا ضربًا مبرحًا قبيل قليل.

وحينما همت لاو دو بالمغادرة، استدارت فجأة لتسأل لووه داتو: «هل نعت ييِن قه بالدب؟».

«ماذا؟».

«أظن أن أبي لم يختفِ».

وحينما عادت لاو دو للمنزل وجدت الدب لا يزال مستلقيًا فوق الفراش.

لوّحت لاو دو أمامه بخبز الذرة الذي كان يفضله ييِن قه وقالت: «انهض!».

كان الدب ناظرًا إلى لاو دو وهي تقول له: «أنت ييِن قه، صحيح؟».

لم يُجب الدب، لكن اغرورقت عيناه بالدموع.

قالت لاو دو: «أنت ييِن قه كما توقعت. أنا ابنتك وإنْ رغبت عن النظر إليّ».

تساقطت دموع الدب.

«لا تبكِ، أنت تعرف أن أكثر ما أمقته هو بكاء الرجال. بعدما بكى دينغ شياو دينغ حين شتمته لم أعره اهتمامًا طوال يومين».

حينئذ كف الدب عن البكاء.

قالت لاو دو بصوت عالٍ: «قرأت على الإنترنت خبر ظهور مرض التحول في بعض الأماكن، ولكني لم أتوقع أن يصادفني هذا (الحظ السعيد). حسنًا، لن أحاسبك وأنت على حالك هذه، فلتسرع بتناول هذا الطعام حتى نقوى على التفكير في كيفية حل هذه المشكلة».

دندنت لاو دو بأغانيها وهي تنظف المنزل. لم تعرف كم تبقى مع ييِن قه من رصيد في البنك وما المدة التي يكفي هذا المال لإعالتهما. يقال على الإنترنت إن المصاب بداء التحول يمكن أن يستعيد شكله الأصلي بعد عشرة أيام أو أسبوعين، لكن من الممكن أيضًا أن يظل سنوات أو حتى طوال عمره دون أن يتعافى، وتختلف آراء الخبراء وتتباين حول سبب هذا المرض، فيعتقد بعضهم أن السبب هو التعرض لصدمة عنيفة، ويعتقد بعضهم أن السبب اكتئاب طويل الأجل، وهناك مَن يرى أنه طريق مختصر وفعّال يهرب عبره المريض من الواقع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2. هو أبي

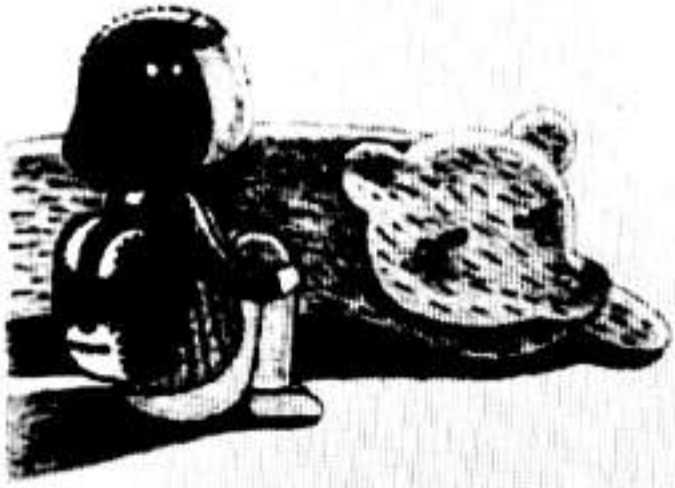

رفض الدب الخروج، فقالت له لاو دو: «وكيف يصح ذلك؟ ستختنق بين جدران المنزل. في آخر مرة مكثت في المنزل ألعب مدة ثلاثة أيام فقط قلت إنني سأتعفن وسينمو شعر أخضر في جسمي كله، والآن مكثت أنت خمسة أيام في المنزل بلا خروج، وإذا لم تخرج وترى الشمس فستصير دبًا عفنًا، بل دبًا ضخمًا عفنًا».

دلّى الدب رأسه الضخمة، ونظر بحزن إلى الفرو البني الذي يملأ جسده بالكامل.

«أعرف أنك حين تخرج بهذا الشكل ستثير ضجة كبيرة تُخرج أعين الناس من مقلتيها، بل أكبر من تلك التي أثيرها حينما أصبغ شعري بعشرين لونًا مغًا، ولكن أنّى لك مثل هذه الفرصة في حياتك مرة أخرى؟ فلتجرب إحساس أن تكون مختلفًا ملفتًا للأنظار».

لم تهتم لاو دو بإعراض الدب عن الخروج، وارتدت سروالًا قصيرًا فوقه قميص أصفر مشمشي، ثم لبست حذاء رياضيًا، وفتحت باب المنزل.

رأتها الجدة التي تسكن بالأسفل فراحت تسألها: «هل بدأت العطلة الصيفية يا لاو دو؟».

أومأت لاو دو برأسها.

«وأين أبوكِ؟ لم أره منذ عدة أيام!».

ردت لاو دو بكلمات ممطوطة: «إنه... ييين... قه! أحدهم يسأل عنك».

ولكن لم يظهر الدب.

«إنه في المنزل إذن! كنت أظنه بالخارج... كنت قلقة عليكِ إذ ظننتك بالمنزل وحدك، فهذا خطر كبير...».

نظرت لاو دو إليها والازدراء يملأ عينيها وقالت: «أنا الآن في الحادية عشرة من عمري، فلست فتاة صغيرة!».

اعتادت الجدة نظرات الازدراء من لاو دو وكانت تُضحكها. قالت لها: «في الحادية عشرة ولستِ فتاةً صغيرة؟ فما أنت إذن؟».

«أنا نمرة صغيرة».

قالت الجدة: «إنْ كنتِ نمرة صغيرة، فأنا أسد كبير».

وبدت بشعرها الأصفر الأشعث أشبه بالأسد حقًا.

أما الدب فلم يظهر بعد.

وضعت لاو دو يدها على رجلها وصرخت: «آه يا رجلي!».

حينها خرج الدب سريعًا من الغرفة.

ضحكت لاو دو وقالت له: «هل صدقت؟ سواء كنت يين قه أو صرت دبًا ضخمًا، فحيلتي هذه تنطلي عليك دائمًا».

سار الدب الذي بدا كجبل صغير باتجاه لاو دو مترنحًا، بينما حدّقت الجدة الواقفة بجوارهما بعينيها حتى صارت الواحدة منهما أكثر استدارة من كرة تنس الطاولة.

قالت لاو دو: «إنه... أبي».

هدأت الجدة وقالت ضاحكة: «سيوبخك أبوكِ حينما يعرف.»، فردت لاو دو من فورها: «إنه أبي حقًا».

«لا تحاولي خداعي أيتها الفتاة الصغيرة! أخبريني بصراحة، من أين أتيتِ بهذا الدب؟».

«إنه أبي حقًا».

«يمكنكِ تربية القطط والكلاب والدجاج والخنازير، لكن إياكِ وتربية الدببة، فهم فضلًا عن نهمهم، شرسون للغاية» فقالت لاو دو: «دبي مطيع» ورغبت عن قول المزيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لقد أنجبت قطتي، فما رأيك أن تطردي الدب وتأخذي هرًا بدلًا عنه؟»

وقبل أن تنهي الجدة كلامها كانت لاو دو قد أخذت الدب وغادرت. رفض الدب الذهاب بعيدًا فاكتفيا بالسير حول حديقة الحي السكني.

قالت لاو دو في نفسها: «ربما بالسير هكذا يعود إلى شكله الأصلي، وقد نتمكن بحلول المساء من الذهاب لتناول الوجبات السريعة».

كانت من عادات ييين قه أن يصطحب لاو دو -مهما كانت الظروف- في اليوم الثامن عشر من كل شهر لتستمتع بتناول الدجاج المقلي والأجنحة المشوية والهمبورجر كما يحلو لها.

لكن اليوم انقضى والدب لا يزال دبًا.

وفي اليوم التالي، وبينما كانت لاو دو تشعر بقلق وارتباك بسبب ما تبقى من مال في دفتر توفير ييين قه، دق جرس الباب.

كانت تلك الجدة الثرثارة رغم انشغالها التي تسكن بالشقة المجاورة.

قالت لها لاو دو: «لا أفهم في تربية القطط، أيًا كانت قططك، ذهبية أو فضية، فأنا لا أفهم في تربيتها».

وقفت الجدة تدفع الباب الذي تحاول لاو دو إغلاقه وتمد رأسها إلى داخل المنزل تبحث يمينًا ويسارًا وهي تقول: «اطمئني، فلن أعطيكِ قطًا. لكنكِ تُربّين حيوانٍ أليف كالدب حينما يقف على أرجله الأربعة يكون أطول مني وحينما يقف على اثنين يكون أطول وأطول، والجميع معترض على هذا».

«ليس حيوانًا أليفًا!»

«حسنًا، سأخبرك الحقيقة، قد رآكِ جميع القاطنين في هذا الحي تتجولين مع ذلك الدب الضخم».

«كنا نتمشّى».

«الجميع يرى أنه خطر جدًا».

«لن يؤذيني».

«سينقل لكِ الأمراض الوبائية الحيوانية».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«إنه ليس مصابًا بأمراض معدية!».

«أحدهم سيبلغ عنكِ إنْ لم تأخذيه بعيدًا عن هنا».

سألتها لاو دو: «هل أنتِ مَن سيبلّغ عني؟».

فزمّت الجدة شفتيها وهي تقول: «لا أفعل مثل هذه الأمور التافهة».

ردت على الجدة: «لن أسمح لأحد أن يأخذه بعيدًا عني»، وقد كان وقع صوتها على الحائط كمطرقةٍ ثقيلة تُدق لحراسة حصنها هي وأبيها.

هكذا هُزمت الجدة وأذعنت، لكنها حين همّت بالمغادرة، كانت لا تزال تهمهم بقائمة طويلة من كلمات غاضبة غير مفهومة.

وصل لووه داتو في ذلك الحين، ومن أجل الدب أحضر معه الكثير من التفاح والموز فضلًا عن عسل النحل.

سأل لووه داتو: «هل معكِ ما يكفي من المال؟».

قالت لاو دو: «معي»، لكنها ندمت على قولها هذا، فما معها من المال غير كافٍ قط. ولهذا ألحت عليها رغبة في صفع وجهها.

«ماذا لو... أقصد إذا ظل أبوك على هذه الحال».

«لن يظل على هذه الحال، سيعود يين قه!».

«هل هناك ما يمكن أن أساعد به؟».

قالت لاو دو: «لا»، ولكنها في الواقع أرادت أن تقول: «بالتأكيد أحتاج إلى مساعدتك، ساعدني في إيجاد طريقة يعود بها يين قه من دب إلى إنسان طبيعي».

جلس لووه داتو قليلًا مع لاو دو، ورأى من شق الباب الدب الذي شوّه ثقله الفراش. وبعدما عرف الدب بمجيئه، غطى رأسه بلحافه من جديد.

فور أن عادت لاو دو من درس السباحة في وقت الأصيل، تلقت مكالمة من حديقة الحيوان.

سألها المسؤول من الحديقة: «يقولون إن هناك دبًا في منزلك. صحيح؟».

همهمت لاو دو ولم تجب بكلمات واضحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«بشكل عام، لا يُسمح بتربية الدببة في المنازل».

«إنه ليس دبًا، إنه أبي».

«على حد قولكِ هذا فأنتِ أيضًا دبة؟».

قالت لاو دو: «نعم، أنا أيضًا دبة!»، ثم أغلقت الهاتف.

لم تتوقع لاو دو أن يكون رد فعل حديقة الحيوان بهذه السرعة، ففي خلال أقل من عشر دقائق كانت أمام المنزل شاحنة كبيرة ذات قفص حديدي ضخم.

لم تعرف لاو دو ماذا تفعل. إنها لن تسمح لهم مطلقًا بأن يأخذوا دبها منها!

اتصلت لاو دو بلووه داتو. لقد كان أصدقاء يين قه في هذه المدينة يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة.

بعد أن وضعت لاو دو سماعة الهاتف انحنت على النافذة لترى ذلك القفص الحديدي الضخم. إنهم يريدون حبس الدب بداخله وعرضه للجمهور، حيث يمكن أن يطعمه السائحون الموز والفول السوداني، فيصير عرضة للضحك والإهانة! شعرت لاو دو بأن أنفاسها تتسارع.

هزت الدب الذي كان بين النوم واليقظة حتى توقظه، وألبسته ثياب نوم يين قه ذات مقاسات كبيرة جدًا، وسروالًا ذا مقاس كبير جدًا، ووضعت على رأسه قبعة كبيرة جدًا كانت قد ابتاعتها في عيد الميلاد المجيد.

ثم رن جرس الباب بلا توقف.

قالت لاو دو: «إنه المسؤول من حديقة الحيوان».

غطت وجه الدب علامات الذعر حينما سمع ذلك.

ربتت لاو دو على صدر الدب وقالت بثقة: «اطمئن، فأنا معك!».

استدار لووه داتو في منتصف طريقه واتجه إليهما بسرعة الطائرة.

وقف لووه داتو أمام الباب يعترض الطريق إلى داخل المنزل، وقال للمسؤولين من حديقة الحيوان: «أنتم مخطئون، ما مِن دب هنا. إنها مزحة سخيفة من فتاة صغيرة، هل ستأخذون كلامها على محمل الجد حقًا؟».

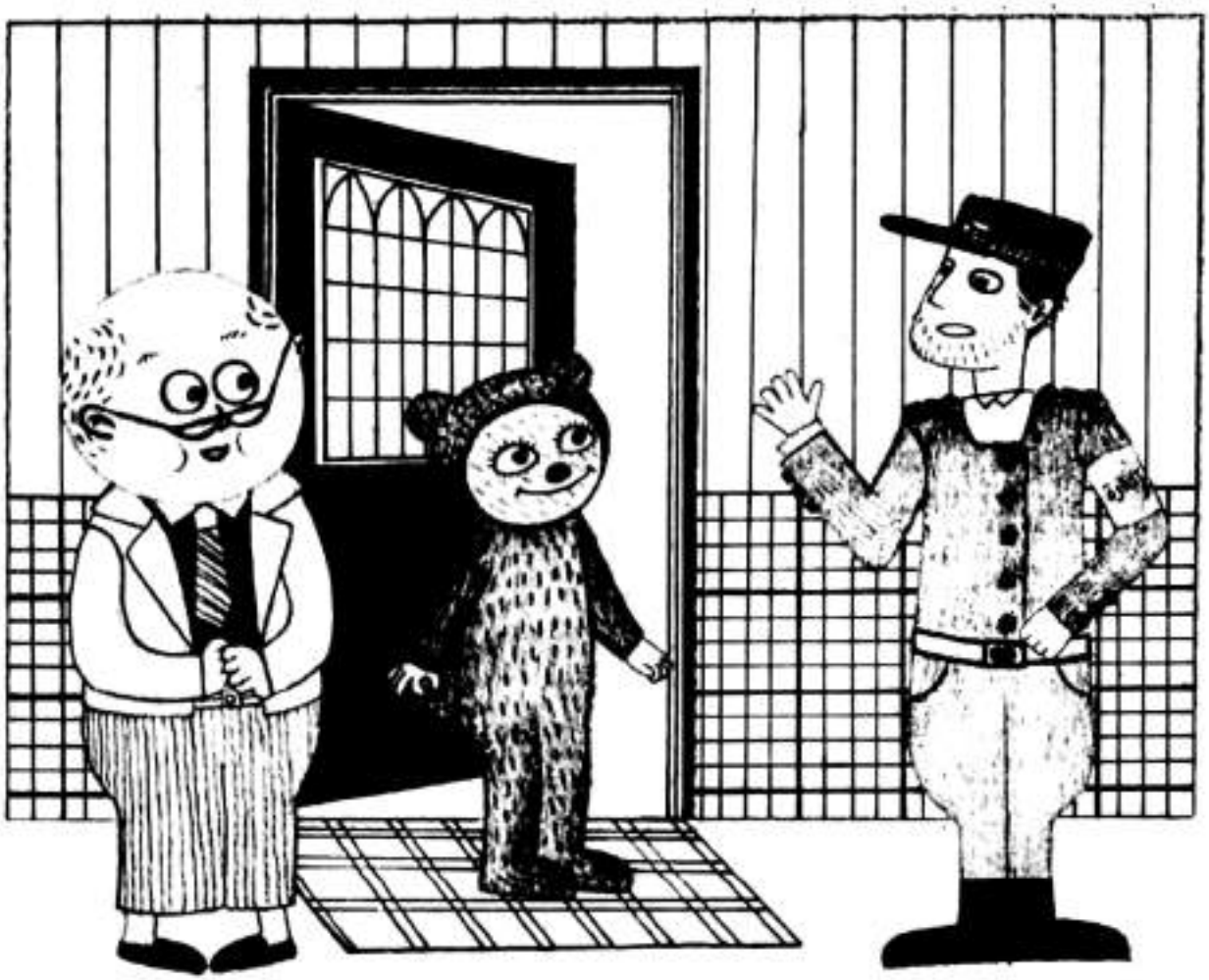

رد مسؤول الحديقة -وكان ذا لحية وشارب يملآن وجهه- قائلا بكل حماسة وتأكيد: «كيف يمكن ذلك؟ يجزم جميع السكان بوجود دب بني ضخم جدًا هنا. لدينا في الحديقة دب أسود وآخر رمادي، ولا ينقصنا إلا دب بني ضخم».

فُتح الباب في هذه اللحظة فجأة، ومد «دب بني» رأسه من الباب.

صاحت لاو دو: «العم لووه داتو!».

ذُهل لووه داتو، كما ذعر المسؤول الملتحي. وكان رد فعل لووه داتو سريعًا إذ قال: «انظر، هل هي دبة أمامك؟».

نظر الملتحي إلى لاو دو التي ارتدت ثيابًا على شكل دب ورسمت على وجهها وجه دب وقال: «ليست دبة بالتأكيد. ولكن لمَ ترفضين فتح الباب؟».

أجابت لاو دو وهي تتحسس ذيل الدب الأزغب وتضحك: «ألم يوصيك أبوك من قبل ألا تفتح الباب لغرباء مطلقًا؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنا عامل في حديقة الحيوان. وقد جئت إلى هنا بناء على بلاغ وصلنا بوجود دب بني ضخم الحجم هنا، دب بني ضخم كفرس النهر».

«صحيح. هنا دب بني ضخم جدًا كفرس النهر، لكنه نائم الآن، فهلا تدخل لتوقظه؟».

قال لووه داتو الواقف بالجوار وقد تميز من الغيظ: «ما مِن دب هنا حقًا! هل ستصدق مزاح فتاة صغيرة؟».

لكن الملتحي دخل بالفعل مع لاو دو إلى غرفة يين قه.

أراد الملتحي إشعال الضوء وتبين الأمر.

قالت لاو دو: «تلف المصباح، فهلّا تصلحه لي!»، فقال الملتحي: «وأنّى لي هذا الوقت لأضيعه؟!»، ورأى «رجلًا» يرتدي ثيابًا كبيرة المقاس نائمًا على الفراش ويصدر شخيرًا عاليًا.

«كيف يرتدي كل هذه الثياب في مثل هذا الجو الحار؟!».

«يتحمل جسد أبي الحرارة، وقد أصابه برد، ويعرق كثيرًا. سمعت الطبيب يقول إن هذه النزلة شاعت مؤخرًا، فما رأيك في أن تساير التيار؟».

«دعك من كلامها الفارغ! إنه صديقي، وقد أصابته نزلة برد حقًا، وقد جئت لزيارته. يمكنك البقاء معنا للاعتناء به... ولكن فلتعرف أنه سمين جدًا، ومسح عرقه ليس بالأمر السهل مطلقًا».

خرج الملتحي من غرفة يين قه على عجل وهو يقول: «قد أفعل في يوم آخر فأنا اليوم مشغول»، ونظر مرة أخرى إلى لاو دو قبل أن يغادر وقال: «أيتها الفتاة الصغيرة! إنكِ تشبهين الدب حقًا بهذه الثياب، فما رأيك في أن تعملي لدينا نصف دوام؟».

«لأمثّل دور دب؟».

«نعم!».

قالت لاو دو وهي تدفع الرجل بالباب إلى الخارج: «حسنًا، سأفكر في الموضوع».

وبعدما غادرت الشاحنة من أمام المنزل على مهل، ألقت لاو دو أخيرًا بجسدها المنهك على الأريكة. وشعرت في قرارة نفسها بأنها محظوظة، إذ كانت في العام الماضي قد شاركت في حفل تنكري عقدته المدرسة، ولجأت لمختلف الأساليب الناعمة والقوية لأجل أن يشتري لها يين قه معطفًا قبيح المنظر على شكل دب، ولم يخطر ببالها أن هذا المعطف سيكون ذا نفع كبير في مناسبة «جدية خطيرة».

غط الدب في نوم عميق. وأرادت لاو دو أن تنزع عنه ثياب النوم، لكن لووه داتو قال لها: «فلتتركيه مغطى، ربما يعود إلى شكله الطبيعي».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3. الخروج مع الدب

في المطار، كانت البرودة تسري في جميع أنحاء جسد موظف حجز التذاكر، كما لو كان خارجًا لتوّه من مخزن جليد. ونظر إلى لاو دو بازدراء وهو يقول: «لا يمكن أن يستقل دب الطائرة!».

سألته لاو دو: «فكيف إذن بالحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب؟».

«بالطبع يمكن اصطحابها!».

«إذن لماذا لا يمكن اصطحاب الدببة؟».

«سيجن جنون الدب حينما تمر الطائرة عبر مطب هوائي. وفضلًا عن ذلك، هل تظنين أن هناك مقعدًا في الطائرة يتسع لدب؟».

لا مشكلة في أن يجن جنونه، المشكلة الحقيقية هي عدم وجود مقعد يناسبه.

تظاهرت لاو دو بلا مبالاة تامة وقالت وهي تنفخ الشعيرات القصيرة المنسدلة على جبينها: «حسنًا، على كل حال أنا أيضًا يصيبني ركوب الطائرات بالدوار»، ثم أخذت الدب وغادرا.

إن ركوب الطائرات يصيبها بالدوار حقًا، بل قد أحدثت فوضى كبيرة بتقيؤها آخر مرة ذهبت فيها مع يين قه إلى البحر. هكذا أفضل، على الأقل لن تقلقها مشكلة التقيؤ.

قررت لاو دو اصطحاب الدب لركوب القطار. وكانت في الليلة السابقة، فور أن غادر المسؤول من حديقة الحيوان، قد جهزت الأمتعة اللازمة لمغادرة البيت.

قالت لاو دو: «لا بد من أن آخذه لمكان آخر، فلو بقى هنا، سيأخذونه ليكون فرجة للزوار عاجلًا أو آجلًا».

سألها لووه داتو: «إلى أين ستذهبين به؟».

لم تدرِ لاو دو إلى أين يمكن أن يذهبا. لقد أخذها ييِن قه فيما مضى إلى أماكن عديدة إلى المروج الشاسعة، إلى الأراضي الرطبة الرائعة، وإلى غابات مترامية الأطراف. لقد أنفق ييِن قه كل مدّخراته وقضى كل وقت فراغه في التنزه برفقتها. ومع ذلك، فلا يوجد في أي مكان من تلك الأماكن أجداد ولا أعمام، ولا حتى أقرباء بعيدين. ييِن قه يتيم، ولا أهل له إلا ابنته لاو دو، وهي كذلك، ليس لها غيره.

قال لها لووه داتو: «ربما... يمكن أن تذهبي إلى مدينة يوقو».

«مدينة يوقو؟».

«لقد جاء أبوك منها».

«لكنه لم يعد قط، وقلّما ذكرها أمامي. إنه يكره ذلك المكان!».

«ذلك لأنه لا يزال يحب أمك. أظن أنها ما زالت هناك بالتأكيد».

قالت لاو دو وهي تضم قبضة يدها بقوة: «ليس لديّ أم».

«ربما تساعده أمك في الشفاء».

«قلت ليس لديّ أم!».

«أمك اسمها ييِن شياوخه، وأبوك يحبها حبًا جمًا، وقضى سنوات عمره منتظرًا عودتها، وإلا ما رفض رفضًا قاطعًا كل النساء اللواتي عرّفه الآخرون عليهن عن حسن نية».

«يرفض أبي الزواج لأجلي أنا!».

«ليس لأجلك، بل لأجل أمك، إنه ما زال يحبها!».

دفعت لاو دو بلووه داتو بشدة خارج المنزل. كان الوقت متأخرًا، وقد اتصل تشي قنفا مرات عديدة بلووه داتو، ولم ترِد لاو دو أن يعرف تشي قنفا بأن لووه داتو معهما، ولم ترِد كذلك أن يستمر لووه داتو في ثرثرته عن «أمها».

نام الدب نومة هنيئة. وجلست لاو دو بجواره طويلًا. وتذكرت تدريجيًا بعض الأمور التي

غفلت عنها أو رفضت الانتباه إليها، منها مثلًا أن يين قه حينما يثمل يغني، وبذهن شارد حزين يلتقط ورقة وقلمًا ويرسم امرأة في فستان أبيض ذات شعر طويل منسدل على كتفيها، وأن يين قه أيضًا يتوقف فجأة وسط سيره في الشوارع ويرفع رأسه للنظر إلى السماء وينطق بوضوح اسم: «شياوخه»، وأنه بعد أن يبتهج لرؤية منظر بديع يصادفهما في ترحالهما، يشعر بحزن وخيبة أمل.

لا بد للفتاة الصغيرة من الاعتراف بوجود واحدة غيرها في عالم يين قه، وهي امرأة تدعى: يين شياوخه.

لقد سألت لاو دو أباها يين قه عن أمها في صغرها. وكان يين قه يجيبها دومًا وهو يحك أنفها الصغير: «أمكِ... ذهبت إلى مكان بعيد...».

وبعدما كبرت قليلًا، كان يقول لها بلا مبالاة وأريحية مصطنعة وهو يشد ضفيرتها: «أمكِ... إنها في مكان بعيد جدًا... ربما لن تعودَ مرةً أخرى. لكنها جميلةٌ وطيبةُ القلب حقًا».

أملت لاو دو أن يجد لها يين قه أمًا أخرى.

يين قه رجل أنيق وسيم دون تكلف، طوله 178 سم، له حاجبان كثيفان، فوق عينين سوداوين مُعبّرتين. حينما يقف بهيئته تلك على ناصية الشارع، يجذب من فوره نظرات جميع من حوله. وهو في نظر لاو دو أجمل رجل بالعالم، بل إن رآه النجم اللامع أويانغ خاو(1) -الذي يلاحقه الجميع ويسهبون في مدحه- لفرّ خجلًا!

إذن ما مِن سبب منطقي لكي يظل هذا الأب الوسيم بلا زوجة جميلة، بل أجمل عشرات المرات من والدتي صديقتيها دينغ شياو دينغ ومي ران ران.

لكن هذه الحماسة المتقدة في لاو دو لا تلبث أن تنطفئ في كل مرة، إذ إن يين قه فضلًا عن أنه لا يقبل ذلك منها مطلقًا، فهو في بعض المرات يفرقع إصبعه في جبهتها بقوة وهو يحذرها قائلًا: «لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ».

وقال لووه داتو أيضًا إنه ذهب لاستشارة طبيب، وعرف أن مرض التحول مرض جديد، ولهذا تعكف جميع مؤسسات البحث العلمي على دراسته، لكن ليس له أي علاج فعال حتى الآن، ولا بد من «أن ندع الأمر يأخذ مجراه الطبيعي». وهو ما يعني احتمالية أن يظل يين قه على شكل الدب للأبد.

لم تصدق لاو دو هذا الكلام، فبحثت على الإنترنت حتى تتحقق من الكثير من المعلومات،

وأصيبت بالذعر حينما وجدت أن هناك عددًا ليس بالقليل قد أصابه هذا المرض، منهم مَن وجد نفسه حينما استيقظ من نومه قد تحول فجأة إلى حيوان، ومنهم مَن تحوّل بالتدريج؛ فارتفعت أولًا حرارته بشدة، وشعر بحكة في أخمص قدميه، ثم انتشرت الحكة في سائر جسده، وكلما حكّه زاد شعوره بها، وفي النهاية نما الشعر القصير في باطن قدميه، ثم في ساقيه، ثم فخذيه، ويظل ينتشر حتى وصل إلى وجهه.

تذكرت لاو دو في بداية الأمر أن ييين قه تحول فجأة، لكنها كلما أمعنت التفكير في أمره أدركت أن هناك شيئًا غير مفهوم، إذ إن ييين قه ظل عدة أيام يشكو من ارتفاع حرارته، ويقول أيضًا إنه يشعر بالحكة في جسمه كله.

قالت له لاو دو حينها: «ألا تشعر بالتحسن حينما تحك جلدك وينتهي الأمر؟».

«أحكه ولكن دون فائدة».

«السبب إذن أنك لم تستحم منذ فترة طويلة».

«إنني أستحم كل يوم!».

لم يعرف ييين قه سبب تلك الحكة التي ملأت كامل جسده، ولم تشغل لاو دو بالها بالأمر مطلقًا، لأن بالها مشغول فعلًا بالكثير من الأمور الأخرى، كالتزلج بالعجلات، والتزلج على الجليد، والتشاجر، وتدبير المقالب نكاية في معلّميها، والسخرية من زملائها لإغاظتهم. إنها مشغولة للغاية، فلم تعرف بذلك التغير الكارثي الذي يطرأ على جسد ييين قه بالكامل.

شعرت لاو دو بالخجل الشديد من إهمالها، لهذا رأت ضرورة أن تفعل لأجله شيئًا ما عوضًا عن تقصيرها في حقه.

فكرت لاو دو في الذهاب إلى مدينة يوقو.

سحبت لاو دو كل المال من بطاقة ييين قه، كما أخذت كل المال الذي كانت تنوي إنفاقه سرًا على مشاهدة عرض فرقة Y5 الموسيقية مع دينغ شياو دينغ، وعلى لعب الألعاب الإليكترونية مع مي ران ران، وكذلك المال الذي خططت لأن تشتري به شعرًا مستعارًا ودلايات كرتونية، وأيضًا هدية عيد ميلاد ييين قه.

يبدو الوضع على ما يرام، فهذا المال من المفترض أنه سيكفي للذهاب إلى مدينة يوقو، أما ما سيحدث بعد ذلك، فلم تفكر لاو دو كثيرًا بشأنه، فهي تؤمن بمقولة: «ما مِن مشكلة بلا حل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اجتازت لاو دو الفحص الأمني في محطة القطار بلا مشكلة، أما الدب ففي المرتين اللتين حاول فيهما اجتيازه كانت المؤشرات تومض ومضات التحذير مصدرةً نغمتها المطولة تلك.

تقدم نحوهما مسؤول الفحص الأمني بوجه عابس وقال: «لا يمكن للدب أن يستقل القطار».

«ليس دبًا. إنه أبي».

نظر الرجل إلى الدب بلا مبالاة، ثم جال بنظره إلى لاو دو وقال: «لا يمكن لأبيك أن يستقل القطار».

«لماذا؟».

«لأن هذه المحطة لم تُزوَّد بعد بعربة قطار مخصصة للحيوانات!».

«إنه ليس حيوانًا، إنه أبي!».

«سواء أكان أبوكِ أم جدكِ، لا يُسمح بركوب الحيوانات ضخمة الحجم في هذا القطار!».

«ليس حيوانًا ضخمًا، إنه أبي!».

لم يُعر مسؤول الفحص الأمني ذو الوجه الذي يشبه الكمثرى لاو دو اهتمامًا بعد ذلك.

تدلى رأس الدب الذي وقف حائرًا ينظر خلسة إلى لاو دو.

تقول المصادر على الإنترنت إن المصاب بمرض التحول إلى شكل غريب، فضلًا عن أنه يفقد شكله وصوته، فإنه يفقد كذلك بالتدريج قدرته على التواصل مع الآخرين. وهو ما يعني أن الدب بمرور الوقت لن يعود قادرًا على فهم كلام الآخرين. لكن لاو دو ما زالت على السلم واقفة على رؤوس أصابعها تمد يدها محاولةً أن تربت بها على رأس الدب وهي تقول: «اطمئن، ما دمت على استعداد للذهاب إلى مدينة يوقو، فسوف أساعدك بالتأكيد للعثور على يين شياوخه».

وجدت لاو دو مكتب رئيس المحطة، وكان بداخله مسن قد اشتعل شعرُ رأسه ولحيته بياضًا كبياض الثلج.

حك الفسن بظفره حاجبيه، ثم جبهته، وأجال بصره بلاو دو، ثم بالدب الواقف بجوارها.

سألها الفسن باهتمام شديد: «هل تبيعين الدببة أيتها الصبية؟».

ردت لاو دو بحنق: «أبيع الدببة؟ نعم، وأبيع أيضًا المدن، والكواكب، والبحار».

قهقه الفسن وقال: «إنْ كان يمكنك بيع هذه الأشياء، فأنا أيضًا يمكنني أن أبيع الهواء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والوقت، والغابات».

أرادت لاو دو أن تلحق بآخر قطار، وليس لديها الوقت للتلاعب بالكلام مع أحد. قالت له: «أبحث عن رئيس المحطة!».

قال: «أنا رئيس المحطة!».

«إنه ليس دبًا ما تراه الآن هو بالطبع دب، لكنه في الحقيقة أبي».

شرعت لاو دو في الحديث محاولة إقناعه ثم سألته في النهاية: «أنت أيضًا لا تصدقني، أليس كذلك؟».

«لا، بل على العكس تمامًا، فأنا أصدقك جدًا. لقد اخترت العمل في محطة قطار لأن هذا المكان يشهد يوميًا الكثير من الأمور الغريبة النادرة، ومنها مثلًا رؤية أحد المصابين بمرض التحول. ومن الواضح أن الحظ حالفني اليوم ورأيت واحدًا منهم بالفعل».

وقف رئيس المحطة يحك حاجبيه وجبهته بظفره مرة أخرى، ثم سحب ورقة، وكتب كلامًا كثيرًا، وفي النهاية ختمها بختم أحمر قانٍ.

ثم اقترح الفسن على لاو دو وهو يسلّمها الورقة: «لو كنت مكانكِ، لفكّرت بالتأكيد في شراء ملابس وقبعة للدب مناسبة لحجمه الضخم، تجنبًا لأي مضايقات لا داعيَ لها في عربة الركاب».

«ولكن الناس هكذا سيشعرون بغرابة أكبر، أليس كذلك؟».

كان لا بد لرئيس المحطة من الاعتراف بأن كلام لاو دو أكثر منطقية.

وحينما أوشكت لاو دو على المغادرة، ناداها رئيس المحطة، وتناول من رف الكتب كتابًا وهو يقول لها: «(أغنية الحوت) كتاب لا يُهدى إلا لفتاة شجاعة لا تهاب شيئًا».

قلبت لاو دو في الكتاب وقالت: «ليس كتاب قصص مصورة للأسف»، ثم حشرته في حقيبةِ ظهرها مع الخبز والتفاح والجوارب.

وفي هذه المرة، ركبت لاو دو والدب القطار بلا مشكلة. جلست لاو دو على نصف كرسي، وجلس الدب على كرسي ونصف. وبسبب المعاناة التي لقياها من المطار لمحطة القطار، ثم داخل المحطة إلى أن صعدا القطار؛ ظل يتثاءب في وجه لاو دو مين ويغلبه النعاس، بمجرد أن لامس عجزه الكرسي الصلب.

«هيه! انظر مَن هنا؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة، كان هناك رجل كتمثال خشبي بلا ملامح قادمًا يترنّح باتجاه لاو دو من الجانب الآخر لعربة الركاب.

إنه تشي قنغفا.

وفجأة، طار النعاس من عيني لاو دو، وانتصبت في كرسيّها كالألف. أما الدب، فكانت رأسه كلما اقترب ذلك القادم نحوهما تنخفض أكثر فأكثر.

«ألستِ تلك الفتاة الذكية الجريئة ابنة ييِن قه؟ ما الأمر؟ لماذا تسافرين وحدكِ؟».

كان تشي قنغفا يهز العبوة المعدنية التي بين يديه فتساقطت قطرات من المشروب البني اللون على قميص لاو دو الأحمر.

تابع تشي قنغفا سؤاله: «لماذا لم يصحبك أبوك عديم النفع؟»، وضحك فكشفت شفتاه عن صفي أنياب حادة كأسنان المنشار فبدا كسمكة قرش عملاقة.

قالت لاو دو: «اغرب عن وجهي!».

تابع تشي قنغفا: «لا، لا، غير صحيح... كيف يطاوعه قلبه على ترك فلذة كبده تذهب إلى أي مكان وحدها؟». ثم نظر شزرًا إلى الدب وقال: «صحيح، مَن هو؟».

طأطأ الدب رأسه حتى كادت تلامس الأرض.

انحنى تشي قنغفا وصرخ بانفعال: «آه، إنه دب!».

رفعت لاو دو يدها نحوه وقالت: «أنا أحذرك. ابتعد عنّا!».

«صغير للغاية! لا يعقل أن يكون أباكِ، أليس كذلك؟».

«لا يخصك».

قال تشي قنغفا مقهقهًا: «هو بالتأكيد أبوكِ. لطالما شعرت بأنه يشبه الدب. والآن قد صار دبًا بالفعل!».

كانت ضحكاته قوية حتى أنها هزت العربة بأكملها.

مدت لاو دو قبضتها وضربت تشي قنغفا بكل قوتها وهي تقول له: «على نفسك جنيت!».

صاح بها أحدهم قائلًا: «أيتها الفتاة الصغيرة! ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟».

فتحت لاو دو عينيها واستيقظت!

كان بجوارها رجل يضحك مِلء شِدقيه، وعلى الكرسي الآخر رجل ذو أسنان ناتئة يحدِّق فيهما بعينين غاضبتين.

قال لها الرجل ذو الأسنان الناتئة: «كدتِ تضربينني بكفك».

لم تعتذر إليه لاو دو، لأنه كان يشبه تشي قنغفا كثيرًا.

4. اختفاء النقود وكيس الجوارب

غطّت لاو دو في النوم ثانيةً، وبعد أن استيقظت، سمعت الصوت الذي يذاع في العربة يقول: «إلى الركاب المتجهين إلى مدينة يوقو، انتبهوا من فضلكم، لقد وصلنا، لقد وصلنا!».

لم يخطر على بال لاو دو أنهما سيصلان بهذه السرعة، كما لو أنه لا فاصل يفصلهما عن هذه المدينة إلا مجرد حلم؛ فهزت الدب الذي استغرق في نوم عميق طوال الطريق حتى توقظه.

«الأصدقاء الأعزاء، أهلًا ومرحبًا بكم في هذه الأرض الحارة. أهلًا بكم في هذا العالم الجميل كلوحات الرسم. هنا يمكنكم الاستمتاع بتناول ما لا يُحصى من الأطعمة الشهية، ورؤية ما لا يسعكم رؤيته جميعًا من المناظر الطبيعية الخلابة، وهنا أيضًا الينابيع الحارة تملأ جنبات الطرقات».

ما إن نزلا من القطار حتى فاضت في وجهيهما الإعلانات عن المدينة الموجودة بكل مكان.

قالت له لاو دو بصوت عالٍ يغمره الفرح: «هل تسمع أيها الدب صوت الينابيع الحارة؟ ما رأيك في أن نذهب مساءً لتغمر جسدك بمياهها قليلًا؟».

لكن الدب تمهل في سيره وتراجع خطوة للوراء في توتر، كأنه يرغب في العودة إلى عربة القطار.

ربتت لاو دو على صدره بحنان وقالت بنبرة تنم عن روح بطولية: «لا تخف، أنا معك!».

بدا الدب كأنما فهم كلامها، فلم يتراجع بعدئذ.

كان بالجوار صبي يرتدي قبعة قد لفّها إلى الوراء ويقف يخلل أسنانه مستندًا إلى عمود

حجري ضخم داخل محطة القطار، فقال لها بلا مبالاة: «لو كنت مكانكِ، لأخذت الدب لتسلق الشجر، والبحث عن خلايا النحل وسرقة العسل، أو صيد السمك، لا للغوص في الينابيع الحارة».

ردت لاو دو بتهكم: «حقًا؟ لكني للأسف لست أنت، بالإضافة إلى أنك لا تملك دبًا تأخذه لفعل هذه الأمور».

ضحك الصبي وقال:«يجب أن أهنئكِ إذن على امتلاكك دبًا؟» وأخذ يترنح في مشيته حولها يمينًا ويسارًا، بلا ريث ولا عجل.

«على كل حال أنت لا تملك واحدًا!».

ابتسم الصبي ابتسامة عريضة وقال وهو يرفع إبهامه في وجهها: «كلامك صحيح جدًا، هو على أقل تقدير أصحُ كلام سمعته مؤخرًا!».

نظرت لاو دو له نظرة صارمة.

وبعد خروجهما من محطة القطار، أصابت لاو دو دهشة كبيرة، إذ كانت الشوارع مملوءة بأناس يلبسون ثيابًا غريبة، ذوي شعور مصبوغة بجميع الألوان، وكانوا جميعًا رجالًا ونساءً وكبارًا وصغارًا قد طلوا أظافرهم فاختفى لون بشرتهم، وحدقات أعينهم مشرقة مبهرة، منها العنبري والخمري والوردي ومنها الأزرق الجليدي والأرجواني الداكن وغير ذلك. إنه عالم يفيض بالألوان! وفي الحال غيرت لاو دو فكرتها عن مدينة يوقو إلى النقيض تمامًا.

كان في مخيلة لاو دو أن مدينة يوقو مدينة مظلمة حزينة، وأن طرقاتها الموحشة لا يمر بها إلا بضعة أشخاص بائسين لا مأوى لهم. أليست هكذا تكون كل المدن التي ينحدر منها الأطفال الأيتام؟ وقد تشكّل في خيالها أيضًا مشهد يين قه المستلقي بداخل سلة تحملها امرأة مسنّة وحيدة حزينة ظلت واقفة وقتًا طويلًا أمام باب دار الأيتام في أثناء عاصفة رعدية. أليست هكذا تكون جميع المشاهد التلفزيونية التي تصوّر التخلي عن طفل رضيع؟

في الواقع، ظلت لاو دو زمنًا طويلًا تجهل بوجود مدينة يوقو هذه، فلم يكن تلفزيون البيت يبث قناة باسمها، كما أن مكانها على الخريطة قد شطبه يين قه بلون أسود! لهذا كانت لاو دو تقول لنفسها إن هذه المدينة مكان مخيف بالتأكيد! ولم تكن تتخلى عن تلك الفكرة إلا حينما يكون يين قه جالسًا على الطاولة شارد الذهن ينظر إلى «عظم السمك».

سألت لاو دو يين قه ذات مرة: «لماذا غادرت تلك المدينة؟».

«لأنها خلت ممن ننتظر قدومهم. لأنه لم يعد لنا أحد فيها».

فهمت لاو دو أنه يقصد ييِن شياوخه. كل ذلك لأجل امرأة؟ إنها لا تستحق الحزن والندم عليها! وتشعر أن ييِن قه لا يستحق ذلك، لكنه الآن، جاء لهذه المدينة من أجل امرأة، لذلك فهو الآن نادم على تركها، أليس حزينًا على نفسه؟ ولكن ما الحل؟ مَن أجبرهما على أن يحب كل منهما الآخر؟

لم تدرِ لاو دو أين تذهب حتى تجد ييِن شياوخه، فلا لووه داتو يعرف مكانها، ولا يمكن لييِن قه إخبارها.

كانت لاو دو قد قلبت في أدراج ييِن قه قبيل مغادرتهما، فلم تجد رسالة من مدينة يوقو، ولم تجد رسالة ينبغي إرسالها إليها، كأنما لا وجود من الأساس لهذه المدينة في العالم.

كان الجو حارًا لاهبًا، حين جلست لاو دو مع الدب على رصيف شارع، يلتهمان التفاح والخبز معًا.

«يجب أن تتركي مسافة بينك وبين الدب، خاصة أنه من النوع القوي الضخم. إنه أضخم من فرس النهر».

كان ذلك صوت الصبي الذي قابلته في محطة القطار، وقد ظنت لاو دو أنها تخلصت منه.

قالت له لاو دو: «هو أبي».

ضحك الصبي وهز كتفيه وقال: «هكذا الأمر إذن! لكنك محظوظة، فهو على الأقل لم يتحول إلى قنفذ، فأنا أبغض القنافذ أشد البغض. ذات مرة، بينما كنت في هذا المطعم المقابل، رأيت امرأة تحولت إلى قنفذ، فكانت حينما تنصب شوكها يرتعد الجميع خوفًا. ولكن هذا الدب لا يبدو مخيفًا على الإطلاق، أليس كذلك؟».

تمتمت لاو دو وهي تلتهم الخبز التهامًا: «صحيح».

خلع الصبي قبعته فبدت تسريحة شعره نصف الدائرية قبيحة المنظر: «ولكن، هل له اسم؟».

«بالتأكيد له اسم».

«أقصد، هل اتخذتِ له اسمًا جديدًا بعدما صار دبًا؟».

«ولمَ قد أسميه اسمًا جديدًا؟ كان اسمه ييِن قه، والآن بالاسم نفسه. ولكني بطبيعة الحال أناديه في بعض الأحيان بالدب».

«يجب أن تسميه اسمًا جديدًا، لأنه حينما يعود إلى هيئته الأولى كبشري، ربما يفتقد هذا الاسم».

«أعتذر منك، فرأيك مخالف لرأيي تمامًا».

أردات لاو دو أن تغادر المكان، فهي لا ترغب في التحدث كثيرًا مع الغرباء، فكيف وهو صبي؟! علاوة على أن الدب يريد أن ينام. هذا الدب ينام دائمًا في أثناء مكوثه بالمنزل، وإذا خرج ران عليه النعاس أكثر، كأنه يحمل إله النوم على ظهره.

مَيَّل الصبي رأسه على كتفه وشبك ذراعيه أمام صدره وهو يقول: «فلأطلق على دبِّك اسمًا جديدًا. إنه أمر رائع!».

لم تعره لاو دو اهتمامًا، وقالت للدب: «هيا بنا، سأذهب معك للبحث عن فندق فاخر».

أخذت لاو دو الدب وغادرت، فصفر الصبي وراء ظهرها صفيرًا عاليًا.

ندمت لاحقًا على هذا الأمر ندمًا شديدًا، إذ كيف لم تلاحظ حينها حدوث أمر غير طبيعي؟

ترغب لاو دو بالطبع في أن تسكن بفندق فاخر مع الدب، لكن ما بقي من مال في كيس الجوارب للأسف لا يكفي إلا لمكان بأحد الأزقة المتواضعة، حيث العديد من النزل الصغيرة غير الفاخرة. وقد تحمس أصحاب هذه الفنادق الصغيرة الواقفون عند مداخلها لاستقطاب الزبائن تحمسًا شديدًا برؤية لاو دو، لكن الدب الواقف بجوارها لسوء حظه لم يلقَ هذا الاهتمام.

«لم نجهِّز للدب فرشاة أسنان كبيرة».

«ليست لدينا أوعية ضخمة الحجم تصلح للدب».

«يصعب على الدب استعمال حماماتنا».

لقد وجدوا الكثير والكثير من الأعذار الواهية.

قالت لاو دو: «سأدفع المال».

قال لها أحد هلاك تلك الفنادق: «صحيح، فلا بد من دفع المال بالطبع مقابل الإقامة بالفندق، لكنني بدلًا من استقبال دب، فأنا أفضِّل تسكين بطة، فهي تأكل القليل من الطعام، ولن تزعجنا ليلًا بشخيرها».

ولكن الوضع ليس بهذا السوء، فلحسن الحظ لم تكن صدور بعضهم ضيقة كفنادقهم، إذ إن

أحدهم، وهو فسن ذو عينين أرجوانيتين، قد سلّمها مفتاحًا نحاسيًا لامعًا بعد أن تفحّصهما بنظره طويلًا.

قال الفسن للاو دو بنبرة يكتنفها الغموض: «كدت أتحول إلى دب في أحد الأوقات».

لم يخطر على بال لاو دو أن يعرف الفسن بنظرة واحدة أن دبًا إنسان مريض بمرض التحول إلى شكل غريب.

«لأن زوجتي تنهرني طوال اليوم قائلة إنني أشبه الدببة، ولم يكن عملي آنذاك يسير على ما يرام، فكانت حالتي النفسية سيئة، وأشعر بأنني عاجز قليل الحيلة، وأنه لا سبيل لي لأمنحها السعادة، لقد شعرت في الحقيقة بأنني أقل نفعًا حتى من الكلاب. وهكذا كنت كلما تفكرت في أمري زاد اكتئابي، وزادت رغبتي في الهروب لمكان لا يعرفني فيه أحد، وكانت النتيجة أن استيقظت صباح اليوم التالي لأصاب بالذهول وأتساءل: ما هذا الفرو السميك الذي نما بجسدي؟ ولكن الحمد والشكر لآلهة السماء والأرض، فبينما كنت في حيرة من أمري ولا أدري ما أفعل، ظهرت زوجتي أمامي، وقبّلتني وهي تبكي، وتقول إنها أخطأت بتأنيبها ونهرها إيّاي، وقالت إنني بذلت الكثير والكثير من أجل أسرتنا. ثم ظلت دموعها تنهمر حتى كدت أغرق فيها».

سألته لاو دو بتلهف وعجلة: «وماذا بعد؟»

«بعد ذلك عدت إلى شكلي الأصلي. فلتعرفي، إنها بلا شك قوة الحب، وإذا آمنت بهذا، سيعود دبُك كما كان».

«إنه أبي».

«حسنًا، أنا متأكد من أنه بلا زوجة. سمعت أن الرجل بلا زوجة يصاب بداء التحول بكل سهولة. ويقال إن هذا المرض شائع حاليًا، على الأقل في مدينتنا هذه، فهناك مَن تحول إلى قط، وهناك من تحول إلى ثعلب، وهناك من تحول إلى نمر. إننا في بعض الأحيان نعجز عن التمييز بين المصابين بهذا المرض وبين الحيوانات الأليفة، لهذا خصصت حكومة البلدية للمصابين ملعبًا، ولكني أقول لكِ بناءً على تجربة شخصية، إن الحب هو الحل الوحيد لإنقاذ المصابين بهذا المرض».

«الحب إذن أمر عظيم؟»

«عظيم بالتأكيد، ألم تسمعي من قبل مقولة: (الحب هو الهواء الذي نتنفسه)؟».

ردت عليه قائلة: «لم أسمع إلا مقولة: (لا يمكن العيش بلا خبز)».

في واقع الأمر، فإن يين قه هو صاحب هذه المقولة، وقد أغفلت لاو دو نصفها الآخر: «وبالإضافة إلى الخبز، يحتاج المرء إلى الرسم والموسيقى والترحال».

«أوه! الخبز مهم بالطبع، لكن الحب أهم».

بدا أن الفسن لم يتحدث مع أحد منذ زمن طويل، فما إن فتح فمه حتى صار يثرثر بلا انقطاع.

«وماذا عن المشاعر الأسرية؟».

«المشاعر الأسرية؟ إنها كالماء في هذه الحياة، فهي بالطبع مهمة كذلك!».

قال الفسن أخيرًا كلامًا يُرضي لاو دو. وكان يرغب في استكمال حواره عن الحب والخبز والهواء، لكن لاو دو قررت إنهاء الحوار عند هذا الحد. قلبت حقيبة ظهرها فراح يتدحرج كل ما بها تباعًا، الملابس والكشاف ومعجون الأسنان وفرش الأسنان والكتب، لكن الشيء الوحيد الذي لم يظهر كان كيس الجوارب الرمادي الذي لا يلفت الأنظار!

بحثت لاو دو مرة أخرى في كومة الأشياء المبعثرة تلك. لقد اختفى كيس الجوارب فعلًا!

قال الفسن بعطف: «يبدو أن شيئًا مؤسفًا وقع!».

لم يكن أمام لاو دو بد من قول الحقيقة: «لقد ضاعت نقودي!».

حدّق الفسن بُرهة في لاو دو، ثم تنهد وقال: «حسنًا، إنه خطئي أنا، إذ أبيع دومًا بالخسارة».

قالت لاو دو بكل صدق وعزم: «اطمئن، سأجد طريقة لأسدد مالك بكل تأكيد».

ومع أنه شعر بأن كلام لاو دو الذي قالته لطمأنته لا يتفق قط مع ما سيحدث في الواقع، فقد هزّ الفسن رأسه موافقًا.

كان الدب قد غفا على الأريكة، وقد كان شخيره عاليًا حتى كاد يرفع سقف النزل ليلامس عنان السماء، لدرجة أن لاو دو أحست بالغبطة قليلًا نحوه لنومه العميق.

في مساء ذلك اليوم، حينما كان ضوء القمر ينساب لداخل الغرفة المتواضعة بخفة وسكون، جلست لاو دو أخيرًا، تصل الأمور بعضها ببعض وتضع الخطوط العريضة بشأن ذلك الصبي وكامل هيئته، بداية من تسريحة شعره نصف الدائرية التي جعلت رأسه يبدو كنصف بطيخة، وقبعته التي يلفها إلى الخلف، وبشرته الداكنة، وعينيه الخضراوين الفاتحتين الواسعتين

اللامعتين، وحتى الضحكة المشاغبة المرسومة طوال الوقت على شفتيه، والناب البارز ذي اللون الأبيض النقي الذي يقفز من فمه من حين إلى آخر لإثارة المزيد من الشغب.

وقبل أن تشرق الشمس بالكامل، عادت لاو دو لمحطة القطار. كانت قد سمعت أن السرقة أيضًا مهنة لها أصولها، فمن يعمل من اللصوص صباحًا لا يداوم في المساء ساعات إضافية، ومَن يعمل مساءً لا يظهر قط في الصباح!

تمنّت لاو دو أن يكون حظها اليوم جيدًا، ويحالفها للقبض على «البطيخة» دون عناء.

وقد حالفها الحظ بالفعل، فلم تمكث بانتظار «نصف البطيخة» طويلًا، فبينما كان الصخب يرتفع بالمحطة كالماء المغلي، ظهر ذلك الصبي. كان يرتدي قميصًا قصير الأكمام برتقالي اللون، ويعكس قبعته كما كان، ويستند إلى جدار شابكًا ذراعيه، ويدور بناظريه بين الحشود المتكدسة.

اقتربت منه لاو دو وقالت: «صباح الخير سيدي!».

ولما رأى لاو دو، ذُهل في أول الأمر، ثم انفرجت شفتاه بابتسامة عريضة؛ فبدا ذاك الناب الأبيض النشيط. وقال: «صباح الخير آنستي!».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

قالت له لاو دو وهي ممسكة بياقة قميصه: «إنْ كنت أعمل بمهنتك هذه، فلن أرتدي مثل هذه الثياب الملفتة للأنظار».

قال الصبي وهو يضحك بوقاحة وينظر حوله بكل الأرجاء: «أين دبّك؟».

باغتته قائلة: «أين نقودي؟».

هز الصبي كتفه وقال: «لم أفهم».

«لم تفهم؟ دعني أخبرك إذن أن النقود التي كانت بكيس الجوارب هي كل ما أملك أنا والدب».

«وما علاقتي بذلك؟».

«كنت تقتفي خطواتنا منذ البداية، حتى أخذت كيس الجوارب».

ظل الصبي يضحك حتى بدت عيناه كشقين ضيقين رفيعين في وجهه، وقال لها: «ولماذا قد آخذ كيس جواربك؟ هل رائحته طيبة؟».

ضمت لاو دو قبضتها وهي تقول له: «هل سمعت من قبل أن النملة قد تطيح بالفيل؟ وهل سمعت أن العناكب أيضًا يمكنها أكل الطيور؟ وهل تعرف أن سمك القرش يهاب سمك دانيو اللؤلؤي؟ وهل تعرف أن...».

قهقه الصبي باستخفاف وقال: «وهل سمعتِ أنتِ أن امرأة من شرق المدينة قد نمت لها لحية سوداء؟ وهل سمعتِ أن مخبزًا في غرب المدينة قد اختفى فجأة؟ هل تعرفين أن مُسنًا تحول فجأة في مساء أمس إلى نمر؟ وهل تعرفين لقبي؟ هاهاها، بالتأكيد لم تسمعي به من قبل. صحيح، هل تعرفين أن الدب يقف خلفك الآن؟».

دهشت لاو دو، والتفتت لتنظر خلفها فلم تجد شيئًا، فانتهز الصبي الفرصة وتفلت من بين يدها، وركض بخطوات واسعة إلى خارج المحطة وهو ينظر إلى الخلف ويضحك.

«أيها الحقيرا».

ودون أدنى تردد، انطلقت لاو دو خلفه كالسهم.

ومع أن مظهر الصبي كان يوحي بأنه يعاني من سوء تغذية، فقد فرّ بكل حيوية متغلغلًا بين الحشود المارة كثعبان دساس!

قفز الصبي من فوق الحواجز الأمنية، وركض للطريق العام، ودخل سريعًا لمركز تسوق يعج بالبشر، ثم عبر من بين السيارات ركضًا إلى أن دخل زقاقًا ضيقًا.

لم تكن نظرات لاو دو من قبل حادة كما كانت في تلك اللحظة، كما لم تكن خطواتها رشيقة من قبل كما كانت في تلك اللحظة، فقد اجتازت الأسوار والسياجات بخفة ورشاقة، واقتفت أثر تلك الرأس نصف البطيخة. كان كل شيء يفارق ذهن لاو دو عدا فكرة واحدة: الإمساك به.

5. مجموعة المتشردين

اختفى الصبي في ذلك الزقاق الملتوي.

انقطعت أنفاس لاو دو؛ فتوقفت عن الركض ثم أغلقت عينيها. وشعرت في هذه اللحظة أن صوت يين قه يهمس بجانب أذنها بكلام كثير: «كل ما تراه أعيننا قد يخدعنا ويضللنا، فاسمعي بقلبك، ستسمعين الطين يتنفس، والنهر يغني، والعشب ينمو».

بيوت متواضعة، وجدران متصدعة، وعبير زهور خفيف في الهواء، مرت عليها جميعًا بالتدريج.

سمعت امرأة تسعل، وطفلا يبكي، وبابًا يُغلق، ورجلا يضحك، وخطوات متسارعة يتردد صداها في رواق بناية.

عادت لاو دو تركض بسرعة الريح.

داخل الرواق الذي تفوح فيه رائحة بطاطا كريهة وجدت لاو دو بابًا متهالكًا يهتز؛ رفعت رجلها وركلته بقوة، فانفتح مُصدرًا أنينًا عاليًا.

أربعة أو خمسة متشردين بشعور مجعدة أو مصففة بالتقنية الأيونية، يرتدون ثيابًا تتنوع ألوانها بين الأزرق والأحمر والأخضر والأبيض، كانوا جالسين فوق كراسٍ متهالكة، راحوا يحدقون في لاو دو في ذهول.

كان من بينهم فتاة شعرها أحمر وترتدي قميصًا أسود، قالت للاو دو: «ألا تعرفين يا فتاة أنه يجب عليكِ قرع الباب قبل الدخول؟». وبعدما أمسكت بفمها حبة كرز، ثبتت عينيها الواسعتين الجميلتين على لاو دو وهي تقول: «هل تعرفين أن ذلك تصرف وقح؟ لم أحبه مطلقًا، وأنا

غاضبة جدًا».

قالت لاو دو للصبي المختبئ خلف تلك الفتاة: «أعد لي كيس الجوارب!».

استدارت الفتاة وصفعت رأس الصبي بيدها وقالت له: «ما الأمر أيها المشاغب المزعج؟ هل ضايقت هذه الصبية؟ بل وخلعت عنها جورييها؟».

رد الصبي وهو يغطي رأسه بيديه ويضحك: «أنتِ تعرفين يا أختي قهوة أنني ألتزم بالقواعد دائمًا وأتمسك بالنظام، فكيف يمكنني العبث مع هذه الفتاة؟».

قهقهت الفتاة وقالت: «وهكذا أقول أنا أيضًا، فسمكتي السوداء هو الأكثر أدبًا والتزامًا»، ثم وثبت عن الكرسي المتكسر، وبدا شعرها الأحمر كأنه يحترق في تلك الغرفة البالية حتى صار لهيبًا ساطعًا.

كررت لاو دو كلامها: «لقد أخذ كيس جواربي».

قالت الفتاة للصبي الذي يُدعى السمكة السوداء وهي تصفع رأسه مرة أخرى بظهر كفها: «لا تنسَ في المرة القادمة، يمكنك أن تأخذ من الفتاة النقود أو الخبز أو الآيس كريم، لكن لا تأخذ قبعتها أو حذاءها أو ملابسها، وخاصة جواربها، فذلك يوحي بانعدام الأخلاق».

«أختي قهوة، ألا يمكن أن تفعلي شيئًا آخر بيدك؟».

اختطف الصبي وهو يضحك بوقاحة تفاحة من يد صبي يقف بجواره، ووضعها بيد الفتاة التي تُدعى قهوة، فدقت الفتاة بالتفاحة على رأسه، ثم نظرت إلى لاو دو أخيرًا وقالت لها: «يا فتاة، ألم تعلمك أمكِ أن تطرقي الباب قبل الدخول؟».

أجابتها لاو دو: «ليس لديّ أم».

هزّت الفتاة أرنبة أنفها اللامعة التي كانت على شكل أفعى وقالت ضاحكة: «هذا ليس ذنبي، كما أنه ليس سببًا لأن تتصرفي بلا أدب، أليس كذلك؟».

«لقد أخذ كيس جواربي».

«وما الدليل؟».

«لقد أخذ كيس جواربي».

«وما حجتك؟».

«لقد أخذ كيس جواربي».

ضحكت الفتاة ضحكة فجة وهي ترفع رأسها وتقول: «أنتِ لطيفة يا بنت، لم أرَ شخصًا خفيف الظل مثلك منذ وقت طويل، فللأسف كل مَن حولي حثالة مملة».

قاطعها الصبي وقال ضاحكًا: «أختي الكبيرة قهوة، كلامك هذا هو بلا شك كمن صب ماء بارد على قلوبنا المحترقة».

قالت لاو دو: «كان بداخل كيس جواربي نقود».

توقفت الفتاة عن الضحك في الحال، وشبكت ذراعيها أمام صدرها وقالت: «هل هذا صحيح أيها السمكة السوداء؟».

اقترب الصبي سريعًا منها وقال بصوت خفيض: «كنت أنوي إعطاءها لكِ كهدية في أثناء تناولكِ العشاء».

قرصت الفتاة أذن الصبي وقالت له: «صرت موهوبًا إذن أيها المشاغب؟ لدرجة أن وصلت يداك إلى ما بداخل كيس الجوارب من نقود؟ لقد تفوقت على معلمتك وصرت أنت معلم شلة الغرفة البالية الخماسية إذن».

تقلصت عضلات وجه الصبي من الألم وقال بفم ملتوٍ: «وكيف أجرؤ على أن أقول على نفسي المعلم الماهر وأنتِ موجودة يا أختي قهوة؟».

أمال الصبي رأسه وأشار للفراش المليء بالأشياء المبعثرة هنا وهناك. أرخت الفتاة يدها وراحت تقلب اللحاف عن الفراش وترمي الوسادات البالية الملقاة فوق الفراش، ثم وجدت كيس جوارب ذي لون رمادي باهت.

أمسكت الفتاة بكيس الجوارب وفرقعت لسانها وقالت ضاحكة: «من أول نظرة تعرف أنه شيء رخيص»، فصاح الصبي من فوره: «أرجو يا أختي الكبيرة أن تتكرمي بقبول هذه الهدية».

ردد الصبيان الثلاثة الآخرون في صوت واحد مازحين: «تفضلي بقبول الهدية».

قالت لاو دو: «إنه ملكي!».

فتحت الفتاة كيس الجوارب وقالت للسمكة السوداء والابتسامة تغمر شفتيها: «يا ولد، عليك أن تكون أكثر وعيًا، فلا تنسَ أن أهم شيء في مهنة السرقة هو (الأمانة)».

«بالضبط، لا تنسَ أبدًا تعليمات أختنا الكبيرة قهوة».

ضمت لاو دو قبضتها وقالت: «إنه ملكي!».

خفضت الفتاة رأسها تنظر إلى أظافرها المطلية بمختلف الألوان، وقالت ضاحكة: «صحيح، كدت أنسى، عندنا ضيف لم يدعه أحد. أخبريني ماذا يمكن أن أفعل حتى تنصرفي من هنا؟».

«أعيدي إليّ كيس جواربي!».

«أعيده؟!».

قهقهت الفتاة حتى لم تعد قادرة على التقاط أنفاسها، كأن لاو دو قالت المزحة الأكثر إضحاكًا في العالم وقالت: «يا بنت، في قاموسي، لا، في عالمي كله، لا توجد هذه الكلمة! فلتعرفي أن هذه الكلمة هي أكثر ما أمقت في حياتي. عندما كنت في المدرسة، كان المعلم يقول لي أعيدي ممسحة السبورة، وبعدما ينتهي الدوام الدراسي، كان زميلتي تقول لي أعيدي إليّ كتابي، وبعدما أذهب إلى البيت، كانت أمي تقول لي أعيدي إليّ أحمر الشفاه، وحينما أخرج للتنزه، يقول لي جارنا البدين أعيدي الدواسة التي كانت أمام الباب... هل ترين؟ الكل يريد أن أردّ إليه أشياءه. ولكن ما باليد حيلة، فاضطررت إلى أن أرد إلى المعلم ضفدعًا، وأن أرد إلى زميلتي جندبًا، وأن أرد على أمي بنظرة احتقار، وأن أرد على جارنا البدين بكلام بذيء. أخبريني إذن يا فتاة، ما الذي تريدين أن أعيده إليك؟».

«أعيدي نقودي».

انتفخ وجه لاو دو واحمرّ، فلم تتصور أنها قد تلتقي بمن هو أكثر «لؤمًا» منها.

«نقود؟ ما أروع هذه الكلمة! حينما تمر على طرف لساني، تتسارع دقات قلبي الصغير، وتذكّرني بأجنحة الدجاج الشهية، وشرائح اللحم تحت الشوكة والسكين، والقطارات المعلقة فائقة السرعة، وحمامات الشمس المريحة على شواطئ البحار، وكذلك بمرح مجموعتنا الصاخب».

«أعيدي إليّ كيس جواربي!».

صار صوت لاو دو حادًا يثقب الآذان، كخنجر اخترق الهواء الشفيف.

«وإن قلت (NO)؟».

«سأتصل بالشرطة».

«هاه هاه، أخفتني يا بنت، الآن جسمي كله يرتعش من الخوف!».

وواصلت الفتاة ضحكها ثم تجهم وجهها فجأة وقالت: «لا تحاولي إخافتي بمثل هذه الأمور الغبية!».

خطت لاو دو نحوها خطوة واسعة وقالت وهي تضم قبضتها: «لا بد من أن أستعيد كيس جواربي، وإلا لن أتمكن من مساعدة الدب في العثور على يين شياوخه».

عادت الفتاة لضحكتها المعسولة وقالت: «يا فتاة، أبعدي عن رأسك هذه الفكرة التي لا فائدة منها. هؤلاء المراوغون الكبار يحرك الواحد منهم طرف إصبعه، فأعرف على الفور ما يدور في خلده من أفكار خبيثة فما بالك بعود طري مثلك! وعلاوة على هذا، فإذا كنت تريدين العراك، فأنا يسعدني منازلتك!».

تذكرت لاو دو الدب. كان الدب نائمًا في الغرفة قبيل أن تغادر، فهل استيقظ؟ هل سينشغل باله عليها؟ كان يين قه في الماضي يقلق عليها حينما تذهب إلى أي مكان وحدها، ويخشى من أن تثير المشكلات، أو أن تضل الطريق، أو تتعرض للاحتيال. لا داعي لكل هذا، فلا وقت للتفكير الكثير الآن.

وفجأة قفز الصبي المسمى السمكة السوداء ووقف بين لاو دو والفتاة ذات الشعر الأحمر وقال وهو يضحك: «هيه، يا فتاة، ألا تقلقين على دبك؟».

طقت لاو دو مفصل إصبعها، وكان ما تفكر به: ما الذي تبدأ بضربه بقبضتها، أنفه أم عينه؟

ركلته الفتاة برجلها وقالت له: «دب؟ أي دب؟».

أجابها الصبي وهو يرسم بيديه على نحو مبالغ فيه: «الدب البني! هذه البنت لديها دب بني ضخم جدًا!».

جلست الفتاة ذات الشعر الأحمر فوق كرسي ورئعت رجليها وقالت: «ما الأمر يا بنت؟ هل أنتِ تاجرة دببة؟ أخبريني، من أين لكِ هذا الدب؟ سرقة أم خطف؟ من حديقة الحيوان أم من الغابات؟».

ردت لاو دو ببرود: «إنه أبي».

اتسعت حدقتا عيني الفتاة من الذهول كأن لاو دو وحش من الوحوش العجيبة، وكأنها تحكي قصة من قصص ألف ليلة وليلة: «أبوكِ؟».

«أبي!».

لاحظت الفتاة أن نظرات لاو دو تزداد غرابة. «أهوَ مصاب بداء التحول إلى شكل غريب؟».

عضت لاو دو على شفتها.

وثبت الفتاة ثم ضربت الصبي بكفها على قفاه وقالت له: «ألم أقل لك من قبل أنك عليك احترام المسافرين برفقة حيوانات؟».

تحسس الصبي رأسه وقد بدا ذليلًا منكسرًا وهو يقول: «وماذا عن الذين يسافرون بالقمل؟».

«هؤلاء يستحقون الاحتقار!».

استدارت الفتاة ونظرت إلى لاو دو نظرة بعد أخرى، كأن لاو دو لم تكن قبيل قليل إلا تمثالًا خشبيًا لا حياة فيه، والآن دبت فيها الحياة ووقفت أمامها.

«الدب هو أبوكِ؟».

مالت لاو دو برأسها جانبًا.

«أنتِ إذن ترافقين مريضًا بالتحول للتسكع هنا وهناك؟».

كانت عينا لاو دو مثبتة على جدار سقط عنه الجير، ورغبت في عدم استكمال الحديث الفارغ معها.

ربتت الفتاة على كتف لاو دو وقالت لها: «حسنًا أيتها الفتاة، يبدو أنكِ صلبة العود حقًا!».

أزاحت لاو دو يد الفتاة عن كتفها.

«لكن، ما العمل؟ مع أن تصرفك هذا يستحق التقدير، وعملك المجيد يستحق الثناء، لكن قاموسي يخلو من كلمة (إعادة)».

انقضت لاو دو على الفتاة، مثلما هاجمت فجأة تلك الفتاة التي نهرتها قائلة إنها بلا أم في مرة سابقة.

لم تتوقع الفتاة أن لاو دو ستمد يدها عليها بغتة. وقعت الفتاة على الأرض، لكن رد فعلها كان بغاية السرعة، إذ نصبت قامتها بكل قوة، وبكوعها أطاحت بلاو دو على الأرض.

«هيًا! هيًا!».

وقف الصبي المسفى سمكة سوداء والمتشردون الثلاثة الآخرون يصيحون بفرح وحماس كأنهم يشاهدون مباراة مصارعة لا تتكرر إلا نادرًا.

كان بالخارج صوت صياح مرتفع، كما لو كان هناك سكارى يغنون. ووسط هذه الأصوات المضطربة بين علو وانخفاض، تذكرت لاو دو الدب: هل استيقظ؟ هل سيفزع إنْ لم يرَها؟ هل سيظن أنها تخلت عنه؟

أنهت لاو دو العراك بحركة خاطفة، فنهضت فجأة وأسقطت الفتاة أرضًا.

«رائع يا بنت!».

توقفت الفتاة عن الضرب، وتمددت على الأرض مستقيمة القامة، ومن ثم علت ضحكاتها.

«أعيدي إليّ كيس الجوارب!».

أدارت الفتاة وجهها وقالت للسمكة السوداء وهي تضحك: «لقد عبثت مع (ثور) أيها المشاغب الصغير».

تحسست الفتاة خدشًا بوجهها تسبب فيه ظفرها، وقالت بلا تردد: «حسنًا، سأعيد إليك نقودك، ولكن بشرط!».

6. دعوة لوليمة فاخرة

وقفت لاو دو تنظر للفتاة التي بدا شعرها كألسنة نار متأججة.

بسطت الفتاة ذراعيها وقالت: «انضمي إلينا! أنا، والسمكة السوداء، والفاصوليا، والتفاح الأخضر، والنقانق، كلنا أحضاننا مفتوحة لكِ، وكلنا نرحب بانضمامكِ لنا!».

بدت لاو دو كأنها سمعت نكتة.

وقف الصبي الذي يدعى سمكة سوداء يحاكي ما فعلته الفتاة، ومد ذراعيه في وجه لاو دو وقال وعلى وجهه ضحكة استخفاف: «انضمي إلينا، وتسكعي مع أختك الكبيرة قهوة، ولن تحملي همًا بعد ذلك لغذاء ولا كساء ولا حتى للعب وترفيه».

قالت لاو دو بكل هدوء: «أعيدوا إليّ كيس الجوارب! إن دبّي ينتظرني!».

ربتت الفتاة بانفعال على ساقها وقالت: «أوه! صحيح، ودبك أيضًا. فلينضم إلينا هو الآخر! يا إلهي، تخيلوا يا أولاد، لو انضم دبٌ لمجموعتنا، فسيكون أمرًا رائعًا؟ يمكننا أن نمتطي ظهره ونذهب للتجول في الشوارع، ويمكن أن نستغله في تخويف أولئك الأطفال الشياطين الذين يعصون كلامنا، كما يمكن أن نأخذه للعب على سفينة القراصنة».

بسطت لاو دو كفها للفتاة وقالت: «أعطني كيس الجوارب!»، لكن الفتاة بدلًا عن إعطائها الكيس ضمت على يدها بقوة وقالت مقهقهةً: «أنتِ قوية يا بنت! مثلي تمامًا، لذا أحببتك. والآن أعرّفكِ على نفسي رسميًا: أنا حبة القهوة، عمري 13 سنة، أنثى، اندسست بين اللصوص والنصابين في الثانية عشرة من عمري، وأسست (شلة الغرفة البالية الخماسية)، وأتولى رئاسة

هذه الشلة منذ أمد طويل».

أطبقت لاو دو شفتيها بقوة.

لامست الفتاة لاو دو بمرفقها بودّ وقالت لها: «ما الأمر؟ أترفضين حتى قول اسمك؟».

ابتلعت لاو دو لعابها وأجابتها: «اسمي ييِن دو، وينادونني أيضًا بلاو دو، وعمري 11 سنة».

إذا عرفت مي ران ران أنها أخبرت متشردًا باسمها، لانفجرت ضاحكة بلا شك.

«إنه النصيب، فأنتِ أيضًا قرن مثلي! لا عجب إذن من هذا التشابه الكبير بيننا. لكنني يا فتاة لا يمكنني أن أعيد إليكِ هذه النقود بلا مقابل، أليس كذلك؟ للسرقة أصول، فكيف سأبدو أمام إخواني؟ وكيف سأبدو أمام عالم العصابات كله؟ إنني كنت أفكر في أن أشتري بهذا المال طعامًا يكفي زمنًا طويلًا».

«ماذا تريدين؟».

«فلنتراهن! إذا ربحتِ سأعيد كيس الجوارب إليكِ، أما إذا خسرتِ... تعرفين ما سيحدث».

فهمت لاو دو أنه ليس هناك مجال للرفض.

«لأكون منصفة، ينبغي عليّ أن أخبركِ أولًا ببطولاتي السابقة: بطولتان في أكل الصراصير، وثلاث بطولات في أكل الفلفل الحار، وبطولة في رسم تعابير هزلية على قسمات وجهي، وثلاث بطولات في القفز برجل واحدة، وبطولة في حبس النفَس».

«وكذلك خمس بطولات في إطلاق الريح!».

«وأربع بطولات في تناول أكبر كمية من الطعام».

«وبطولتان في التجشؤ».

«أضيفي إلى هذه المسابقة معي. لقد فازت ببطولة».

وقف السمكة السوداء والصبية الثلاثة الآخرون متحمسين، وتسابقوا لـ «تقديم تقرير» للاو دو.

«كيف ذلك يا بنت؟ هل تتحدينني في سباق أكل الصراصير؟ أو في إطلاق الريح؟ أو في...».

قالت لاو دو: «فلنلعب كرة القدم».

ضحكت الفتاة وقالت: «كرة القدم؟» وضحك الصبية كذلك.

«يا بنت، أنتِ خاسرة بالتأكيد!».

كان الوقت حينها منتصف الظهيرة تقريبًا، وقد اقتربت الشمس اللاهبة من الأرض، حتى كاد العشب يحترق في أرضه.

كانت لاو دو ماهرة في لعب كرة القدم، إذ كان يين قه يأخذها للعب كلما سنح له الوقت. كانت لاو دو أحيانًا تتمنى لو كانت صبيًا، فترافق يين قه في المزيد من الأمور، كلعب كرة القدم والسباحة ولعب الشطرنج. لكن يين قه قال لها: «أن تكوني فتاة أفضل كثيرًا، إذ يمكنك مرافقة أبيكِ لمشاهدة شروق الشمس والسفر وتناول الطعام وتربية الزهور».

كان «ملعب كرة القدم» أرضًا جرداء لا تبعد كثيرًا عن ذلك الرواق، مساحتها واسعة، وينمو فيها مختلف الأعشاب، ويتناثر في كل أرجائها الأنقاض وفتات الصخور. راحوا يركضون ويركضون ويتحكمون بالكرة ويركلونها ويسجلون الأهداف. ومن مكان ليس ببعيد كان يصدر هدير آلات، وكانت بالقرب منهم فرقة تشجيع تهتف.

شعرت لاو دو بحرارة في قدميها، وبجفاف ووخز في حلقها، وأحست أنها تحولت إلى ذلك التنين المذكور في الأساطير الصينية الذي يعاني الجوع والعطش معًا، ويتوق إلى غمر نفسه في مياه بحر ساشع، ويتغلغل إلى عالم بارد منعش. ولكنها لم تزل تركض بلا توقف، مثل كوافو بطل أحد الأساطير الصينية، الذي أراد أن يلاحق الشمس التي تتوسط السماء، لكن ضوء الشمس كان مبهرًا يخطف الأبصار، فشعرت بدوار وزاغ بصرها!

سمعت ضجة فجأة، إذ وقعت لاو دو على الأرض، فتوقف هتاف فرقة التشجيع في الحال.

صاحت الأخت قهوة: «ما لكِ يا بنت؟».

تمددت لاو دو على الأرض الحارقة، وشعرت بأنها بعيدة كل البعد عن العالم أجمع.

في ذلك اليوم، لم يستيقظ الدب لحسن الحظ إلا حينما كانت لاو دو عائدة على مهلها.

Telegram:@mbooks90

تزحزح شعرها القصير عن عينيها وقالت للدب بنبرة توحي بشعورها بوخز الضمير: «أيها الدب، لقد خسرت!».

لم يفهم الدب، بل ظل ينظر إليها ذاهلًا مشدوهًا. لقد صار مؤخرًا شارد الذهن أغلب الوقت.

بدأ الجد صاحب النزل يلقي على أسماع لاو دو «وعظه» من جديد: «تزداد حالة المصاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمرض التحول سوءًا يومًا عن يوم، وذلك بسبب أنه يقرّ بهويته الجديدة بالتدريج، إلى أن يفقد عقله تمامًا في نهاية المطاف، ويصير كالدببة أو الثعالب أو الذئاب الحقيقية بلا فرق. لذا يجب عليكِ العثور عن حبيبته، فالحب هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذه».

لم يكن مزاج لاو دو في ذلك الوقت يسمح لها بمواصلة الاستماع إليه، إذ كانت تفكر في كيفية حل مشكلة عدم توافر المال لديها هي والدب.

ماذا لو انضمت مؤقتًا لشلة الغرفة البالية؟

وفي منتصف الظهر، رفضت لاو دو وجبة الغداء من الفسن صاحب النزل، ومع أنها بمجرد أن تفوهت بالرفض ندمت أشد الندم، فلا يصح أن تقول بكل جرأة: «لقد كذبت عليك، فنحن في الحقيقة لم نأكل أي شيء». تشعر لاو دو في الحقيقة بعزة نفس كبيرة. لكنها سرعان ما دفعت ثمن ذلك، فلم تكن وحدها تشعر بجوع قاتل، بل كذلك كان الدب حتى كاد يلتهم جميع ما بالنزل من طاولات وكراسٍ. ولكن لا بأس، فإله النوم يؤدي مهمته جيدًا، وسرعان ما استغرق الدب في النوم من جديد.

وفي ساعة الغسق، وحينما كانت لاو دو جالسة على الدرج وقد ضاقت بها السبل وشدت في وجهها الأبواب، إذا بها ترى فجأة شخصًا يدخل إلى النزل مترنحًا حتى اقترب منها، لتكتشف حينئذ أنه السمكة السوداء.

قال لها: «أرسلتني الأخت الكبيرة قهوة لأراكِ».

نظرت إليه لاو دو شزرًا قائلة: «لتراني؟ لترى ما إذا كنت جالسة بوعاء مكسور أستجدي الطعام؟».

راح الصبي يثرثر ويسهب في الكلام: «ألا تدركين ما الشائع في هذه الأيام؟ لقد ولّى زمن أن تمسكي بوعاء مكسور وتتظاهري بالفقر، فالرائج حاليًا هو طراز النماذج الملهمة، فيجب عليكِ أن تتظاهري بمظهر الرافض للاستسلام لحظة التعس».

لم تعره لاو دو اهتمامًا، بل رفعت رأسها تنظر إلى زهور شجرة ليمون الأضاليا الوارفة بمكان ليس ببعيد عنها.

سألها الصبي: «أنتِ بالتأكيد لستِ مفلسة تمامًا. أليس كذلك؟».

«ما رأيك أنت؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الصبي وقد بدت على وجهه أمارات الأسف والأسى: «أيتها الغبية، أنسيتِ ما علمه لنا الأساتذة؟ (لا تضع جميع البيض في سلة واحدة)، كيف تضعين نقودك كلها في كيس الجوارب الرث ذاك؟!».

لو لم تكن لاو دو خائرة القوى بسبب الجوع، لكانت ضربته حقًا.

عاود الصبي ضحكه السخيف من جديد، وأخرج من جيبه ورقة ذات لون أحمر زاهٍ، وقال لها: «حسنًا، لقد جئت إلى هنا، أولًا: لأطمئن على حالك، وثانيًا: لأنكِ مدعوّة أنت ودبك إلى وليمة».

كان نص الدعوة كالتالي:

يسرُّنا دعوة لاو دو ودبّها للحضور إلى مطعم الإمبراطور الراقي الفخم الفاخر في الساعة السابعة مساء اليوم.

ماو ديان تشغ

يوم الكلب والقط، شهر الحصان، عام القرد

لم تذكر لاو دو أحدًا تعرفه في هذه المدينة، ولم تسمع من قبل بشخص بهذا اللقب.

قال الصبي ووجهه كله مراوغة: «ألن تعرفي حينما تذهبين إلى هناك؟».

لا فائدة من رفض الدعوة، فإذا رفضت ضاع الطعام هباءً، وهي والدب يتضوران جوعًا، وهذه فرصتهما لتناول وجبة مشبعة.

فور أن سمع الفسن صاحب النزل أن لاو دو والدب ذاهبان إلى مطعم الإمبراطور الراقي الفخم الفاخر اندهش وقال: «يا إلهي! أهناك شخص يدعوكما لمطعم الإمبراطور الراقي الفخم الفاخر؟ إنه أرقى وأفخم مطعم في هذه المدينة، وأسعاره هي الأعلى على الإطلاق».

ربتت لاو دو على بطنها الضامرة وقالت بكل صدق وعزم: «ولهذا السبب يجب أن نذهب لتناول ما لذ وطاب من الطعام حتى التخمة!».

لقد أكد الفسن مدى رقي وفخامة المطعم مرارًا، ومع ذلك فقد فزعت لاو دو فزعًا شديدًا حين رأت المطعم بعينيها، فما رأته ليس رقيًا وفخامة فحسب، بل بذخًا وترفًا، إذ كان المطعم على شكل سمكة سرطان ذهبية ضخمة تتمدد فوق الأرض، وتحيط بها المصابيح الملونة باهظة الثمن كالجواهر النفيسة، فكان المطعم بالكامل يلمع ويتلألأ في الأعين.

كان هناك آنستان جميلتان تقف كل منهما لاستقبال الزبائن بظهر منحنٍ، ففتحتا الباب للاو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دو، وكان بالداخل عشرون نادلًا يبدون جميعًا في الهيئة نفسها كأنما شُكّلوا بقالب واحد، يقفون على الجانبين لتحية الزبائن، وبالمنتصف بُسطت سجادة فارسية ما إن تراها حتى تدرك ثمنها الباهظ.

ذهل النُدل جميعًا لرؤية لاو دو والدب.

تقدم رئيس النُدل الذي يشبك فوق صدره زهرة أقحوان ذهبية نحوهما باحترام وهيبة ثم انحنى أمام لاو دو، وقال: «آسف... لا يُسمح بوجود دب هنا!».

اعتادت لاو دو الشجار والمشاحنات مع الناس، لكنها لا تعرف كيفية التعامل مع هؤلاء المهذبين ذوي اللباقة العالية، لذلك وقفت برهة حائرة مشدوهة.

قال شخص يقف خلف لاو دو بكل برود: «أخي أناناس، هما صديقاي».

استدارت لاو دو فرأت حبة القهوة جالسة على كرسي وفوق كتفها قط أسود، والسمكة السوداء، وأيضًا الصبية الثلاثة الآخرين الذين رأتهم في الغرفة البالية.

ارتسمت ضحكة متملقة على وجه السمكة السوداء بمجرد أن رأى حبة القهوة، وقال: «أختي قهوة، لم نستقبل أي دب من قبل، فكيف وهذا الدب بهذه الضخامة».

قالت حبة القهوة ببرود: «تهانينا لكِ، فالليلة قد نلتِ ما تمنيتِ أخيرًا»، ثم سارت بجوار لاو دو والدب والندل للأمام.

دفع السمكة السوداء لاو دو بيده وهو يقول: «أغبية أنتِ يا بنت؟ امشي!».

ما إن دخلت لاو دو غرفة فاخرة تسع عشرات الأفراد، حتى غيرت حبة القهوة من فورها تلك اللامبالاة التي كانت على بادية على وجهها، وقفزت إلى أمام لاو دو، لتلكم كتفها بزهو وإعجاب بالنفس، وقالت لها: «هاه هاه، لم يخطر ببالك أنني صاحبة الدعوة، أليس كذلك؟».

رمقتها لاو دو بعينين يملأهما الشر وهي تنظر للهرة السوداء كالحبر الجالسة على كتف حبة القهوة، وقالت: «أتمنى ألا تدشي لي سمًا في الطعام».

عزفت لاو دو على القط قائلة: «قطي الحبيب (قاطع الطرق)! حينما أتيتِ اليوم، كان على وشك الخروج للصيد.»، ثم قالت للقط وهي تشير إلى لاو دو: «لاو دو، صديقتي».

صديقتها؟ بهذه السرعة؟

قالت حبة القهوة وهي ترفع رأسها ناظرة للدب الذي يبدو أطول وأقوى من رجل بالغ: «هذا

هو دبك؟».

وعندما اقتربت حبة القهوة من الدب، اختبأ مذعورًا خلف لاو دو.

مدت حبة القهوة يديها تتحسسه، وقالت: «إنه مريض بالتحول حقًّا!».

زاد الدب توترًا، كأنه يتمنى لو تقلص جسمه في الحال واختبأ في كف لاو دو.

قال له لاو دو: «لا تخف أيها الدب، إنها صديقتي».

ولكنها ندمت على قولها هذا، إذ ألا يعني ذلك أنها تعترف بعلاقتها بحبة القهوة؟

أذن البحر، وأجنحة الدجاج، وفطر الكمأة، وسرطان البحر الصيني؛ مختلف الأطعمة الشهية والأطباق الغنية صارت توضع طبقًا وراء الآخر فوق المائدة البلّورية الفاخرة. وفجأة ضاعفت الغدد اللعابية لدى لاو دو إفرازها حتى هيّجت معدتها؛ فتمددت، كأنها صارت تتسع لكل ما فوق المائدة.

قالت حبة القهوة وهي تفتح سمكة سرطان أمام لاو دو: «سرطان البحر هو الطبق المميز لهذا المطعم. كلي بكل ما أوتيتِ من قوة! لا بد من أن تثبتي موهبتك أمام هؤلاء المشردين، يجب أن تكوني قدوة لهم».

شمّر السمكة السوداء والصبيان الثلاثة عن سواعدهم، وجلسوا القرفصاء على الكراسي ذات المساند الرائعة، وراحوا يلتهمون الأطعمة اللذيذة وأعينهم تلمع وتشعشع. ولم تُرد لاو دو أن تبدو ضعيفة، فراحت هي والدب يلتهمان الطعام بكل قوتهما.

وحينما قاربوا على الانتهاء من تناول الطعام، قفز القط على المائدة، وبدأت حبة القهوة في الغناء، وراح السمكة السوداء يقرع الصحون الخزفية بالشوك والسكاكين، وقام الصبية الثلاثة الآخرون يرقصون وفي أفواههم أفخاذ الدجاج:

«غرفتنا البالية جميلة ورائعة،

فراشها الرث هو الأكثر فخامة

شلتنا هي الأقوى،

قهوة وسمكة وتفاحة ونقانق وفاصوليا،

لا غنى عن أي فرد منا!

واليوم قابلنا لاو دو قرنًا آخر، التقينا بفرد آخر،

وجاء معها دبها،

هيا هيا هيا بنا،

فلنشرب كما يحلو لنا،

فلنأكل كما يحلو لنا!

مررت حبة القهوة علبة بيرة إلى لاو دو وقالت بزهو وفخر: «هذه أغنية شلتنا، وقد أضفت إليها بعض الإضافات المؤقتة. ما رأيك فيها؟ جميلة، أليست كذلك؟».

قالت لاو دو: «لا أشرب الخمر».

قالت لها حبة القهوة: «يا بنت، هذه بيرة، كيف تعدينها خمرًا؟ يمكن على أقصى تقدير عدها مشروبًا بنكهة بول الخيول»، ثم انفجرت في الضحك وتبعها الصبية الآخرون.

ولكن لاو دو ظلت رافضة أن تشرب. «لا يمكن للبنات التدخين ولا شرب الخمر»، هكذا كان يقول يين قه لها دائمًا.

لوّحت حبة القهوة بيدها وهي تقول: «يا أولاد، هيا!»، فالتف الصبية حول لاو دو وهم يضحكون ويمزحون. وبينما كانت لاو دو واقفة لا تدري ماذا تفعل، إذا بالدب ينصب قامته كجبل صغير، ويصدر صوتًا خفيضًا عميقًا.

صاحت حبة القهوة على نحو مبالغ فيه: «يا إلهي، هل هكذا يساعدك الدب؟».

أما قطها قاطع الطرق فكأنه لم يلتقِ بمنافس منذ أيام طوال، فامتلأ حماسة وراح يصدر مواء حادًا طويلًا، وقفز من فوق كتف حبة القهوة بقوة ناحية الدب.

وعلى الفور احتضنت لاو دو الدب وهي تقول: «لا تخربشه!»، لكن القط مع ذلك استقر على جسد الدب.

قذفت حبة القهوة بالقط خارج الغرفة وملامح الغبطة والزهو بادية عليها: «اخرج من هنا!».

راحت لاو دو تتحسس جسد الدب الذي أصابه القط بالذعر حتى صار يرتجف، وقالت بصوت هادئ محاوِلةً التخفيف عنه: «لا تخف، أنا معك!».

قالت لها حبة القهوة: «يا بنت، أنتِ تعاملين الدب...»، وظلت تفكر في كلمات مناسبة، ثم

أكملت: «بطريقة لطيفة حقًا!»

«إنه ليس دبًا، إنه أبي!».

قالت حبة القهوة وهي ترفع إبهامها للاو دو: «حسنًا. أنتِ تعاملين أباك بطريقة لطيفة حقًا!».

قالت لاو دو: «أليس ذلك أمرًا طبيعيًا؟».

«على ما أظن، فهذا الكلام... ليس صحيحًا في المطلق. ذلك يتوقف على أي نوع من الآباء هو».

ذهلت لاو دو، لكن حبة القهوة ضحكت فجأة، ورفعت مِفرش المائدة، وسألتها وهي تلتهم ما تبقى بالأطباق حتى امتلأ فمها عن آخره: «صحيح، يا بنت، لماذا جئتِ إلى مدينة يوكو؟ هل بغرض السياحة أم زيارة الأقارب؟ أم للبحث عن علاج فعال للدب؟».

«جئت إلى يوقو...».

بدت لاو دو مترددة، فقد سمعت بوضوح اسم المدينة الذي قالته حبة القهوة، فقد قالت: «يوكو»، مثلما لفظها المُسن صاحب النزل.

«يوقو؟».

وفي اللحظة نفسها جحظت أعين حبة القهوة والسمكة السوداء. ونظرت إليهما لاو دو بارتياب وحيرة.

ظلت حبة القهوة برهةً تنظر بشفقة إلى لاو دو، ثم قالت أخيرًا بصوت خافت: «يا بنت، هذه المدينة اسمها يوكو، وليس يوقو!».

7. لقاء مدير السيرك صدفة

تحرك القطار، فاقتحمت الرياح الباردة مقصوراته.

كان فصل الصيف، وكان مشهد الأراضي السهلية المنبسطة خلابًا.

استند الدب إلى صف كامل من المقاعد، ثم غط في نوم عميق مع هدير القطار الإيقاعي.

وحتى هذه اللحظة، لم تكن لاو دو فهمت ما حدث، فقد ترجلا من القطار حينما سمعت اسم مدينة «يوقو»، فكيف وجدت نفسها في مدينة «يوكو»؟!

استهزأت بها حبة القهوة قائلة: «ما إنْ رأيتك حتى عرفت أنكِ غبية حمقاء».

تلك الكلمات لو كانت صدرت من دينغ شياو دينغ أو مي ران ران لكانت بالتأكيد بادرتهما على الفور بمختلف الشتائم: «خنزير، دكتوراه في الغباء، ملك شرور الكون...». لكن نزولها في محطة خاطئة، وقدومها إلى مدينة غير التي تقصدها، لا يدل إلا على غباء وحماقة بالفعل!

سألتها حبة القهوة في الليلة الفائتة: «ماذا ستفعلين الآن أيتها الغبية؟».

لم تجد غير أن ترد قائلة: «سأذهب إلى مدينة يوقو!».

«يوقو؟!».

«نعم».

نظرت إليها حبة القهوة باستغراب وسألتها: «هل لا بد من الذهاب؟».

هزت لاو دو رأسها أن نعم بالتأكيد.

تنهدت حبة القهوة، وفجأة وبلهجة جدية قلّ أن تُسمع منها: «إياكِ ثم إياكِ أن تذهبي إلى تلك المدينة! وإلا ستندمين أشد الندم».

«لماذا؟».

«إنها مدينة ملعونة! ما إن أذكرها حتى أرتعد خوفًا، تحسسي، أليس كامل جسمي يقشعر الآن؟».

وشفرت حبة القهوة كفها.

لم تعرف لاو دو أين القشعريرة بالضبط.

قالت لاو دو: «أريد الذهاب للبحث عن امرأة».

نظرت لها حبة القهوة نظرة غير مفهومة، وقالت: «من أجل الدب؟».

«نعم».

قالت حبة القهوة بلجهة تخويف: «حسنًا، لقد حذرتك. والقرار قرارك!».

في الصباح، نظر المسن صاحب النزل بحماس بالغ إلى لاو دو الجالسة على الدرج وعلى وجهها تعلو علامات الأسى والهم.

سألها المسن مازحًا: «أليس معكِ فلس واحد فعلًا؟».

«كيف تقول ذلك؟ لقد أكلت بالأمس وجبة فاخرة».

كانت لاو دو في الأصل تريد أن تقول له إنه على حق، وإنها لا تملك فلسًا واحدًا، لكن الكلام هكذا خرج من فمها.

ضحك المسن فبدا كدمية متمايلة(2)، وقال لها: «يعني ذلك أنه بما أن هناك مَن يدعوكِ إلى عشاء فاخر، فهناك كذلك مَن يمكنه حل مشكلتك الملحة».

لكن لاو دو انزعجت كثيرًا من نفسها، فهي لا تملك فلسًا واحدًا، وما زالت تنكر وتتباهى. ألم تكن قبيل لحظات تفكر في مَن يمكنها الاتصال به؟ لووه داتو أم دينغ شياو دينغ أم مي ران ران؟ ألم تكن تفكر في أن تطلب منهم أن يرسلوا لها بالبريد بعض المال؟ لكنها حينما استجمعت شجاعتها وأوشكت على الإفصاح بأنها لا تملك من المال شيئًا، استدار المسن ودخل النزل.

ندمت لاو دو حتى أرادت حقًا أن تأكل لسانها، لكنها رأت السمكة السوداء يرتدي سروالًا كبيرًا يكاد يكفي الجسم كله لا الرجلين فحسب، ويحمل كيسًا كبيرًا، ويدخل وهو يتمايل ويترنح إلى النزل.

لوّح بما في يده أمام لاو دو وقال ضاحكًا: «لم تتناولي إفطارك بعد؟».

أشاحت لاو دو بوجهها وأجابته: «أفطرت منذ وقت طويل!»، وبينما كانت على وشك أن تقول له أن يشم فمها إذا لم يصدقها، قرقرت بطنها على غير المتوقع.

قال السمكة السوداء ضاحكًا باستخفاف وهو يحك رأسه البطيخة: «ضاقت بكِ كل السبل، وما زلت تكذبين بكل رباطة جأش. إنكِ حقًا مثيرة للإعجاب!».

جلس السمكة السوداء بجوار لاو دو، وقال لها: «وما الفرق؟ أيًا كان، أرى أن كل منهما يعبر عن معنى النفاد. ما الأمر؟ هل غيرتِ رأيك؟».

«لا!».

«يا للخسارة، فبدون انضمامك، يصير مستقبل شلتنا الخماسية بلا ملامح».

«لا تقل مثل هذا الكلام عديم النفع. إنْ كان لديك ما تود قوله فقله، وإنْ كان ببطنك ريح فأطلقه».

ابتسم السمكة السوداء ابتسامة عريضة كشفت عن نابه البارز الظريف، وقال: «كلام سوقيّ حقير، يثبت أنكِ واحدة منا بالفعل. انظري، ما هذا؟»، ثم رفع الكيس أمام عيني لاو دو.

سألته لاو دو: «أهو لي؟».

«نعم. هل تريدينه؟».

«هل أنا بلهاء؟ كيف لي أن أرفضه؟».

وخطفت منه الكيس وعادت به إلى الغرفة، ثم أيقظت الدب الغارق في النوم.

«أيها الدب، انظر، سأريك حركة سحرية».

وبحركة تمثيلية التقطت شيئًا من الهواء، ثم صاحت، وظهر سندوتش همبورجر في يدها. بعد ذلك تابعت حركاتها التمثيلية لتظهر للدب قطع الدجاج المحمرة وأفخاذ الدجاج والعصير. وهكذا أكلت هي والدب مرة أخرى وجبة كاملة حتى الشبع تمامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألها السمكة السوداء: «طعمه حلو؟».

لم تعره لاو دو اهتمامًا.

«ألا تشعرين بأن جميع ما كان بكيس الجوارب من نقود قد ضاعت على الأكل؟».

بلعت لاو دو الهمبورجر وهي تنظر إليه بطرف عينيها، فضحك بلؤم وقال وهو يمصمص بشفتيه: «يا للخسارة! لقد كانت أختنا الكبيرة قهوة تنتوي إعادتها لكِ».

قفزت لاو دو من مكانها: «ماذا؟».

قال لها شامئًا: «هذه لعبة تلعبها الأخت قهوة معكِ، إذ قالت إنك إنْ رفضتِ هذا الطعام الذي (جادت به من كفها لا من قلبها)، ستعيد إليكِ المال كله، أما إذا وافقتِ...».

زعقت لاو دو: «هذا ظلم!».

نظر السمكة السوداء إلى لاو دو التي جن جنونها، وضحك كحيوان يمرح بجنون تحت أشعة الشمس اللاهبة، وقال مصدرًا قهقهات عالية: «لم أتوقع أنكِ لا تتسمين بأي شهامة على الإطلاق».

ولما وجد وجه لاو دو علته صرامة وجدية، استسلم وقال: «حسنًا، حسنًا، سأقول لكِ الحقيقة. كنت أمزح معكِ، وهذا الطعام هدية من الأخت قهوة على قبولك دعوتها إلى الوليمة».

ثم رمى كيس الجوارب لها، فوجدته لم ينقص فلسًا، فضحكت ضحكة ملأت وجهها. إنها تحب مثل هذا «المزاح»!

توقف السمكة السوداء عن الضحك وقال لها بلهجة جدية: «هل حقًا ستذهبين إلى مدينة يوقو؟».

«نعم، سأذهب».

قال: «أنصحك...»، وتردد برهة، ثم في النهاية ارتسمت على وجهه بصعوبة بسمة خفيفة، وأكمل: «بما أنكِ اتخذتِ قراركِ، فليس أمامي إلا أن أتمنى لك رحلة آمنة موفقة!».

وبعد قليل، استقلت لاو دو القطار المتجه إلى مدينة يوقو.

ولحسن الحظ، ففي هذه المرة لم تواجه أي صعوبات قط، حتى إن عمال القطار لم يدققوا

النظر كثيرًا في الدب.

لكن بداخل عربة الركاب، اقترب رجل متوسط العمر عريض كمصراع الباب، واسع الخصر كالبرميل، وجبهته لقاعة بزاقة كمرآة تعكس ما أمامها. قال لها بودٌ وحرارة: «يا بنيتي، هل هذا دبُّكِ؟».

لم ترد لاو دو جوابًا.

وقف «البرميل» يمسح جبينه الناضح عرقًا بمنديل أبيض ناصع، وقال: «سمعت أن الكثيرين في الآونة الأخيرة صاروا يسافرون برفقة حيواناتهم».

قالت لاو دو: «إنه أبي».

واتسعت حدقتا عينيه الرماديتان فورًا وتطاير منهما شرر رائع، وهو يقول: «أبوكِ؟ إذن هو مصاب بداء التحول؟».

وجهت لاو دو ناظريها إلى خارج النافذة، حيث حقل واسع تغطيه زهور الخطمي الصيفية يجري أمامها.

انحنى الرجل قليلًا أمام لاو دو وقال بعطف واهتمام: «يا إلهي! كيف تتجولين بمريض في كل مكان؟».

«إنه وديع مسالم، ولن يثير أي مشكلة!».

«يبدو أنكِ لا تعرفين شيئًا عن هذا المرض! في العادة، يكون المصاب وديعًا بالفعل في الفترة الأولية من المرض، بل ويكون جبانًا وسهل الانقياد، ولكن مع تفاقم المرض، يصير المريض طائشًا وسريع الغضب يوما عن يوم. وقد سمعت بذلك الشخص الذي أصيب بهذا المرض وتحول إلى فهد في مدينة أبودان وأسقط رضيعًا على الأرض. ويقال إن الهيئات المعنية تناقش حاليًا كيفية منع وقوع مثل هذه الحوادث، وما إذا كان من الضروري حبس جميع المصابين».

ثم اقترب الرجل من أذن لاو دو وهمس متابعًا: «ووفقًا لما صرح به صديق لي طيب جدًا جدًا جدًا، فإن هذا الأمر سينفذ قريبًا».

عقدت لاو دو حاجبيها وتراجعت للخلف.

«هذه الحقيقة! وهو ما يعني أن أحدهم سيأتي عما قريب ليأخذ الدب منكِ!».

سارعت تقول: «لا يمكن لأحد أخذه مني!».

قال ورذاذ لعابه ينفث من فمه فوق وجهها: «آنستي، إن الثقة العمياء تؤدي في الغالب إلى كوارث! ولو كنت مكانك، فسأتصرف على نحو أكثر حكمةً، وأبحث للدب في الحال عن مكان آخر».

«مكان مثل؟».

«مثل حديقة الحيوانات، أو السيرك. صحيح، نسيت أن أعرّفك بنفسي: الكعكة المستديرة سابقًا الممثل الأمهر على الإطلاق في أشهر سيرك على الإطلاق، وحاليًا مدير السيرك الأكثر إبهارًا للأعين على مستوى العالم، ويعمل لديّ عشرة ممثلين هم الأفضل على مستوى العالم، مع تسعة نمور، وثمانية فهود، وسبعة أسود، وستة راكونات، وخمسة ثعالب، بالإضافة إلى دب واحد. وهذا هو المهم... يا بنتي، دب واحد! رجل متميز مثلي، وسيرك بارز كالذي أدير، ولا نملك إلا دبًا واحدًا...».

قاطعته لاو دو: «هل تقصد أنك تريد أن تأخذ دبي؟».

«أوه! أنا أحب الفتيات الذكيات، فالكلام معهن سهل ومريح، ليس كذلك العنيد المعقد الذي قابلته بالأمس، فقد أرهقني بكثرة الكلام».

قالت لاو دو: «آسفة، لا يمكن أن ينضم دبي إليكم!».

ذُهل الرجل، وعلى الفور ابتسم بسمة أكثر سحرًا: «لا تتعجلي في الرد عليّ، فكري أولًا».

لم يعد حقل أزهار الخطمي خارج النافذة باديًا أمام الأنظار، فقد حل محله حقول قمح تفيض خضارًا ونضرة.

قالت لاو دو: «لا داعي للتفكير».

كان رذاذ لعابه يتطاير بكل الاتجاهات وهو يقول لها: «آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، لا أعرف هل أخبرك أحدهم من قبل أن المريض بداء التحول شفاؤه صعب جدًا جدًا. لا، بل على حد علمي، فهو يكمل حياته على شكل الحيوان الذي صار إليه، فيشقى ويشقي معه أهله شقاءً لا حد له. لكنني أضمن لهم حياة هنيئة معي. باختصار، فكري قليلًا، ماذا ستفعلين إذا طال عليه الأمد وهو على هذه الحال؟ هل ستعيشين مع دب؟ يا إلهي! هل تظنين أن هذا عالم من قصص الأطفال؟».

تعيش مع دب؟ لا، لم تفكر لاو دو من قبل في أن يبين قه قد يظل دبًا، لكن ماذا لو... لم ترغب

لاو دو في مواصلة التفكير.

لاحظ الرجل تردد لاو دو، فتشجع وتابع: «هيه، ما رأيك؟ هل ستفكرين ثانيةً في عرضي؟ هكذا تعود المنفعة ليس فقط على الدب، بل عليكِ أيضًا، فأنا سأعطيكِ مبلغًا من المال. وبالتأكيد، إذا أردتِ، يمكنكِ أنتِ كذلك الانضمام إلينا، فالسيرك الآن ينقصه مُهرِّج، وأقسم بجسمي المستديرة أنك مؤهلة تمامًا لهذا العمل!».

تأثر الرجل بكلامه حتى لمعت عيناه كأنهما امتلأتا بالنجوم، وصارت كل نجمة تشع ضوءًا مبهرًا في عيني لاو دو، فأرادت لاو دو للحظة أن توافق حقًا، لكنها -لحسن الحظ- عادت سريعًا إلى رشدها.

«لا، إنه أبي!».

ضحك الرجل قاصدًا تملقها: «أعرف أنه أبوكِ!».

«هل تحب أباك؟».

لم يتوقع الرجل أن تباغته لاو دو بمثل هذا السؤال، وتحسس بحذر فكه الأسفل الأملس كبيضة حمامة، وراح يفكر مليًا في إجابة مناسبة.

قاطعت تفكيره قائلة: «إنني أحب أبي حبًا جمًا، وسواء تحول إلى دب، أو تحول إلى قط، أو حتى إلى فأر، سأظل دائمًا أحميه وأدافع عنه، حتى يعود إلى جواري. ولو ظل دبًا للأبد، فأنا على أتم استعداد أن أكون ابنة الدب للأبد، فآخذه لنسافر معًا، وأحقق حلمه بالذهاب إلى كل مكان بالعالم ورؤية كل منظر خلاب على الأرض».

أخرج الرجل منشفة ومسح بها جبينه الذي يفيض عرقًا بلا توقف، ثم مسح عينيه، وقال: «آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، لم أتأثر بكلام أحد منذ وقت طويل، لكن لا بد لي الآن من الاعتراف بأن كلماتك قد اخترقت شغاف قلبي الضعيف، فجعلت إعجابي بكِ كموج بحر هائج جياش».

أدارت لاو دو رأسها، ونظرت إلى الرجل الماهر في التمثيل، وقالت فجأة: «لقد اتسخ منديلك».

دهش الرجل وقال: «نعم؟».

وفي هذه اللحظة، كانت هناك شابة جميلة المحيا تجلس مقابل لاو دو، فقالت لها بغنج

وغضب معًا وهي ترفع أحد حاجبيها المرسومين على شكل هلال: «يا ابنتي، عمك لا يريد إلا مصلحتك، فكفّي عن عنادك ووافقي على طلبه».

وبالصدفة جاءت أيضًا امرأة مسنة، وقالت وهي تضحك: «بالضبط، يا ابنتي، فلا تسيئي فهم نيته الطيبة وتنكري تقديره لك، فهو رجل يشهد الجميع بأنه فاعل خير عظيم».

ومع أن كلامها بدا في صالح الكعكة المستديرة، فالواضح من نبرتها أنها كانت مستهزئة ساخرة.

مع اقتراب الغسق، أظلمت عربات القطار، وبدأت ظلال الناس الممدودة على أرضها تصير ضبابية مشوشة، وشعرت لاو دو بأنها فوق مسرح تغشاه ألوان عجيبة وأشكال غريبة، وترى الأشباح تصعد إليه شبحًا تلو الآخر.

«تعلمي التمييز بين الأخيار والأشرار، فكون السيد كعكة مستديرة يريد أن يأخذ دبك هو من حسن حظك!».

«لا يزعجني شيء قدر أن أرى مصابًا بمرض التحول يذهب ويجيء بكل مكان، فالصواب أن يذهب هذا الدب إلى السيرك!».

ظل القوم يتوافدون على لاو دو يتكلمون ويضحكون ويهددون. ولم تدرِ لاو دو أين هي، في عربة قطار متجهة إلى مدينة يوقو، أم في عالم أحلامها.

دب يا دب،

أنت غبي،

تلوث العالم،

وترافق طفلة.

بدأ بعض الناس يغنون، وراح الآخرون يرددون صداهم، فعلا صوت الغناء شيئًا فشيئًا، وسرعان ما غمر عربة الركاب بالكامل مرح صاخب كأنما أوشك القطار كله أن ينقلب.

سدت لاو دو أذنيها!

8. قاض ساحر

فجأة صدر صوت كسول من أبعد ركن من عربة الركاب يقول: «أيها الناس، لقد أيقظتموني من أحلامي السعيدة!».

ردت تلك المرأة المسنة بحدة: «مَن ينعق هناك؟».

«ليس مهمًا مَن أنا، المهم أنكم تصدرون ضجيجًا عاليًا. هذا قطار، وليس ستوديو غناء أو غرفة كاريوكي!».

«إذا أردنا أن نغني سنغني!».

«يبدو أن جميعكم يشعر بالملل، وأنا مثلكم، إذن فلأقص عليكم قصة».

وبدأ المتكلم يحكي من نفسه دون أن يعير أحد اهتمامًا:

(في صباح اليوم، قبل أن أستقل القطار، ذهبت إلى منزل أحد التجار.

يعيش ذلك التاجر حياة بذخ وترف، وقد شيد قلعة ضخمة. هذه القلعة حجراتها ليست مبنية بالطوب والحجر، بل كلها من كتلة واحدة من الذهب. وداخل كل ركن من هذه القلعة الذهبية، تجد ما لذ وطاب من الطعام، وبداخل حديقتها تجد زهورًا من الزبد، فإنْ أردت الأكل منها انحنيت ولعقت بضع لعقات، وما يتدفق من بئرها ليس مياه آبار، بل أفضل نبيذ في العالم، فإنْ أردت الشرب منه وضعت به ماصّة وشربت حتى الارتواء.

وقد وضع بداخل القلعة أيضًا الكثير من الأشياء العجيبة والنادرة، فهناك مثلًا شجرة تمر حنة تملؤها السكاكر والمعجنات، ويمكن لأي امرؤ تناول ما أراد منها، وبداخل الأحواض ينمو الكثير من السمك، وبمجرد أن يصيح به الطاهي: «يا سمك، تعال!»، يطير السمك إلى صحنه، ويتبل

نفسه بالصلصات والبهارات، ثم يقفز إلى المقلاة ليقلي نفسه في الزيت.

ورب هذه القلعة الذهبية رجلٌ غريب الطباع، فهو مثلًا لا يكافئ إلا الخدم الأكثر كسلًا، ولا يدلل إلا الأكثر فشلًا من أبنائه. وهو يغد الاستقامة والاجتهاد معاداة له، والغباء والبلادة أكبر احترام له. وعلاوة على ذلك، فأكثر مَن يحبهم الكذابون، وكلما كذب عليه أحدهم، أعطاه ألف جنيه ذهبي، وأكثر مَن يمقتهم الصادقون، فلو سمع أحدهم يقول دون أن ينتبه كلامًا صادقًا، غضب منه وطرده من قلعته. وفي الحقيقة، هذا هو سبب طردي من القلعة!).

صاح أحدهم: «فشّار! أنّى توجد مثل هذه القلعة ومثل هذا الرجل غريب الأطوار؟».

أدار القاص لسان قبعته للوراء وقال من الركن حيث يجلس: «كلامك صحيح تمامًا يا صديقي، أنّى مثل هذا الرجل في العالم؟! ولكننا نصادف الكذابين في كل مكان».

ضحك الكعكة المستديرة ضحكة باردة وهو يقول: «انتبه لكلامك يا صديقي الصغير، واحذر الذئب الكبير(3)».

«حقًا؟ إذن يمكنني أن أحمل معي العصا».

قالت تلك الفتاة الجميلة بصوت حادّ: «جزّه واسلخ جلده».

رفع الرجل الذي قصّ القصة حافة قبعته وقال ضاحكًا: «ويجب أيضًا أن أنتزع أوتاره وأشرب من دمه».

اتسعت حدقتا عيني لاو دو بغتةً، إذ شعرت بأن هذا الصوت ليس غريبًا عنها قَط.

قال الكعكة المستديرة والضحكات تملأ قسمات وجهه: «أوه أوه! وأنا أتساءل مَن المتحدث! فأكتشف أنه السيد العظيم السمكة السوداء!»، وانحنى له.

شبك السمكة السوداء ذراعيه أمام صدره، وقال ساخرًا: «كف عنك هذا الهراء يا أستاذ كعكة مستديرة».

«تُرى لمَ شرفنا السيد سمكة سوداء بركوبه القطار معنا؟».

غمز السمكة السوداء إلى لاو دو بعينه، وقال ضاحكًا: «إنه مجرد القليل من الاهتمام أشعر به تجاه تلك الفتاة وديها».

صفق الكعكة المستديرة وهلّل بطريقة مبالغ فيها وهو يقول: «يبدو أنني والسيد السمكة السوداء تطلعاتنا مشتركة وطريقنا واحد».

«حقًا؟».

لتحضير الطعام لكم».

«على حد قولك هذا، فأنت بحضورك اليوم لا تنوي خيرًا؟».

رفع السمكة السوداء حاجبيه وسأله باسمًا: «ما رأيك أنت؟».

«إذن فلا داعي لأن نتكلف».

رد السمكة السوداء: «كُلفة ماذا؟».

وطرقع بأصابعه، ثم رفع يده، فالتف أربعة أو خمسة أشخاص حول السمكة السوداء.

شبك السمكة السوداء ذراعيه حول صدره، ونظر شزرًا لمَن التفوا حوله، وقال: «ماذا؟ أتريدون العراك؟».

قهقه الكعكة المستديرة عاليًا وقال له: «أنت حقًا ذكي يا ولد! وأنا أحب الأذكياء كثيرًا كثيرًا كثيرًا!».

ولما رأت لاو دو الوضع يسوء، اندفعت بلا تفكير، وضمت قبضتها، وضربت بها أنف الكعكة المستديرة.

صرخ الكعكة المستديرة صراخًا مؤلمًا وقال: «آه، أنفي! دم... دم...»، ووضع يده على أنفه، وجلس القرفصاء وهو يئن بالضبط فوق الدب.

استيقظ الدب فزعًا من نومه الهانئ، فنصب قامته في الحال، وأطاح بالكعكة المستديرة على الأرض.

ووسط صرخات الكعكة المستديرة المروعة بعد أن أطاح به الدب، انسل السمكة السوداء من طوق الحصار كسمكة لُخ زلقة، وباغت أولئك الأشرار الملتفين حوله يحاولون ضربه بقوة؛ فراحوا تباعًا يمدون أيديهم وأرجلهم لصده والإمساك به، ولكنهم على العكس اشتبكوا معًا وشلّوا حركتهم، فصاروا ككتلة واحدة.

«أيها المزعج الصغير، اثبت مكانك!».

لوّح السمكة السوداء لذلك الذي يهتف بشدة، وقال له وهو يضحك ويمرح: «حسنًا، حسنًا!».

وفجأة تحولت عربة الركاب إلى ساحة من الفوضى، بين سباب ومطاردة وصراخ وأنين!

اقتحم رئيس القطار العربة وهو يلوّح بهراوته ويقول: «مجموعة جرذان تعيش في المجاري! جرذان! جرذان!».

كان رئيس القطار طويلًا كالدببة ضخمًا كالعمالقة، وقد جاء مزمجرًا وهو يلوح بهراوته يمينًا ويسارًا، ويقول: «أوغاد! أوغاد!».

كشر الرجل بهراوته جميع النوافذ، فملأ العربة هواء بارد.

«يا قاذورات يا حثالة الناس، قد حذّرتكم من ركوب عرباتي! لا تجبروني على القبض عليكم مرة أخرى!».

توقف القطار في محطة غير معروفة.

أشار رئيس القطار بهراوته إلى باب العربة المفتوح على مصراعيه، وصاح بجميع الركاب: «إلى الخارج! اخرجوا جميعًا!».

رفضت لاو دو أن «تُطرد»، إذ على أساس يطردها؟ فسندت الباب برجلها بكل قوتها.

«اشتريت تذكرة».

«جميع مَن هنا اشترى تذاكر!».

«لم أفعل خطأ».

«لا أعرف إن كنتِ فعلت خطأ أم لا. ولكن، هل هذا الدب لكِ؟».

«إنه أبي».

«حسنًا يا طفلتي، سأقول لكِ بكل وضوح، أيًا كان مَن سمح لكِ بركوب القطار مع الدب، فلا بد لكما من النزول الآن، فإن أكثر مَن أكره المرضى بداء التحول، فهم لا يتحملون أدنى مسؤولية تجاه أسرهم أو حتى أنفسهم. إنهم أنانيون لا يفكرون إلا في مصالحهم، بل وقدرتهم النفسية على التحمل ضعيفة إلى أقصى حد. لا تنظري إليّ هكذا يا صغيرتي، فأنا أقول الحقيقة. إن الشجاع شديد البأس لا يصاب بهذا المرض أبدًا، ولا يصاب به إلا أولئك الذين يشعرون دومًا بأن الآخرين مدينون لهم ويخذلونهم، وسواء تحولوا إلى دببة أو نمور أو فهود أو نسور جبلية، فسيظلون للأبد جبناء حتى النخاع. والأفضل من المحاولة معهم حتى يعودوا إلى وضعهم الطبيعي، أن نتركهم بحالهم».

قاطعت لاو دو حديثه بقولها: «سأظل أحاول حتى النهاية!».

مد الرجل رأسه من إحدى النوافذ الزجاجية التي كسرها قبيل قليل وقال لها بصوت عالٍ: «يا طفلتي، اسمعي كلامي، وإلا صار مستقبلك قاتمًا كهؤلاء الفشلة».

لم تدِر لاو دو رأسها لتنظر إليه.

اقتيد جميع مَن كان بالعربة بمن فيهم لاو دو والسمكة السوداء والكعكة المستديرة إلى غرفة ضابط الشرطة، وأُقفل عليهم الباب.

سألت لاو دو السمكة السوداء: «ماذا سيفعلون بنا؟».

«ما رأيك أنت؟ على كل حال، يشرفك الآن أنكِ مع المحتالين واللصوص والسماسرة ذائعي الصيت بكل أنحاء المعمورة»

قالت لاو دو بلهجة ساخرة: «إذن كلكم زملاء مهنة واحدة!».

ضحك السمكة السوداء وقال وهو يهز كتفه: «بالضبط، لكني لم أكون في القطار بلا سبب».

«أنت في مهمة خاصة إذن؟».

«أصاب حزرك! ألستِ غبية وبلهاء؟ القطار الذي ركبته هو قطار (الفاسد) سيء السمعة، فقلقت الأخت الكبيرة قهوة عليكِ من هؤلاء الـ...».

وأشار السمكة السوداء بإصبعه إلى جميع مَن كانوا بالقطار واحدًا واحدًا، وتابع: «هؤلاء الأشرار، وخشت أن يبيعوكِ، وتعدّين لهم المال الذي جنوه ببيعك، لهذا أرسلتني لمراقبتك، ولم أتوقع أنهم وضعوكِ أنتِ والدب نصب أعينهم فعلًا».

دنا منهما الكعكة المستديرة وقال ضاحكًا وهو يغطي أنفه بيده: «آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، إياكِ أن تصدقي هذا الكلام الفارغ الذي يقوله هذا الولد».

ثم دنت منهم تلك الفتاة الجميلة كذلك ونفثت في وجه لاو دو سلسلة طويلة من حلقات الدخان، وقالت ضاحكة: «صحيح، لم يكن ذلك إلا بدافع الشعور بالملل، فأردنا المزاح ومداعبتك أنتِ والدب لا أكثر».

لم تستوعب لاو دو الأمر، أليس الكعكة المستديرة مدير سيرك؟ كيف يكون محتالًا أيضًا؟ ضحك السمكة السوداء ضحكة غامضة على سؤالها هذا، وامتنع عن الرد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبطلوع الفجر، أطلق سراح لاو دو والدب مسبقًا لعدم وجود سجل جنائي لهما.

وبينما كانت لاو دو تهم بالمغادرة، صاح في ظهرها السمكة السوداء: «يا بنت، انتظريني. أكلوا وجبة غداء شهية لذيذة، سيطلقون سراحي بكل أدب».

لم تلتفت لاو دو، ولم تهز رأسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9. النظر إلى النجوم من عربة الركاب

كان الوقت ما زال باكرًا حينما دخلت لاو دو والدب بلدة صغيرة خالية من البشر.

كان الضباب الرقيق كالشاش يغلف السماء، وقد فاح بجميع الأرجاء عبق خفيف، والشمس تنثر أشعتها على استحياء. إنه صباح جديد منعش كزهرة بيليس معفّر.

لن يمر القطار التالي إلا بعد خمسة أيام، ولا يمكن للاو دو والدب الانتظار. وفضلًا عن ذلك، فلو كان كلام الكعكة المستديرة صحيحًا، وكان وضع المريض بالتحول يزداد سوءًا بمرور الأيام، فلا بد من الذهاب إلى مدينة يوقو بأسرع ما يمكن.

وحينما توسطت الشمس السماء، توصلت لاو دو أخيرًا إلى سائق شاحنة ذاهب إلى مدينة يوقو هو أيضًا.

ببرود قال لها السائق الذي امتلأ وجهه بلحية كبيرة وشارب: «الأفضل ألا تذهبي إلى هناك، خاصة وأنت معكِ دب!».

ردت لاو دو وهي متشبثة بباب الشاحنة: «لا يمكن، لا بد من الذهاب!».

حدق السائقُ في الدب الواقف خلف لاو دو بجبن وحذر، وقال لها: «لكن الركوب ليس مجانًا».

«سأدفع أجرتك!».

«ضعف ثمن تذكرة القطار».

«اتفقنا!».

لم تكن الشاحنة كبيرة، وقد التصقت بها رائحة عفنة من حمولاتها السابقة من دجاج وخنازير وأغنام.

نظر السائق للدب نظرة تخلو من أي تعبير وقال: «لا يمكن أن يجلس الدب بجوار السائق»، ثم أشار إلى صندوق الشاحنة الذي يُحمّل بالبضائع منذ سنين طوال، وقال: «لا بد من أن يجلس هناك».

وهذا طبيعي، بالإضافة إلى أن الدب بهذا الحجم الضخم ربما لن يتمكن من الدخول من باب الشاحنة.

تسلق الدب بصعوبة بالغة صندوق الشاحنة المكشوف تمامًا، ثم تبعته لاو دو.

قال السائق: «يمكنك الجلوس بالأمام».

رفضت لاو دو عرضه الطيب بقولها: «شكرًا! يجب أن أكون مع الدب!».

رد قائلا: «كما تشائين!».

انحنت لاو دو وسألت بصوت عالٍ باتجاه كابينة السائق: «صحيح، بأي اسم أناديك؟».

«في صغري، كانت أمي تناديني بالعفريت الكذاب، وكان أبي يناديني بالعفريت الفشار، وبعدما كبرت، صاروا ينادونني بالفاسد، والوغد، وفي بعض الوقت اتفقا على تسميتي بالمحتال، والهارب. أما الآن فهناك مَن يطلق عليّ تاجر الخنازير، وبائع البط والدجاج، وتاجر الغنم، أو تاجر البطيخ».

«بأي اسم أناديك إذن؟».

«بما تشائين!».

«حسنًا. هل لي أن أعرف بمَ تسمي شاحنتك هذه؟».

«في البداية أطلقت عليها لقب (حلوتي الصغيرة)، والآن أسميها (الآنسة سبانخ)».

هتفت لاو دو بسرور: «ممتاز. إذن سأناديك بـ (السيد سبانخ)».

قال لها السائق: «كما تشائين. على كل حال، فالاسم لا يمثل لديّ أهميةً أكبر من قطعة

منتو(4)». ثم داس على دواسة البنزين، وانطلق بالشاحنة.

وبينما كانت الشمس واقفة بشموخ على قمة الجبل، تكوّر الدب بجوار قدمي لاو دو، وغط في نوم عميق كعادته، كأنه يرى في أحلامه حبيبته يين شياوخه، وعالمًا عجيبًا فريدًا.

راحت لاو دو تمسح بخفة على فروه البني الكثيف، مثلما كان يين قه يلامس شعرها فيما مضى.

وعلى حين غرة قال أحدهم للاو دو: «لاو دو، اصحي».

«مَن؟».

«أنا يا لاو دو».

فركت لاو دو عينيها، لتكتشف أنه الدب!

حدقت لاو دو بعينيها اللتين بدا فيهما مزيج من الدهشة والفرح: «تستطيع الآن أن تتكلم!».

هز الدب رأسه موافقًا.

«إذن ستعود إلى حالتك الأصلية؟ سمعت أن المريض إذا استطاع الكلام فسوف يستعيد شكله شيئًا فشيئًا!».

قال الدب: «الفضل لكِ يا لاو دو».

ومد كفّه السميك، وصار يمسح على لاو دو بلطف، ودمعه يتساقط على جبهتها قطرة تلو الأخرى! وسرعان ما فاض دمعه وظل ينهمر كالسيل العارم!

ثم استيقظت لاو دو. لم يكن ذلك سوى حلم!

فجأة أمطرت السماء، إذ صارت قطرات المياه الكثيفة المتتابعة تهبط منها بجرأة، وتتسابق كل قطرة لاستعراض قوتها القصوى.

استيقظ الدب أيضًا، وفغر فاه، وراح ينظر للسماء في حيرة وارتباك.

دوّى رعد مفاجئ ثقب السماء ثقبًا ضخمًا، فسقط المطر الغزير المتراكم سيولًا تتدافع بلا رادع.

مد السيد سبانخ رأسه من نافذة الشاحنة، وصاح بلاو دو: «يمكنك الركوب بجانبي».

«شكرًا! يجب أن أبقى مع الدب!».

قال السيد سبانخ متمتمًا: «كما تشائين!».

اشتد المطر أكثر فأكثر، وملأ الماء صندوق الشاحنة المكشوف للسماء.

عانقت لاو دو الدب المذعور، وقالت له: «لا تخف يا دب، سأغني لك أغنية!».

لا نهاب شيئًا،

سنعود إلى بيتنا،

إلى ذلك المكان المشمس الساحر،

حيث يفوح عبق الزهور،

والعالم الجميل ينتظرنا.

مد السيد سبانخ رأسه من النافذة مرة أخرى، وقال لها: «هل تعرفين أن صوتك مزعج جدا؟»، وألقى إليها بمظلة.

أمسكت لاو دو بالمظلة وفردتها فوق رأس الدب، لكن الرياح كانت قوية جدا، فسقطت المظلة من يدها وتدحرجت في صندوق الشاحنة إلى أن طارت باتجاه الأراضي المنبسطة.

ابتل جسد الدب بالكامل، لكن لاو دو احتضنته وهي تضحك عاليًا: «أيها الدب، لقد تذكرت فجأة تلك المرة التي أخذتني فيها إلى المستشفى. كان المطر يهطل في تلك الليلة بغزارة كذلك، وحملتني على ظهرك. حجبت عني المطر بجسدك، حتى ابتل كله، وبعدما صحوت من النوم ورأيتك، ظننت أنك سقطت في المياه».

خفض الدب رأسه، وظل يلامس وجه لاو دو برقّة.

قالت لاو دو وهي تضحك ضحكة عالية: «لا تزغزغني».

رمى السيد سبانخ على صندوق الشاحنة سترة واقية من المطر.

قالت له لاو دو بصوت عال: «شكرا لك يا سيد سبانخ!».

رد السيد سبانخ بصوت خفيض: «عفوًا أيتها البلهاء الصغيرة!».

توقف المطر أخيرًا، واكتست السماء التي غسلها بلون أزرق أرجواني رائع، فراحت الطيور من

فورها تنفض عن أجسادها الصغيرة قطرات المياه، وصفقت بأجنحتها نحو المروج الشاسعة.

نظرت لاو دو إلى حقول القمح المتراصة، التي بدت كمربعات خضراء في كراستها تنبسط بلا توقف سطرًا بعد سطر، فبسطت ذراعيها دون أن تشعر، وهتفت: «ما أروعها!».

صاح السيد سبانخ أيضًا: «بالفعل... يبدو أنها جميلة جدًا».

توقفت الشاحنة عند سفح جبل تملؤه الزهور البرية.

وضعت لاو دو في يد السيد سبانخ الخبز الذي تحبه، وقالت له: «خذه، فقد أرهقك السفر أشد إرهاق!».

احمرّ وجه السيد سبانخ، وسألها بخجل: «الجلوس بالأعلى هو الأكثر إرهاقًا، صحيح؟».

«لا، لا، فقد كان معي الدب، إنه أبي. لا يتعب المرء ما دام مع أهله! ألا تعتقد ذلك؟».

«حقًا؟».

لمّا سمع السيد سبانخ -الذي لم يُكوِّن أسرة بعد- كلام لاو دو، رغب فجأة في البحث عن فتاة والزواج بها، وتكوين أسرة، وإنجاب طفلة مثل لاو دو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسدل الليل أستاره، ولمعت النجوم في السماء.

في فصل الصيف من كل عام، كان ييين قه يأخذ ابنته لاو دو لرؤية النجوم، تلك الأشياء الصغيرة اللامعة وهي تتلألأ في السماء. كانا أحيانا يجلسان على البحر لرؤيتها، وأحيانًا أخرى يتسلقان الجبل. ولكن لم يحدث من قبل أن تمتعا برؤيتها من شاحنة تعدو بأقصى سرعتها. ما أمتع هذه التجربة! لو كان ييين قه على حاله ولم يتحول، لأتسمت هذه المرة باكتمال سعادتهما! ولكن حتى بعد أن صار دبًا، فهو بالتأكيد سعيد بها، والدليل أنه ظل طوال الوقت يحدق في السماء المتلألئة.

بدا الدب كأنه يقول للاو دو: «انظري! إنه شهاب!».

«إنه شهاب فعلًا!».

نظرت لاو دو إلى ذلك النجم الذي يجر ذيلًا طويلًا وراءه، ويسير باتجاه الشاحنة، فشبكت

أصابع يديها معًا على الفور، وأغلقت عينيها في خشوع وورع.

في ظهر اليوم التالي، أوقف السيد سبانخ شاحنته على أرض متعرجة ملتوية في الطريق بين سفح الجبل وقمته، وأشار للاو دو إلى مدينة ضخمة أسفل أقدام الجبل، وقال: «هذه هي مدينة يوقو»

اندهشت لاو دو عندما وجدت أن مدينة يوقو تقع في وادٍ!

قال السيد سبانخ وهو يستند إلى باب الشاحنة، وينظر إلى لاو دو بقلق: «لو كنت مكانكِ، لغادرت بعد رؤيتها، فلا أمكث بها، خاصة وأن معكِ دبا».

قالت لاه لاو دو: «شكرًا لك، ولكن لا بد من أن أذهب أنا والدب».

«حسنًا، كما تشائين».

حك السيد سبانخ رأسه ببعض الحزن، ثم تابع متمتمًا: «أسكن في بلدة شي وو، حيثما التقينا. وإذا احتجتِ شيئًا، فلا تترددي في الذهاب إليّ بأي وقت. منزلي لونه وردي، وأمام الباب شجرة».

هزت لاو دو رأسها موافقة. وبعد أن غادر السيد سبانخ، اكتشفت أن أجرة المواصلات التي دفعتها له قد عادت إلى كيس جواربها مرة أخرى دون أن تدري.

10. مدينة غريبة

وقفت لاو دو والدب أمام بوابة مدينة يوقو السميكة العالية والمصنوعة من خشب البلوط، وقالت وهي رافعة رأسها بزهو وفخر: «ما رأيك يا دب؟ هذه المرة وصلنا إلى وجهتنا، أليس كذلك؟».

لكن الدب بدا كأنه لم يسمعها. لم يُخطئ الكعكة المستديرة حين قال إن المريض بالتحول تزيد حدة مرضه يوما بعد يوم، فالدب تتحول حاسة اللمس وحاسة السمع وقوة الإدراك لديه سريعًا لتصير أشبه بالدببة الحقيقية.

قالت لاو دو في نفسها: «لا بد من العثور على يين شياوخه بأسرع ما يمكن! وأرجو أن تكون قوة الحب بلا حدود فعلًا!».

وبعزيمة قوية اجتازت تلك البوابة الضخمة.

باغتتها ريح باردة؛ فشعرت بالبرد على الفور، وارتعش جسدها رعشةً رغمًا عنها.

في شارع ضيق طويل كسمكة رفيعة يعج بالناس، وقف الجميع ينظر في ذعر إلى لاو دو والدب.

شعور رمادية، وأعين رمادية، وملابس رمادية، وأيادٍ رمادية، وأرجل رمادية.

وبعد ذهول لم يستمر طويلًا، صارت وجوه أولئك الناس الفاترة رمادية.

إنها مدينة تختلف تمامًا عن مدينتي تشيباي ويوكو. ومرة أخرى سرت في جسد لاو دو رعشة مباغتة، كأول مرة غطست فيها إلى عمق البحر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو أن الدب قد شعر أيضًا ببرود هذه المدينة؛ فاختبأ بضعف وخوف خلف لاو دو، كأنما يريد أن ينكمش حتى لا يكون له أي أثر في تلك الأعين الباردة كالجليد.

لم يبادر أحد بإلقاء السلام على لاو دو. لقد بدأت تفهم أخيرًا سبب تحذير حبة القهوة والسيد سبانخ.

لا يصح الدخول لهذه المدينة فعلًا، فهي مكان إذا دخله أحد ندم أشد الندم! إنها تشبه عجوزًا يخلو وجهها من كل تعبير، وتعتريها الشكوك ومشاعر العداء تجاه أي ضيف قادم من بعيد.

سارت لاو دو والدب في هذا الشارع الطويل بلا هدف، ربما يجدا مَن يكلمهما، أو يقابلا أحدًا يبتسم لهما. لكن للأسف، كان الجميع يبتعد عنهما، بملامح خائفة مذعورة.

قالت لاو دو: «مدينتك القديمة لا ترحب بنا يا دب».

بدا الدب كأنما فهم قولها، وصار يحكها برأسه.

ضحكت لاو دو برقة وقالت له: «هل تقصد بهذه الحركة أن تقول لي: لا تيأسي، تشجعي وواصلي؟ كنت تقول لي هذا الكلام في كل مرة أرسب فيها. اطمئن، أنا حبة بازلاء نحاسية قوية!».

ضمت لاو دو كفها اليمنى معبرة عن حركة التشجيع لنفسها. علمها يين قه هذه الحركة حينما كانت في الرابعة من عمرها، وسألها حينئذ: «ألا يمتلئ جسمك كله قوةً بهذه الحركة؟».

كانت بعد ذلك عندما يقع أمر غير سار أو تتشاجر مع زملائها أو تتعرض للظلم من معلميها أو يعاملها أحد باحتقار لأنها لا أم لها، تعود إلى البيت وتقف أمام المرآة، وتضم قبضتها بإحكام، وتهتف عاليًا: «تشجعي!».

وكما قال لها يين قه فهي عندما تقوم بهذه الحركة وتقول لنفسها بصوت عالٍ: «تشجعي»، تعود إليها بالفعل تلك القوة التي سلبها منها الحزن أو الغضب.

وفي هذه المرة أيضًا قالت لنفسها بصوت عال: «تشجعي!»، لكن صوتها القوي المهيب سقط على أرض الشارع الرمادية، فبدا وحيدًا إلى أقصى حد.

لم يوافق أي فندق على استضافتهما، وكانت إجاباتهم جميعًا واحدة: «ليست لدينا غرف فارغة».

إنها مدينة غريبة، تسكنها مجموعة من غريبي الأطوار الباردين!

لكن ليلة في العراء، يمكن في الواقع أن تكون رائعة.

قررت لاو دو أخذ الدب والجلوس على سلم حجري بجوار نافورة الميدان، ورؤية النجوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهي تملأ السماء رويدًا رويدًا.

«الملعقة المسطحة، والملقط الصلب، والإبريق النحاسي،

العمل في المطبخ يجري على قدم وساق،

النار تشتعل وتتصاعد ألسنتها،

أنا آكل الباوتزه وأنت تشرب الحساء؛

أنا آكل الجياوتزه وأنت تأكل السكر».

وفي ساعة متأخرة من الليل، وبينما كان الشارع فارغًا ساكنًا، كانت هناك امرأة مسنة ترتدي سترة سوداء فضفاضة تغني وهي تتمايل في سيرها باتجاه السلم الحجري.

بدا على الجدة أنها ذعرت برؤية لاو دو فجأة، فقالت: «أنتِ إنس أم جن؟».

أجابتها لاو دو: «إنس».

قالت الجدة بغضب: «بما أنك إنس، لماذا لا تعودين إلى البيت؟».

«بناء على كلامك فأنتِ جن؟».

في تلك الليلة الصيفية ذات النسيم البارد المنعش، رغبت لاو دو فجأة في الحديث مع أي شخص.

قالت الجدة وهي تجلس بجوار لاو دو: «احذري مَن تقرحات اللسان أيها الجنية الصغيرة».

وفجأة، قفزت عن السلم كضفدع مذعور، وقالت: «ما هذا؟».

كانت الجدة تحدق في الدب المستلقي بجوار لاو دو كجبل صغير.

«إنه دب».

تراجعت الجدة بضع خطوات، وقالت وهي تنظر باندهاش إلى الدب الذي يرفع رأسه رويدًا للنظر إليها: «دب؟ يا إلهي! أنتِ الفتاة التي دخلت المدينة صباحًا برفقة دب؟».

قالت لاو دو بنبرة ساخرة لم تتمالك نفسها عنها وهي تميل رأسها وتضحك: «يبدو أنني صرت مشهورة في هذه المدينة!».

كان للجدة تحت ضوء القمر وجه مملوء بثنيات طويلة، وفم عريض خلا من الأسنان الأمامية.

قالت الجدة وقد صارت ملامحها صارمة حازمة: «ماذا تظنين أنتِ؟ أيها الجنية الصغيرة». ثم عاودت الجلوس على السلم، وتابعت: «معكِ دب! لو كان دبًا حقيقيًا فلا مشكلة، لكن الجميع عرف أنه متحول».

«وما المشكلة في ذلك؟».

وفجأة صار صوت الجدة عاليًا يخدش الآذان، كمنشار صدئ يقطع صخرة صلبة في طرفة عين، إذ تقول: «ما المشكلة؟ أيها الجنية الصغيرة التي لا تميز الأمور ولا تعرف حجمها!».

«اسمي لاو دو، وليس الجنية الصغيرة».

«حسنًا. لا يعنيني ما اسمك أيتها الجنية الصغيرة، ولتعرفي أنكِ أخطأتِ بقدومكِ إلى هذه المدينة، والأدهى أنكِ جئتِ بدب. لو كنت مكانكِ لاختفيت حالًا وعلى الفور من هنا، وعدت إلى حيث أتيت».

وأخرجت الجدة من جيبها بغضب ثمرة حضض هندي، ورمتها في فمها، وراحت تمضغ فيها بقوة كأن بينها وبين الثمرة عداوة شديدة.

«أشكركِ على نصيحتك، لكني والدب مرتبطان بأمر ما هنا».

«أشكركِ على نصيحتك، لكني والدب مرتبطان بأمر ما هنا؟ أف لك! على كل حال لا يخصني أمركما».

وقامت الجدة، ومسحت ما سال من لعابها على شفتيها بطرف كمها، وغادرت. لكنها سرعان ما استدارت وقالت: «صحيح، أيتها الجنية الصغيرة، لماذا ما زلتما جالسين هنا حتى هذا الوقت المتأخر؟ لا تقولي إنكِ ليس لديكِ مكان تذهبين إليه!».

«بالضبط ليس لدينا مكان نذهب إليه الآن يا جدتي».

«جدتك؟ هل تريني عجوزًا إلى هذا الحد؟ كان الجميع في الماضي يناديني بالعمة، ثم صاروا ينادونني بالسيدة لياو، وبعد ذلك صاروا ينادونني بامرأة الحضض».

«حسنًا يا امرأة الحضض، هل يمكنك إخباري أين أجد فندقًا يسمح باستضافتنا؟».

رفعت امرأة الحضض يدها وقالت بغضب: «لا يوجد. مستحيل أن يوجد هذا الفندق! أيتها الجنية الصغيرة، أنتِ مزعجة حقًا، لماذا تخبرينني أنك ليس لديكِ مكان تذهبين إليه أنتِ والدب؟ ولماذا صممتُ أنا على أن أخرج وأتمشى هنا الليلة؟».

وبعد أن ظلت برهةً تدق على صدرها بيديها وتضرب الأرض بقدميها، تمتمت: «إذا كان يناسبكما، فأنا عندي غرفة بالية».

أقامت لاو دو ظهرها وهي تقول فرحة: «حقًا؟».

كانت الغرفة بالية بالفعل، فقد كانت النافذة مكسورة والباب متهالكًا والفراش رثًا، لكن بداخلها عدد ليس بالقليل من «الضيوف»، حيث اتخذت العناكب والفئران بيوتًا لها.

وقفت امرأة الحضض عند مدخل الغرفة وسألت لاو دو بفم أعوج: «هل تسكنان بها أيتها الجنية الصغيرة؟».

«نعم!».

على كل حال الغرفة البالية أفضل من التشرد في الشوارع!

ولما رأت امرأة الحضض أن لاو دو وافقت دون تردد، قالت بجرأة: «حسنًا. إنه من سوء حظي أنا. يمكن أن تسكنا بها، ولكن لديّ شرط».

«أولًا: الدفع قبل السكن».

«لا مشكلة».

«ثانيًا: لا يمكن للدب أن يخرب أي شيء بالغرفة».

«كل شيء بها مخرب بالفعل!».

«ثالثًا: يجب أن يظل الدب بالغرفة، فلا يخرج للتسكع في شوارع المدينة».

سألتها لاو دو بصوت حاد: «لماذا؟».

«لا تسألي عن السبب. هي كلمة واحدة، لا يمكن أن يخرج، وستعرفين السبب وحدكِ لاحقًا».

ثم بصقت في راحة يدها بكل ما كان بفمها من بقايا ثمار الحضض الهندي.

فكرت لاو دو برهةً ثم قالت: «لا يمكنني تركه في الغرفة، إنه أبي، وأريد أن نخرج معًا للتنزه وتناول الطعام وشراء المستلزمات، مثلما كنا نفعل قبل أن يمرض».

«مثلما كنتما تفعلان؟ ذلك في أحلامك! فلتعرفي أيتها الجنية الصغيرة، ما زلتِ صغيرة لا تعين الأمور، ولا يمكنك تحمل عواقب ما يفعله المريض بالتحول».

«ربما... يوجد مرضى بالتحول في هذه المدينة أيضًا؟».

قالت امرأة الحضض بانفعال وقد سرت رعشة بكامل جسدها: «يا إلهي! ماذا تقولين؟ كيف يمكن أن يكون بمدينتنا مصابون بهذا المرض؟!».

«حسنًا سواء أكان بالمدينة مرضى بالتحول أم لا، فسيرافقني الدب في كل خطوة، وسنذهب معًا للتنزه في الطرقات وتناول الطعام وشراء اللوازم!».

«أيتها الجنية الصغيرة! ألا تفهمين الكلام؟ دعيني أقول لك بكل وضوح، إياك أن يخرج الدب من الغرفة!».

«وإذا صممت؟».

«أف! ستتآكل ضروسي بهذا الحضض».

«يجب أن يعيش الدب حياته كما كانت في الماضي، لأنني إذا عددته دبًا، سيعتقد أنه دب حقيقي، ويصير من الصعب أن يعود إلى أصله».

«يبدو كلامك المنمق جديدًا كليًا، مَن قال لكِ هذا؟».

«قال يين قه إن الإنسان إذا عدّه الآخرون سيئًا، فقد يصير سيئًا بالفعل، وإذا عدّه الآخرون طيبًا، فقد يصير طيبًا بالفعل. وعلى هذا الأساس، فلو عددناه دبًا، فقد يصير دبًا بالفعل».

«مَن يين قه؟».

«أبي».

لوّت امرأة الحضض شفتيها، وقالت بازدراء: «أليس هو هذا المريض؟».

ردت عليها بثقة: «سيتعافى!».

«لا تحلمي أيتها الجنية الصغيرة!».

تثاءبت امرأة الحضض ثم تابعت: «حسنًا، لن أجهد نفسي بالحديث مع طفلة بلهاء ساذجة. على كل حال...».

قاطعتها لاو دو بجرأة: «على كل حال سآخذه ونخرج!».

نظرت إليها امرأة الحضض شزرًا ثم صاحت وهي تغطي فمها بيدها: «آه! هذه الثمرة مرة جدًا. غدًا، غدًا لا بعد ذلك، سأذهب إلى ذلك البائع وأخرب بضاعته!».

«سآخذه أيضًا لمشاهدة الأفلام وتناول الطعام الغربي وركوب دواليب الهواء».

غطت امرأة الحضض أذنيها بيديها وقالت: «لم أسمع. لم أسمع أي شيء»، ثم مدت يدها للاو دو وقالت: «الإيجار، ثلاثون يوانًا، لا ينقص منها فن(5) واحد، وإلا فانصرفا!».

أخرجت لاو دو كيس الجوارب.

وبينما همت امرأة الحضض بالمغادرة، سألتها لاو دو فجأة: «هل سمعتِ بامرأة تدعى يين شياوخه؟».

ردّت امرأة الحضض بحماس بالغ: «يين شياوخه؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل. أهي تاجرة دببة؟ أم موظفة في حديقة حيوانات؟».

«إنها... صديقة أبي، وكانت تعيش في دار للأيتام، ثم صارت ممثلة راقصة في فريق الرقص بهذه المدينة».

«لم يعد بهذه المدينة أي فرق رقص على الإطلاق. الأفضل أن تذهبي مباشرة إلى دار الأيتام وتسألي عنها».

«هل تبعد دار الأيتام كثيرًا عن هنا؟».

ابتسمت امرأة الحضض بشفتيها الجافتين ابتسامة عريضة، وقالت بلهجة يلفها الغموض: «امشي على طول هذا الطريق، وأؤكد لكِ أنكِ ستعرفينها بنظرة واحدة».

«حقًّا؟».

تظاهرت امرأة الحضض بأنها لم تسمع لاو دو، وقالت: «لا يمكن للإنسان تفادي الحظ السيء مهما فعل. عليكِ أن تأخذي حمّامًا دافئًا بعد العودة للبيت، وتضيفي إلى مياهه من نبات الفصة، وأفضل شيء أن تضيفي أيضًا بضع قطرات من أي زيت عطري، حتى يزيل عنكِ تمامًا حظك السيء اليوم»، ثم رفعت ملابسها وراحت تتشممها، وغادرت بخطوات سريعة وقصيرة.

11. زيارة دار الأيتام

في فناء دار الأيتام، كان بستانيّ كبير السن يشذب الشجر داخل الفناء، وكان بعض الأطفال يضحكون، وبعضهم يبكون، ولما رأوا لاو دو والدب، ساد الهدوء الدار كلها في الحال.

استقبلتهما سيدة متوسطة العمر تُدعى: لوجيانغ (الزنجبيل الأخضر).

«لا يصح أن تصحبي الدب معك في كل مكان».

كانت هذه أول جملة تقولها الزنجبيل الأخضر، وصارت تنظر بقلق إلى لاو دو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

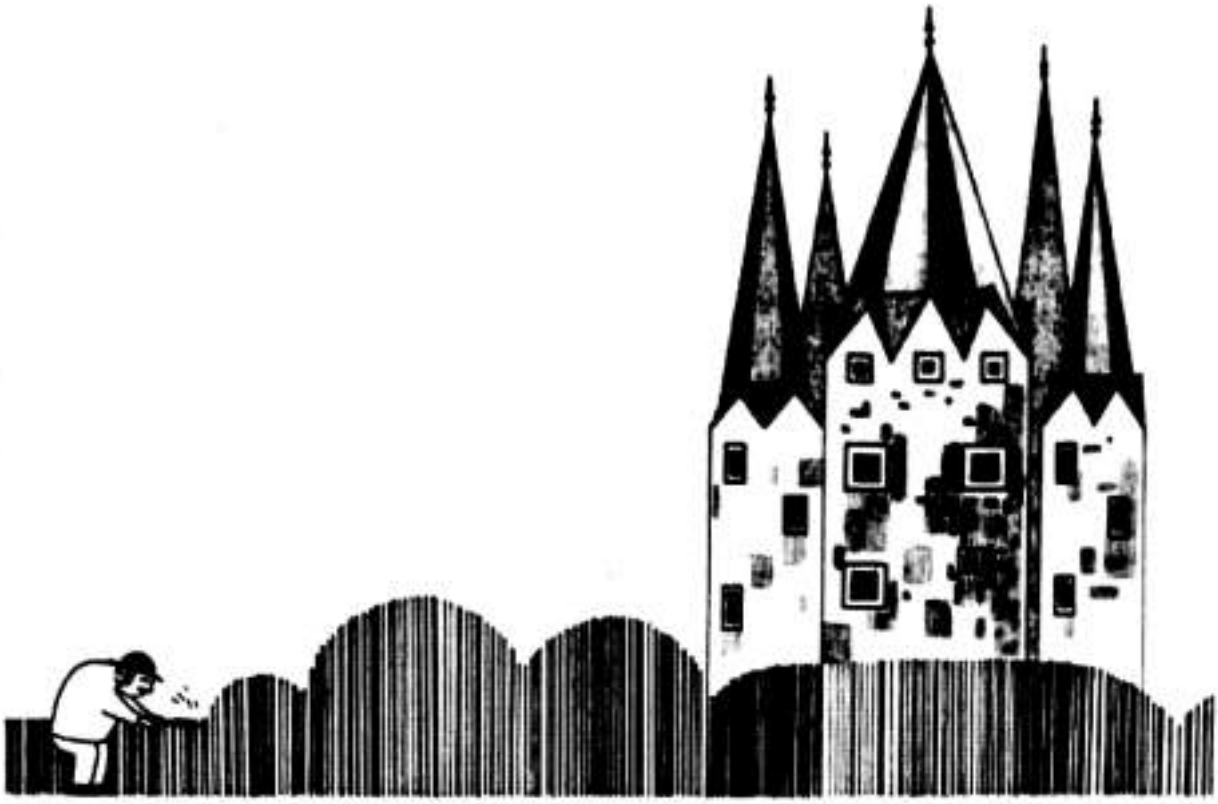

قالت لها لاو دو: «إنه أبي»، ثم أوضحت لها سبب مجيئها.

«بناء على كلامك، فإن أباك ويين شياوخه كانا يعيشان هنا؟».

هزت لاو دو رأسها بالإيجاب.

قلبت الزنجبيل الأخضر في المحفوظات، ولكنها لم تجد أي مستندات تخص يين شياوخه، كأنها لم تعش بهذه الدار يومًا.

قالت الزنجبيل الأخضر: «أمر عجيب، من المفترض أن تكون هنا الوثائق الخاصة بجميع الأطفال قبل بلوغ السادسة عشر من عمرهم. هل أنتِ متأكدة من كلامك؟».

يوقو، دار أيتام، يين شياوخه، جميع المعلومات التي أعطاها يين قه للاو دو بسيطة وواضحة، فكيف تنساها؟

«لكن لا يوجد هنا أي مستندات تخصها فعلًا».

شعرت لاو دو ببعض الحزن وخيبة الأمل.

«لو كنت مكانك لما أتيت إلى هذه المدينة بصحبة دب. ولكنك إنْ غادرتِ الآن، فعلى الأغلب لن يكون الأوان فات».

«لماذا؟ هل لأنه ممنوع بقاء دب هنا؟ أم لأن الجميع يكره رؤية مريض بالتحول؟».

شعرت لاو دو بأن الزنجبيل الأخضر مثل بقية أهل هذه المدينة تتحفظ على سر خطير لا تعرفه لاو دو.

بدت الزنجبيل الأخضر أنها تريد إكمال الحديث لكنها لم تقل شيئًا.

ثم فجأة وبينما همت لاو دو بالمغادرة سألتها: «إذا كان ممكنًا، هل توافقين على إرسال الدب إلى مكان ما؟».

«لا، لا أوافق... سأظل معه طوال الوقت!».

قالت لها الزنجبيل الأخضر بأسى عميق: «حظًا سعيدًا يا طفلتي!».

لم يزل البستاني في مشتل الزهور، حيث تفتحت زهور الخزامى المشرقية والفريزيا والقرنفل، وبجواره تجري مياه النهر الهادرة.

تساءلت لاو دو: «هل كان يين قه يلعب ويمرح في هذا المكان؟ هل كان وحده أم برفقة أطفال آخرين؟ هل كانت يين شياوخه معه؟».

شعرت لاو دو فجأة بأنها لا تعرف إلا أقل القليل عن يين قه، فهي لا تعرف إلا أنه أبوها، وأنه مصمم ماهر، ويحب اللون الأزرق الكئيب، ويحب الكرفس والبطاطس، ويفعل ما بوسعه في كل إجازة وفي نهاية كل أسبوع ليسافرا ويمرحا معًا، أما ماضيه الذي يسبق ذلك، وهمومه وخساراته وتجاربه العاطفية، فلا تدري عنها أي شيء! أو بقول آخر، لم ترغب في أن تعرفها من الأساس، لأنها طول الوقت مشغولة جدًا، مشغولة بالتزلج على الجليد والتزلج بالعجلات والرقص في الشوارع، ومشغولة بمناكفة معلميها وتدبير المقالب في زملائها، وأحيانًا تكون مشغولة بالغش والشجار أيضًا.

قالت لاو دو للدب برقة وهي تلمسه بقدمها: «أيها الدب، ستخبرني فيما بعد بكل حكاياتك، اتفقنا؟»؛ فحك الدب وجهها، ثم رفع رأسه ينظر إلى ذلك النهر الصافي.

«هل ما زلت تذكر هذا المكان؟».

لم يحرك الدب ساكنًا!

تقدم نحوهما على مهل البستاني الذي تقوس ظهره، وقال: «يا بنيتي، هذا الدب ضخم متين».

قالت لاو دو ضاحكة: «نعم. إنه ضخم حقًا. لكنه كان وسيمًا للغاية قبل أن يمرض».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبرؤية وجهها الضاحك لم يتمالك البستاني نفسه عن الضحك، وقال لها: «حقًا؟ لا عجب إذن أنكِ جميلة الوجه».

وعلى حين غرة تذكرت لاو دو شيئًا؛ فسألته: «يا جدي، من المؤكد أنك تعمل هنا منذ زمن بعيد. أليس كذلك؟».

«يمكنك قول ذلك. إذا استثنينا سنوات شبابي التي تشردت فيها وتنقلت من مكان إلى آخر، فقد قضيت حياتي كلها هنا».

«هل تعرف إذن شخصًا يُدعى: ييِن شياوخه؟».

«ييِن شياوخه؟».

انتصبت قامة البستاني رغمًا عنه، وراح ينظر إلى لاو دو مذعورًا؛ فلاحقته فرحة: «نعم، ييِن شياوخه! هل تذكرها؟».

«لا، لا أذكرها، فقد أتى إلى هذه الدار الكثير والكثير من الأطفال، لذا يصعب تذكرهم».

«أوه!».

ويبدو أن الجد لم يطاوعه قلبه في أن يخيب أمل لاو دو، فسألها: «أخبريني يا بنيتي، لماذا تبحثين عنها؟».

أشارت إلى نفسها والدب: «لست أنا، بل نحن»، ثم تابعت: «كان اسمه ييِن قه».

ودون سبب واضح التمعت عينا البستاني كيراعتين ظهرتا على حين غرة وسط الظلام، وسألها: «هل تقصدين أن هذا الدب كان اسمه ييِن قه؟».

لاحظت لاو دو لمعان عينيه، وسألته: «هل تعرفه؟».

لوّح البستاني بيده وقال بارتباك وقلق: «لا، لا أعرفه، لا أعرفه».

ولكن، لسبب غير معروف، شعرت لاو دو بأنه يعرف ييِن قه جيدًا، وربما يعرف ييِن شياوخه أيضًا! ولكن لماذا ينكر؟

لم يكن لدى لاو دو دواءٌ سحري، ولا سبيل لها لجعل البستاني ينطق بالحقيقة.

لم يكن أمام لاو دو إلا أن تغادر.

وإذ كانت لاو دو تعلق أملًا كبيرًا على دار الأيتام، فقد شعرت بأن طريق العودة قفر موحش،

وتنهد قلبها تنهيدة لا إرادية!

وكما حدث في اليوم السابق، فقد ابتعد عنها الناس حينما رأوا معها دبًا.

«تُرى لمَ يتصرَّفون على هذا النحو؟».

لم يكن مزاج لاو دو يسمح بالبحث عن إجابة، ولم تكن ترغب إلا في سؤالهم هل عرفوا يومًا ما امرأة تدعى يين شياوخه أم لا.

لكن لم يتقدم نحوهما أحد، كأنما حاجز وقائي هناك يحجبهم عنهما، فكان كل ما لاقته لاو دو والدب منهم هو الرفض القاطع.

رفعت لاو دو عينيها تنظر للشارع الرمادي الذي غلفه الضباب، وقالت: «وما المشكلة إنْ لم يعرنا أحد اهتمامًا، فعلى كل حال نحن معًا أليس كذلك؟».

اصطحبت لاو دو الدب في المساء لأجمل مطعم غربي بمدينة يوقو.

كان المطعم مغطى بطبقات فوق طبقات من ورق شجرة لبلاب، فبدا كقلعة من حكايات الأطفال تختبئ في عالم رمادي اللون. وقد عرفته لاو دو من أول نظرة!

وبعد أن رآهما النادل ذو الملامح الفاترة والنظرات الباردة، مد ذراعيه بسرعة وحاول منعهما من الدخول قائلًا: «آسف».

لكن لاو دو تملصت من تحت ذراعيه ودخلت، وبينما كان في حالة ذهول منها، خفض الدب رأسه والتف ومر بجانبه في خوف ودخل هو أيضًا.

هتف النادل على عجل: «آسف يا آنستي، نحن هنا...».

استدارت لاو دو نحوه وهي تبدي بوجهها تعابير هزلية مخيفة، ثم سارت هي والدب نحو المكان الأكثر إشراقًا بالأنوار في المطعم، حيث وضعت أريكتان ناعمتان، وطاولة عليها زهور بليس معمر جلست لاو دو والدب على الأريكتين أحدهما مقابل الآخر.

أمسكت لاو دو بقائمة الأطعمة الموضوعة فوق المنضدة، وصاحت: «طبق شرائح بقر نيوزلندي، وطبق بان كيك بالفراولة، وكوب آيس كريم بنكهة الفانيليا».

كان جميع مَن بالمطعم ممسكًا بالشوكة والسكين، وينظر إلى لاو دو والدب ببرود وقلق.

قال النادل: «أنا آسف يا آنستي، الدب...».

قاطعته لاو دو ثانية: «إنه أبي».

ثم جاء مدير المطعم، وقال لها بملامح فاترة: «يمكنني خدمتك مجانًا يا آنستي».

ضحكت لاو دو، إذ فهمت ما يقصد دون أن يُكمل كلامه، وهو: «يمكنني خدمتك مجانًا، ولكن لا يُسمح بوجود الدب هنا».

ابتسمت لاو دو وقالت: «لا، لا أريد خدمة مجانية، لا أريد إلا أن أتناول أنا والدب طعامًا غربيًا. إنه أبي، واليوم عيد ميلاده، وفي هذا اليوم من كل عام، نتناول طعامًا غربيًا»، ونفضت منديل المائدة، وقبل أن تضعه حول رقبتها، داست بقدمها وربطته للدب.

تنهد المدير وغادر، وبعد قليل نزل الطعام على المائدة.

بدأت لاو دو تتحدث بحماس بالغ غير آبهة بشيء: «أنا آسفة يا دب، ما معنا من مال لا يكفي إلا لهذا، ولكن لا مشكلة، ففي المستقبل سنحتفل بيوم ميلادك كثيرًا، وفي المرة التالية سنتناول وجبة كبيرة مشبعة. بالمناسبة يا دب، هل ما زلت تذكر أول مرة أخذتني فيها لتناول الطعام الغربي؟ حينها شربت مياه الليمون المخصصة لتنظيف الأيدي كلها دفعةً واحدة، ولما رأيتني أصابك الذهول في البداية، ثم انفجرت في الضحك، وأخذت مياه الليمون وشربتها أنت أيضًا، وقلت: (طعمها لا بأس به)، ثم مسحت فمك وأنت تغمزني بعينك».

تابعت وهي تتذكر: «آه، وفي مرة أخرى، حينما كنت في السابعة تقريبًا، وأنفقت كل ما ادخرت عليّ إذ مرضت مرضًا شديدًا، ولكن في يوم ميلادي، ذهبنا كعادتنا لتناول الطعام الغربي. في ذلك اليوم لم تطلب إلا طبقًا من شرائح لحم البقر، وطبق أرز بالكاري، وكوب آيس كريم، مثلما طلبت أنا اليوم. لكننا في ذلك اليوم كنا نأكل ونحن في غاية السعادة، وقد كان أهم عيد ميلاد عندي، لأننا تقاسمنا فيه كل طبق مقًا. وأيضًا، هل تذكر يا دب حينما بلغت العاشرة؟ بالضبط، العام الماضي، في ذلك اليوم لم تكن لدي رغبة في الذهاب إلى مطعم معك مرة أخرى، وذهبت إلى مطعم هندي مع دينغ شياو دينغ ومي ران ران، ولم أعد للبيت إلا في وقت متأخر، في حين كنت أنت جالسًا بغرفة المعيشة طوال الوقت في انتظاري، وعلى المائدة شرائح لحم وبيتزا قمت أنت بتحضيرهما، ولا أعرف لماذا قررت فجأة في تلك اللحظة أن أقضي معك كل أعياد ميلادي القادمة. ومع أنك دب الآن، فأنا على يقين من أنك ستعود كما كنت بجانبي، أليس كذلك؟ فلتعاهدني أنك لن تيأس، وأن تتشجع وتثابرا».

كان الصمت مُخيمًا على جميع المطعم، باستثناء مائدة لاو دو.

قال مدير المطعم بلطف وهو يفتح الباب للاو دو: «نرحب بكم... في المرة القادمة وأيضًا، كل عام والدب بخيرا».

«شكرًا!».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

12. مقابلة تشونغ لي وأمه بالصدفة

قالت امرأة الحضض بلهجة ساخرة وهي تستند إلى باب الغرفة المتهالك: «لو كنت مكانك، لفضلت البقاء في البيت حتى أجف على أن أذهب إلى ذلك المطعم الذي تسكنه الأشباح».

قالت لاو دو ضاحكة: «لكنك للأسف لست مكاني»، وأعطتها ثمن إيجار الغرفة.

«أيتها الصبية الساذجة عديمة التقدير، إكرامًا لأنك تدفعين الإيجار في وقته، سأحذرك مرة أخرى، خذي دبك وغادري من هنا بأسرع ما يمكن!».

«لم أعثر على يين شياوخه بعد».

«فلا داعي إذن للبحث عنها، إذ ما فائدة ذلك؟ هل سيعود الدب إلى حاله الأصلي؟».

«نعم أعتقد أن هذا ممكن».

«أيتها الجنية الصغيرة، لا تحدثيني كأنك بالغة: (أعتقد أن هذا ممكن). قد يطير السمك فوق الشجر وتسبح الطيور في البحر، ولكن الدب سيظل كما هو».

قالت لاو دو بصرامة وإصرار: «لا، سيشفى بالتأكيد!».

«حسنًا، حسنًا. لكن بيتي ليس مؤسسة خيرية ولا مكتب إغاثة، فلا تنتظري مني شيئًا إذا واجهتك مشكلة».

لم تفهم لاو دو ما المشكلة التي قد تواجهها، ولكن يبدو أن امرأة الحضض قد استنتجت ما

تفكر فيه لاو دو، وبمجرد أن فتحت لاو دو فمها، غادرت امرأة الحضض في عجالة وهي تهز شقي فستانها الأسود الفضفاض، واختفت في ظلام الليل كوطواط فسن متعجل.

صادفت لاو دو أخيرًا معلمة لم تختبئ منها هي والدب.

«يين شياوخه؟ ترقص باليه؟ لا، لم يأتِ إلى هنا أحد يرقص الباليه منذ سنين طوال فرقة رقص سابقة؟ لقد انفصل أعضاؤها بعضهم عن بعض».

«انفصلوا؟».

قالت المعلمة ببرود: «نعم. يرى حاكم مدينتنا القدير أن الرقص عادة سيئة تضر بالمجتمع. باختصار، كان أعضاء الفرقة في حالة نفسية سيئة، وكان المتفرجون في حالة نفسية سيئة، فانحلت الفرقة».

«هل الجميع هنا في حالة نفسية سيئة؟».

وضعت المعلمة سبابتها على فم لاو دو بسرعة، وقالت لها: «صه، يا بنية، انتبهي لكلامك. بالطبع، قد يكون هذا حقيقيًا، فالجميع -على كل حال- في حالة نفسية سيئة بالفعل»، وأطلقت تنهيدة عميقة.

التمعت عينا لاو دو كماس يتلألأ في ظلام الليل الحالك، وسألتها: «هل يمكنك إخباري بما حدث؟».

وفجأة صارت نبرة المعلمة قاسية وهي تقول لها: «لا! آسفة، ينبغي أن أعود للبيت لتحضير الطعام»، ثم غادرت بخطى متسارعة ومترنحة.

شعرت لاو دو بخيبة أمل عظيمة، وبينما همت هي والدب بالمغادرة، إذا بصبي نحيف ضعيف البنية يظهر فجأة من خلف شجرة بجوارهما.

«مرحبًا!».

نظرت لاو دو إلى ذلك الصبي ذي الشعر الرمادي والعينين الرماديتين، والذي اتضح أنه استرق السمع إلى حديثها مع المعلمة.

«هل تسألين عن راقصة باليه سابقة؟».

هزت لاو دو رأسها أن نعم.

قال الصبي: «أمي... كانت ترقص الباليه».

كان اسمه تشونغ لي، وقد اصطحب لاو دو والدب بحذر شديد إلى زقاق صغير منعزل، ودفع بابًا تفوح منه رائحة خشب الكافور.

«يا إلهي!».

نظرت أم الصبي إلى لاو دو والدب بذعر وقد بدا أن الرعب تملّكها تمامًا. وبعد أن استوعبت الأمر، طالعتهما بنظرات حزينة، وقالت بأسى: «لا يصح أن تتجولي بالدب هكذا في أي مكان بالمدينة».

«إنه أبي!».

«لكن أباك قد...».

قاطعتها قائلة: «إنه مجرد مرض، وأنا على يقين من أنه سيتعافى!».

يبدو أن نبرة لاو دو الحازمة قد أحرجت تشونغ لي وأمه، فراحا يتبادلان النظرات برهة.

كسرت لاو دو الصمت الذي ساد الغرفة أولًا بسؤالها: «سمعت أنكِ كنت ترقصين الباليه. صحيح؟».

وعلى الفور صار وجه أم تشونغ لي جميلًا بهيجًا بعد أن كان رماديًا شاحبًا، وقالت: «نعم كنت في صغري أحب الرقص كثيرًا، وكذلك كان جميع أصدقائي. يمكن القول إن جميع بنات هذه المدينة كنّ ماهرات في الرقص بالفطرة. كنا في كل احتفال نتزيّن بملابس أنيقة جذابة، ونرقص بكل طاقتنا. لقد عشنا أجمل أيام حياتنا آنذاك، لدرجة أننا تخيلنا أننا يومًا ما سنرقص خارج مدينة يوقو، على مسارح عالمية، سنرقص بجنون تحت أضواء الكشافات المسلطة علينا».

أثارتها الذكريات وتابعت بحماس: «أتعرفين كيف كانت ستتغير حياتنا إذا كنا واصلنا الرقص؟! كنا سنرى المزيد من البشر، ونستمتع بمشاهدة المزيد من المناظر الطبيعية الخلابة، ونستمع للمزيد من الموسيقى الرائعة، ولكن...». وتنهدت وتابعت: «كل ذلك كان في الماضي البعيد».

ثم خيّم الصمت على الغرفة من جديد.

وبعد مدة سألتها لاو دو بصوت خفيض: «هل تعرفين إذن يا عمتي امرأة تدعى يين شياوخه؟ كانت ترقص الباليه أيضًا».

ظلت المرأة مشدوهة برهةً ثم قالت ببطء: «يين شياوخه؟ لا، لا أعرفها. لماذا تسألين عنها؟».

ألقت لاو دو نظرة على الدب النعسان في زاوية الغرفة، وقالت: «يريد أبي رؤيتها أعتقد أنها يمكنها مساعدته».

قالت أم تشونغ لي بتردد: «أليس أفضل شيء للمصاب بمرض التحول... أن يتناول الدواء؟».

ردت لاو دو على عجل كأنما تريد أن تقنع الطرف الآخر بكلامها قبل أن يقنعها بكلامه: «يتناول الدواء؟ ألم يقولوا إن هذا المرض ليس له علاج فعّال حتى الآن؟ ألا يقولون إن جميع الأدوية ما زالت في المرحلة التجريبية؟ في الحقيقة، إن أكثر ما أكره حينما أمرض أن أتناول الأدوية، وأكثر ما أرجو أن يكون أحدهم بجواري، وقد سمعت أن المصاب بمرض السرطان يمكن أن يشفى إذا رافق مَن يحب. ومن ثم فالمصاب بمرض التحول مثل أبي، سيتعافى سريعًا إذا كان برفقة أهله، صحيح؟».

راح تشونغ لي وأمه ينظر كل منهما إلى الآخر.

«ربما أنت على حق يا طفلتي، لكن هذه المدينة لا ترحب بالمصابين بمرض التحول».

«ألم يظهر هذا المرض في هذه المدينة قط؟».

ردت أم تشونغ لي بارتباك: «لا، لم يظهر... لم يظهر قط».

قالت لاو دو وبدت كأن هناك ما يشغل بالها: «ألا ترحب هذه المدينة بنا؟».

«ليس الأمر كذلك...».

أراد تشونغ لي أن يقول شيئًا، لكن أمه قبضت على يده.

وقبيل أن يغادرا، وعدتها أم تشونغ لي بأنها ستسأل لها عن يين شياوخه. وبعد ذلك قالت لها بكل أسف وتحسر: «لم يعد أحد يأتي إلى هنا منذ أن توقفنا عن الرقص».

«في مدينة تشيباي، حيث نعيش أنا والدب، الكثير من الناس يحب الباليه».

أرادت لاو دو بقولها هذا أن تواسيها وتخفف عنها، لكن على ما يبدو أن ما حدث هو العكس تمامًا.

«هنيئًا لكم إذن. للأسف لا أحد هنا يحب مشاهدة الرقص».

وتنهدت ثم قالت وهي تنظر إلى الدب بحنان واهتمام: «الأفضل ألا تخرجي به».

لم ترد لاو دو.

وبعد أن غادرا، استدارت لاو دو ونظرت إلى تشونغ لي وأمه اللذين يودعانها بنظراتهما، وقد شعرت أن كل الذين يعيشون في هذا المكان مثلهم مثل المدينة المغلفة دومًا بالضباب، غامضين وتعساء.

وبمجرد أن خرجا من الزقاق الذي يسكن فيه تشونغ لي، شعرت لاو دو فجأة بأن هناك رائحة غريبة في الجو.

كان هناك رجل عريض كمصراع الباب، وخصره سمين كالبرميل، وجبهته لامعة بزاقة كمرآة تعكس ما أمامها، يدندن وهو قادم من مكان ليس ببعيد فرحًا مرحًا.

ودون تفكير لا يسمح الوقت به، اختبأت لاو دو والدب سريعًا عند زاوية جدار.

«يا دجاج يا بط،

أحبكم جميعًا.

تعالوا في فمي،

سريعًا سريعًا.

يا خنازير يا إوز،

أحبكم جميعًا.

تعالوا إلى بطني،

سريعًا سريعًا».

كان غناؤه مضحكًا، إذ خرج عن النغم؛ فرغبت لاو دو في الضحك، لكنها خشت أن يعرف الرجل بوجودهما، فاضطرت إلى أن تكتم ضحكتها.

«يا دب! إنه ذلك الذي يُدعى: الكعكة المستديرة».

نظرت لاو دو إلى ذلك الرجل الذي يضع يده بجيبه كأنه سيخرج مالًا في أي وقت، وقالت: «ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل هي صدفة؟ أم لا يزال يفكر في فكرته الخبيثة تلك؟».

وحينما همت لاو دو بالمغادرة وهي حائرة مشوشة الفكر، كانت امرأة الحضض واقفة عند الباب في انتظارها لأخذ الإيجار اليومي وقد مدّت يديها اللتين صبغهما الحضض باللون الأسود.

أخرجت لاو دو كيس الجوارب وراحت تعد المال على مهل.

وبعد أن أخذت امرأة الحضض النقود، أدنت وجهها الذي ملأته الثنيات الطويلة من لاو دو وقالت لها بشماتة: «أيتها الجنية الصغيرة، منزلي ليس جمعية خيرية ولا مأوى، فلو أوشك ما معكِ من مال على النفاد، خذي دبّكِ وانصرفي من هنا في أقرب وقت».

أغلقت لاو دو كيس الجوارب وقالت بلهجة شديدة: «اطمئني. ما زال معي الكثير من المال».

«فعلًا؟ أنا أرى كيس نقودك قد ضمر كبالون فارغ وما مِن أحد ينفخه».

لقد لاحظت المرأة الأمر!

تنهد قلب لاو دو.

رمت امرأة الحضض في فمها ثمرة حضض وقالت للاو دو بلا أي مبالاة: «بالمناسبة، قبيل قليل جاء رجل يسأل عنكما».

توترت لاو دو دون سبب واضح، وسألتها: «مَن هو؟».

«رجل كالكرة، سألني إذا كنت رأيت فتاة على أنفها نمش ومعها دب بني كبير».

«وكيف... أجبته؟».

يبدو أن ذلك الكعكة المستديرة الوغد ما زال يشغل فكره بالدب!

ولما لاحظت امرأة الحضض توتر لاو دو، قالت وهي تضحك ضحكة خبيثة: «أنا... قلت: على أنفها نمش؟ هي بالتأكيد قبيحة الشكل؟ إذا قابلتها فلن أنساها بالطبع، لأنني أستمتع كثيرًا برؤية الفتيات القبيحات».

كانت تلك المرة الثانية التي يقال فيها للاو دو في وجهها إنها قبيحة! بلعت الإهانة مع لعابها، ثم قالت لامرأة الحضض: «يمكن أن تكوني أنتِ ومي ران ران صديقتين».

جحظت عينا امرأة الحضض، وسألتها: «مَن هي مي ران ران؟ ولماذا نكون صديقتين؟».

لم تستطع لاو دو أن تكبت ضحكتها وهي تقول: «إنها صديقتي! وهي أيضًا ترى أنني قبيحة».

«فهمت، هي أيضًا تحب السخرية».

«على أي حال، فشكرًا لكِ لأنكِ لم تخبري ذلك الرجل».

قالت امرأة الحضض: «لا داعي للشكر، فأنا لم أخبره لأنه لم يرق لي لا أكثر. واعلمي أيتها الجنية الصغيرة أن الذي لا يُظهر إلا الود والابتسامات العريضة لا يُضمر إلا شرًا»، ثم بصقت كل بقايا الحضض من فمها في راحة يدها.

«حسنًا، لن أنسى ذلك بالتأكيد، وبعد أن أعود إلى البيت سأسجل كلام جدتي في (الأقوال المأثورة)».

«أيتها العفريتة، لم لا تكفّين عن الضحك قط؟ لو كنت مكانك وأصحب دبًا معي لَفت حزنًا منذ زمن».

قالت لاو دو متبجحة: «وفيم يفيد الحزن؟ هل يحل المشكلات؟ هل ستتحسن الأمور إذا أصابني الهم؟ هل سيعود يين قه كما كان؟ لا شيء سوى البسمة يمكن أن تمدني بالقدرة اللازمة على الكفاح!».

وبعد أن غادرت امرأة الحضض، دفعت لاو دو باب الغرفة المتهالك؛ فرأت ورقة غريبة الشكل أسفل شق الباب.

13. المأزق والورطة

دعوة

يشرفني دعوة الآنسة لاو دو للقاء بها في الساعة الثانية بعد الظهر بالمقهى الواقع في 119 شارع يوقو، وعندي لها مفاجأة كبيرة جدًا جدًا جدًا.

صديق قديم

يوم التفاح، شهر القط، عام الدب

دعوة؟ من صديق قديم؟ في الحال وردت حبة القهوة والسمكة السوداء إلى ذهن لاو دو، ولكن كيف أتيا إلى هنا؟ وفضلًا عن ذلك، مَن يلقبها بالآنسة غير... ذلك الذي يشبه الكعكة المستديرة؟

«هو بالتأكيد ذلك الفأر الأعمى!» كوّرت لاو دو الورقة وألقت بها في سلة المهملات بدا الدب كأنه فهم ما يدور بذهن لاو دو، وهز رأسه لها.

دقت الساعة الثانية، ثم الثالثة، وفي الرابعة دق الباب.

شلم صبي سمين على عجل رسالة للاو دو، ثم انسلّ هاربًا كأرنب بري يلاحقه كلب صيد.

دعوة

أدعو الآنسة لاو دو بكل إلحاح أن تسرني بتشريفها الكريم والمؤكد في الساعة السادسة مساءً بالمقهى الواقع في 119 شارع يوقو، لتسمح لي بالتشاور معها في أمر ما، وعندي لها مفاجأة كبيرة جدًا جدًا جدًا.

صديق قديم

يوم التفاح، شهر القط، عام الدب

صديق قديم مرة أخرى؟ تُرى ماذا يريد ذلك الفأر الأعمى بالضبط؟ ألم تكفِه تلك الضربة التي أخذها؟ أم لديه حيلة جديدة الآن؟ جلست لاو دو تفكر مليًا في الأمر وهي تقضم أظافرها.

جاء الدب وأمسك بيدها وسحبها من فمها. هكذا كان يفعل يين قه في الماضي كلما كانت لاو دو تعض أظافرها.

ثم قالت له كما كان يقول لها: «خسئًا، أعرف أن هذا الفعل غير صحي، غير صحي قط، غير صحي إطلاقًا!».

فهم الدب، فرفع كفه الضخمة، وحك به جبين لاو دو برقة ولطف.

«أيًا كان ما يريد أن يفعل ذلك الكعكة المستديرة، فلا داعي لأن نخاف أليس كذلك يا دب؟».

هز الدب رأسه.

ولما رأى الكعكة المستديرة الذي لصق على أنفه لاصقة طبية لاو دو والدب، نهض بحماس، وقال: «لم أرك منذ عدة أيام يا آنسة لاو دو! يا إلهي، ما أشرق وجهك اليوم!» وقد كست وجهه ابتسامة تملق وهو يقول هذه الكلمات المعسولة التي لو صادفها الذباب لغص بها.

شبكت لاو دو ذراعيها أمام صدرها وسألته برأس مائل: «إذا لم تخني ذاكرتي، فنحن لم نتعرف أحدنا على الآخر في المرة السابقة. صحيح؟».

ذهل الكعكة المستديرة في البداية، وما لبث أن فهم ما تقصد، فضحك وقال: «سألت عن اسمك الكريم، ولم يكن ذلك بالأمر الهين. وعلاوة على ذلك، ألم ينادكِ السمكة السوداء باسمك أمامي؟».

هذا الذي يدعى السمكة السوداء لا يتوقف عن الكلام قط، وقد ظل يناديها باسمها عندما كانوا في قسم الشرطة. لاو دو في الحقيقة تشتاق إليه وإلى حبة القهوة قليلًا...

أتى نادل المقهى سريعًا عندما رأى دبًا بصحبة لاو دو، وقال: «آسف».

لوّح له الكعكة المستديرة بيده وقال: «هما صديقاي» وأخرج ورقتين نقديتين وأعطاهما له وقف النادل برهةً ينظر إلى لاو دو والدب في تردد وارتباك، ثم تراجع على مهل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأل الكعكة المستديرة بحفاوة واهتمام: «ماذا تشربان؟ ماذا تأكلان؟».

رصت لاو دو في نفس واحد قائمة طويلة قائلة: «آيس كريم بنكهة الفانيليا، وكعكة جبن، ومهلبية الصويا، وفطائر اللحم...».

سألها ثانيةً وهو يعطيها قائمة الحلويات متودّدًا: «هل تريدين شيئًا آخر؟».

«لم تدعني اليوم لأجل تناول الطعام فحسب. أليس كذلك؟».

«يا إلهي. أحب الفتيات الذكيات كثيرًا كثيرًا كثيرًا. نحن صديقان، فهو أمر طبيعي أن أدعوكِ. أنتِ والدب، لتناول وجبة طعام معًا وبالطبع يمكننا الحديث في أمور أخرى، مجرد دردشة، دردشة فقط».

«صديقان؟ إنْ لم تخني ذاكرتي، فالجرح الذي لا يزال على أنفك من صنع يدي!».

قهقه الرجل وقال: «سوء تفاهم، مجرد سوء تفاهم! وأنا لم أقترح انضمام الدب إلى السيرك إلا بدافع الخير المطلق».

«إنه أبي».

«نعم، نعم، أبوك لم يكن اقتراحي أن ينضم أبوكِ للسيرك إلا بدافع الاهتمام بمستقبلك ومستقبل الدب فكري في الأمر، يستحيل أن تعيشي حياتك كلها برفقة دب، إذ كيف تذهبين إلى المدرسة؟ وإلى العمل فيما بعد؟ وحتى الزواج والإنجاب وفضلًا عن ذلك، ماذا يمكن للدب أن يفعل وهو معك؟ لا شيء إطلاقًا غير الأكل والنوم لكنه إذا انضم للسيرك، فأنا بذلك لا أوفر له فرصة عمل يُظهر فيها قدراته كدبٍ فحسب، بل أيضًا سأدفع لكِ مبلغًا ليس قليلًا من المال، فلا يهمك مستقبلك إن السيرك الذي أديره هو الأفضل على مستوى الصين، لا، بل على مستوى العالم كله، وبه مروّضون ولاعبو أكروبات على أعلى مستوى، وبالطبع مدير على أعلى مستوى وسأخصص أمهر مروض ليعلمه اختراق الأطواق وقراءة الرموز وقيادة العجلة...» كان الكعكة المستديرة يتكلم ورذاذ لعابه يتطاير بكل اتجاه وحاجباه يرقصان طربًا وأطرافه ترقص فرحًا.

قالت لاو دو وهي تلتهم الحلويات: «لا، لن يذهب إلى السيرك!».

«آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، إياك ثم إياك أن ترفضي في الحال...».

قاطعته لاو دو: «سيظل معي دائمًا، أيًا كان الشكل الذي صار إليه، سيظل إلى آخر العمر أبي وكل أهلي!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمسك الكعكة المستديرة بيد لاو دو «بانفعال»، وقال: «آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، إن كلامك مؤثر يزلزل مشاعر الناس، خاصة أولئك ذوي القلوب الرحيمة مثلي، ويكاد قلبي يتقطع بعد سماع هذا الكلام ولكن اطمئني، فبمجرد أن تسلميني إياه، سأبذل كل ما بوسعي للعناية به ومساعدته».

قالت له لاو دو وهي تحاول إفلات يدها منه: «يُفترض أنك فهمت ما قلت، وشكرًا على ضيافتك الكريمة!».

ثم سألت الدب: «أشبعت يا دب؟».

وضع الدب الآيس كريم من يده، ورفعت لاو دو رأسها وقالت وهي تلوّح بيدها: «حسنًا إلى اللقاء يا سيد كعكة مستديرة الأعز من أعز الناس على قلبي».

«يا إلهي! أحب الفتاة حادة الطباع مثلك كثيرًا كثيرًا، فكري مرة أخرى، من أجلك، ومن أجل الدب، وأعضاء السيرك على استعداد للمكوث في هذه المدينة بضعة أيام، ويمكنك أن تأتي إليّ في أي وقت، ففارسك المخلص سيظل في انتظار أن تغيّري رأيك!» وبعد أن أنهى الكعكة المستديرة كلامه الناعم الزلق، انحنى أمام لاو دو بشدة في حركة زائفة مصطنعة.

وعندما سارت لاو دو والدب نحو الخارج، ركض الكعكة المستديرة نحوهما ثانيةً كبرميل خشبي.

اقترب الكعكة المستديرة من الدب، وقال ببسمة أشرقت وجهه: «سيدي الدب الأعز من أعز الناس على قلبي، أرحب بك أنت أيضًا في أي وقت، والسيرك ليس بعيدًا عن هنا، عند مخاضة النهر أمام دار الأيتام. أنا على يقين من أنك ستعرف مكانه، ومن أنك تفهم كلامي ولتعرف أنني أفهم المصاب بمرض التحول أكثر ما يفهمه الأطباء والخبراء».

تجشأت لاو دو من أعماقها في وجه الكعكة المستديرة، وفي وجهه أيضًا عطس الدب بقوة، ثم تركاه خلفهما واحدًا بعد الآخر.

نفد المال أسرع كثيرًا من المتوقع، وكاد كيس الجوارب يصبح خاويًا...

استلقت لاو دو والدب على عشب الحديقة وراحا ينظران إلى السماء المكفهرة. قالت لاو دو: «لا بأس. أليس كل الموضوع أن المال نفد؟ سنجد حلًا!».

خُيّل إلى لاو دو أنها سمعت صوت يين قه يقول لها: «نعم. أنا أثق في ابنتي».

وفجأة، ظهرت امرأة من بين الزهور المقابلة لهما، كما لو أنها سقطت لتوّها من القمر. قالت للاو دو: «أنتما هنا!».

أحست لاو دو أنها امرأة جميلة أنيقة على بساطتها، وسألتها: «مَن أنتِ؟».

قالت: «أنا ييِن شياوخه!».

جلست لاو دو بسرعة، وقالت: «ييِن شياوخه؟».

اكتشفت لاو دو أنها تشبهها كثيرًا! كانت كل منهما ذات وجه بيضاوي، وحاجبين كورق الصفصاف، وأنف صغير يعلوه نمش خفيف.

قالت لها لاو دو: «أنت إذن ييِن شياوخه! الدب يشتاق إليكِ كثيرًا».

سألتها المرأة بفضول: «الدب؟ مَن هو؟».

«ألا تعرفينه؟ هو ييِن قه!».

هزت المرأة رأسها معتذرةً وقالت: «ييِن قه؟ مَن ييِن قه؟ وكيف أعرف مريضًا بالتحول؟» ثم استدارت وغادرت... أرادت لاو دو أن تنهض وتلحق بها، لكنها شعرت كأن حبلًا يلتف حول قدميها، فأعجزها عن الحركة تمامًا. ظلت تحاول النهوض باستماتة وهي تنظر إلى ظل ييِن شياوخه يذهب بعيدًا، ثم استيقظت.

راحت لاو دو تفكر في الحلم الذي راودها لتوّها وهي تنظر إلى الدب الذي لا يزال غارقًا في النوم على العشب.

«سأجدها مهما كلفني الأمر» هكذا قالت لاو دو للدب، وهكذا عاهدت نفسها.

وحل وقت دفع إيجار الغرفة من جديد، لكن امرأة الحضض لم تظهر، وفي المساء، كانت امرأة عجوز تغطي وجهها بشاش أسود، وتقف بجوار السياج أمام الغرفة المتهالكة قالت بصوت خفيض للاو دو: «طلبت مني أن أخبرك أنها مشغولة هذه الأيام، فلا تنتظري قدومها».

سألتها لاو دو: «ماذا حدث لها؟».

قالت المرأة العجوز: «لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ! اعرفي أنها لن تأتي هذه الأيام وحسب» ثم خفضت رأسها، وغادرت سريعًا في خوف وقلق تنفست لاو دو الصعداء، فلولا ذلك ما عرفت كيف تتصرف في الأيام القادمة وقد صار كيس جواربها أجوف كالطبل. لكن هذه المرأة المسنة التي جاءت قبيل قليل بدت مألوفة للاو دو، إذ كانت تشبه امرأة الحضض إلى حد ما.

وفي اليوم التالي، جالت لاو دو في كل الشوارع ودقت على كل باب تسأل: «من فضلك، ألا يلزمك ساعٍ أو موصل طعام أو مساعد يرد على الهاتف أو ينظف الحمام؟» لكن الجميع تقريبًا ما إن يعرفوا أنها لاو دو حتى يغلقوا الباب في وجهها في الحال.

وقفت لاو دو في الطريق الرئيسي تعزف ربات المنزل بمهاراتها: «انظرن، لدي ذراعان عريضتان، وساقان متينتان، ويدان ماهرتان. وأقوم بجميع الأعمال المنزلية من تحضير طعام وشراء خضراوات، كما ذهبت في إحدى الإجازات لمساعدة أحد الجيران في رعاية أطفاله، فكنت أغني وأحكي القصص لهم. وبالإضافة إلى كل ذلك، فأنا يمكنني المساعدة في زرع النباتات وريها، فقد كنت أرعى الزهور في شرفة بيتنا حتى نمت وصارت رائعة، خاصة الأقحوان الأصفر الصغير، فقد كانت زهوره تتفتح حتى تغطي الأرض».

«لا... لا يلزمنا أي من ذلك» شعرت ربات المنزل كلهن بالارتباك والقلق من «ترويج» لاو دو نفسها هكذا، ولم يدرين ما يفعلن، فهرين سريعًا واحدة تلو الأخرى.

فهم الدب وأدرك كل ذلك، ولم يكف عن حك لاو دو برأسه والابتسام لها، كأنه يريد مواساتها، وقد كان يدلي رأسه أيضًا كأنما ضميره يؤنبه، فبدا حزينًا إلى أقصى حد.

قالت لاو دو للدب تريد أن تشجعه وتشجع نفسها كذلك: «اطمئن أيها الدب، سأجد بالتأكيد عملًا رائعًا يسد رمقنا كلينا أنسيت؟ حينما كُسر كاحلك ولزمك الراحة في الفراش ثلاثة أشهر، فكنت يوميًا أشتري الخضراوات وأحضر الطعام وأنظف البيت، أليس كذلك؟ وحينها أثنيت علي كثيرًا، وقلت إنني ربة البيت عن جدارة وأيضًا، ألم نذهب أنا ودينغ شياو دينغ ومي ران ران لبيع الجرائد والمثلجات؟ وكسبنا مبلغًا من المال وابتعنا لك به ماكينة حلاقة كهربائية وحينها قلت لي وأنت تحك أنفي بها إنني أستطيع فعل ذلك».

لكن لا أحد وافق على توفير «عمل رائع» للاو دو...

وقبيل الغروب، جاء جلباب أسود فضفاض يترنح وحيدًا باتجاه لاو دو في الشارع الرئيسي.

قالت لها امرأة الحضض بلا مبالاة وهي تمضغ ثمرة حضض: «سمعت أنكِ تطهين الطعام وتغسلين المواعين وتمسحين الأرضيات وتنظفين البيوت!».

لمعت عينا لاو دو، وقالت لها: «يمكنني مساعدتك في هذه الأمور».

«إنني كثيرة التدقيق فيما يخص الطعام، فلا آكل الطعام المحروق ولا المالح، ولا بد من أن تكون الأواني نظيفة، والأرضية لامعة، وأن يكون الماء داخل المرحاض نظيفًا لدرجة أن يمكنني

الغرغرة به، وأن تكون القدور بعد غسلها كالمرايا النحاسية».

قالت لاو دو على عجل: «لا مشكلة».

«حسنًا، اتفقنا أنتِ تساعدينني في هذه الأمور، وأنا أعطيكِ أجرتك، ثم تعيدينها إليّ مقابل الغرفة. وأنا أتعهد بتوفير ما يكفي من الطعام لكِ أنت والدب» وأخرجت امرأة الحضض منديلها، ومسحت بلا مبالاة آثار الحضض على طرفي فمها.

ولما رأت امرأة الحضض لاو دو مبتسمة فرحة، لوت شفتيها وقالت لها: «لا تفرحي هكذا، بعد قليل ستبكين من التعب» لكنها كانت تلوي شفتيها كرهًا إذ كان من الواضح جدًا أنها تريد الضحك.

«اطمئني، أعدك ألا أخذلك!».

«أتمنى ذلك».

لكن لاو دو فور أن دخلت بيت امرأة الحضض أصابها الذهول حقًا، إذ كان المطبخ واسعًا، والغرف واسعة، والشرفة كذلك كبيرة جدًا... وقد كان كل هذا المكان الواسع في غاية الفوضى، وبكل مكان ألقي قشر الفاكهة وقصاصات الورق.

«ابدئي العمل!».

أجابتها لاو دو بسرور: «حسنًا» وفي الحال شمرت عن ساعديها.

راحت لاو دو بكل رشاقة ودقة تمسح النوافذ والطاولات والأرضيات.

استلقت امرأة الحضض على كرسي خيزران تأكل ثمار الحضض على مهل.

«لقد اهتمت أمك بتربيتك كثيرًا».

«ليس لديّ أم».

«خرجتِ إذن من بين شقي صخرة؟».

«لم أرها من قبل!».

«أوه! هذا أسوأ شيء في العالم حقًا!».

«ومَن قال غير ذلك!».

قالت امرأة الحضض ومن فمها تخرج رائحة الحضض العطرة الخفيفة: «في الواقع، التعبير السليم هو أنكِ لا تتذكرينها، صحيح؟ فهذه المرأة الخبيثة بالتأكيد قد لمستك وقبلتك وعانقتك وأرضعتك».

«حقًا؟»

«بالطبع! لم أرَ في حياتي امرأة لم تحب طفلها!».

«لقد ذهبت لمكان بعيد جدًا، لكنها تحبك كثيرا» هكذا كان يين قه يقول لها في صغرها، وبعدما كبرت قليلًا، كان يجيبها حينما تسأله عنها قائلًا: «هي في مكان بعيد للغاية، ولن تستطيع العودة إلى البيت الآن».

لطالما كانت يين شياوخه في حديث يين قه امرأة رقيقة طيبة وجميلة ولكن سؤال «لماذا تركتنا؟» لم يكن يفارق ذهن لاو دو في تلك الليالي التي يجافيها النوم فيها. لقد بحثت لاو دو لأجلها عن الكثير والكثير من الأعذار، مثلًا أن يين قه فقير، أو أنها أحبت رجلًا آخر، أو أنها أرادت أن تحيا حياة أخرى... ولكن آلاف الأعذار والأسباب لا أهمية لها، فالمهم هو أنها لم تعد تريدهما. وقد تقبلت لاو دو هذا الأمر منذ زمن طويل. لكن الحقيقة ربما ليست كذلك؟ ظلت لاو دو تفكر حتى ذهبت إلى عالم آخر.

في تلك الليلة، عادت لاو دو في وقت متأخر للغاية من بيت امرأة الحضض منهكةً تتألم لم تعرف أنها حينما فتحت الباب، فغر الدب -الذي كان راقدًا على الأرض- عينيه في الحال، كما لم تعرف أنه حين غطت في النوم، ظل واقفًا زمنًا طويلًا أمام فراشها ينظر إليها.

لم يراود لاو دو أي حلم طوال تلك الليلة، فنامت نومًا هنيئًا عميقًا، وحينما استيقظت، لم يكن للدب أثر!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

14. الاتفاق بين الكعكة المستديرة والدب

خيمة ضخمة تجمع بين اللونين الأصفر والأزرق تنتصب شامخة باهرة كقصر كبير على مخاضة النهر بمكان ليس ببعيد عن دار الأيتام... كان ضباب الفجر كثيفًا، وقد امتد صوت الغناء الطربي على طول مياه النهر التي لا تهدأ ولا تنتهي.

وقفت لاو دو أمام «القصر الضخم» وخرج أحدهم وابتسم لها. هل هو يين قه؟ كانت تلك البسمة المشرقة كشمس دافئة في الشتاء.

صاح يين قه: «لاو دو!».

«أبي! هو أنت حقًا؟».

فتح يين قه ذراعيه ليعانقها وهو يقول: «ماذا بك؟ ألا تعرفين أباك؟ كنت أعرف أنكِ فتاة ذكية، وأنكِ ستأتين للبحث عني هنا».

مدت لاو دو ذراعيها كذلك، لكن أنى يكون الواقف أمامها هو يين قه، فقد كان -بلا شك- الكعكة المستديرة!

سألها الكعكة المستديرة بكل سرور: «ألم تعرفي صديقك القديم؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سحبت لاو دو ذراعيها، وسألته: «هل الدب عندك هنا؟».

وقف الكعكة المستديرة يفرك كفيه ليدفئ نفسه، وقال متعمدًا تغيير الموضوع: «هل الصيف هنا أيضًا بارد لأن السحاب يحجب أشعة الشمس طول اليوم؟».

«الدب هنا، أليس كذلك؟ أريد أن أراه!».

«آه يا صديقتي الأعز من أعز الناس على قلبي، الجو هنا بارد حقًا لا أعرف إنْ كان بإمكانك تشريفي بدعوتك لشرب كوب شاي؟» وقبل أن ترد لاو دو عليه انحنى وبسط ذراعه لها أن «تفضّلي».

لم تر لاو دو سيركًا من قبل، إلا في الأفلام السينمائية وأفلام الصور المتحركة وكانت تظن أن السيرك يضج بقرع الطبول والصنوج التي تصم الآذان، وعواء الحيوانات وزعيقها، أو يغص طوال الوقت بأصوات مروضي الوحوش يسبون ويضربون المساكين. وعلى غير ما توقعت،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبعدما دخلت خيمة الكعكة المستديرة اكتشفت أنها عالم آخر، فقد كانت هناك حواجز جميلة تقسمها إلى غرف لا يحصى عددها، وكان كل ركن فيها يعمه الهدوء، فبدت كقصر حقيقي.

«اسمحي لي يا صديقتي الأعز من أعز الناس على قلبي أن أسألك، هل تفضلين الشاي بالحليب ذي النكهة الغنية أم القهوة ذات الطعم الرائع؟ هل تفضلين العصير اللذيذ أم الحساء المنعش؟ أوه، تذكرت، لدي هنا أيضًا الشوكولاتة والحلويات اللينة بطعم الفواكه التي تفضلها الفتيات الصغيرات كثيرًا كثيرًا»...

قاطعته قائلة: «شاي بالحليب!».

لم تتوقع لاو دو أن غرفة هذا الذي يُدعى الكعكة المستديرة مجهزة بكل شيء، فلديه تلفزيون ومكبرات صوت وكتب، وقد لصق على الحاجز مختلف الصور التذكارية التي تجمعه بالحيوانات والنجوم. قالت لاو دو لنفسها إن هذا الرجل يبدو شغوفًا بعمله للغاية.

صب الكعكة المستديرة وهو رافع بنصره كوب شاي بالحليب يتصاعد منه البخار الساخن، وقال: «آنستي العزيزة، وضعت لكِ خصيصًا المزيد من السكر، إذ سمعت أن الطعام الحلو قادر دومًا على تدفئة قلوبنا».

«أين الدب؟». لم تدر لاو دو إلى أين يمكن للدب أن يذهب سوى السيرك. قد يكون بالطبع ذهب إلى دار الأيتام، لكن حدسها يقول لها إنه بالتأكيد في السيرك!

«آه يا آنستي العزيزة، هل تعرفين أنني في ذلك اليوم الذي تناولنا فيه الطعام معًا قابلت امرأة عجوزًا تحب أكل الحضض الهندي. خمني ماذا قالت لي!».

قالت لاو دو بوجه متجهم: «لن أخمن!».

قالت: (أيها الخبيث، لا تقترب من تلك الفتاة اللطيفة) هاه هاه، لكن ملامحها كانت مضحكة للغاية، إذ بدت كأنها ستلتهمني لم يخطر على بالي حقًا أن هناك مَن يهتم لصديقتي القديمة، لذلك مسكت يدها بسرعة، وعبرت لها عن امتناني لكن الواضح أنها بغضتني، هاه هاه». وظل يقهقه عاليًا.

«أريد البحث عن الدب».

رفعت لاو دو رأسها وابتلعت كوب الشاي بالحليب بالكامل، ثم أخذت من فوق مكتب الكعكة المستديرة منديله الحريري الجميل والنظيف تمامًا ومسحت به فمها.

«ما رأيك في الشاي بالحليب الذي أعده؟».

قالت لاو دو: «دعك من اللف والدوران من فضلك... لم آتِ إلى هنا لأشرب الشاي الذي تعده، ولست في مزاج يسمح لي بتقييم مهاراتك في الطهي، بل جئت بحثًا عن الدب أبي!».

قال: «يا إلهي، كم أحب الفتيات الصريحات مثلك»، وراح يصفق وعلى وجهه بسمة عريضة، وتابع: «حسنًا، بما أنك صريحة هكذا، فلن أتظاهر أنا بعدم الفهم».

أخرج الكعكة المستديرة من درج مكتبه ظرفًا سميكًا، ودفع به إلى لاو دو، وقال: «لقد أعددت للأمر عدته. كنت أنوي الذهاب بنفسي إليك لأسلمك إياه، ولكنك تكرمت بالحضور أولًا».

«ما هذا؟».

«أوراق نقدية، جديدة تمامًا، وتفوح منها رائحة صمغ الصنوبر، وتحمل معها أصدق مشاعري».

لم ترد لاو دو مواصلة هذا الكلام الفارغ، وقالت له: «أريد أن أرى الدب».

قال الكعكة المستديرة ضاحكًا مسرورًا وهو يمد يده ليمنعها من الدخول: «آنستي لاو دو الأعز من أعز الناس إلى قلبي، ألم تفهمي بعد؟».

«ماذا أفهم؟».

«أن الدب قد باع نفسه لي، باع نفسه للسيرك!».

«مستحيل!».

قال الكعكة المستديرة، دون أن يتوقع أن الدب سيدخل عليهما في اللحظة نفسها: «هل تعرفين؟ لم أكن في يوم قادرًا على رفض طلب أحد، وخاصة إذا كان الطالب دبًا، لذلك اضطررت إلى الموافقة».

«إنه لا يتكلم!».

«نعم، بالطبع، فهو لم يطلب مني بالكلام، لكنني أتمكن من فهم مراد المصاب بالتحول مثلما أتمكن من فتح غطاء الزجاجة، بالسهولة نفسها ولا تنسي أنني أفهمهم أكثر من المتخصصين».

«أنا لا أصدقك!».

«بالطبع، بالطبع... مجرد الكلام لا يعد دليلًا، لذلك وقعنا اتفاقًا».

قالت لاو دو وقد أصابها الذهول: «اتفاقًا؟».

قال الكعكة المستديرة: «نعم، فلتلقِ نظرة إن شئت» وأعطى لاو دو والفرحة تغمره ورقة لا تزال تفوح منها رائحة الحبر.

اتفاق

الطرف الأول: السيد الدب

الطرف الثاني: المدير الكعكة المستديرة

محتوى الاتفاق:

1. بدءًا من اليوم يصبح الدب رسميًا أحد أعضاء «سيرك الكعكة المستديرة».

2. يتعهد الطرف الثاني بتوفير كل شيء للطرف الأول، ويضمن له متعة لا محدودة في المرحلة الثانية من حياته.

3. يدفع الطرف الثاني للطرف الأول مبلغ 50 ألف ورقة نقدية تعبيرًا عن شكره للطرف الأول على الانضمام إلى السيرك.

4. إذا خالف الطرف الأول الاتفاق، يدفع للطرف الثاني تعويضًا قدره ثلاثة أضعاف هذا المبلغ.

الطرف الأول: &&

الطرف الثاني: الكعكة المستديرة

يوم الفراولة، شهر القط، عام الدب

وقف الكعكة المستديرة يشرح للاو دو ووجهه يتهلل سرورًا: «أرأيتِ؟ ما أسعد حظ الدب إذ وافق توقيع الاتفاق (عام الدب) لدى السيرك، فما معنى هذا؟ معناه أننا سنركز في هذا العام على تدريب الدببة، ونوفر لهم أفضل مسرح يعرضون عليه أفضل ما لديهم، ليصبحوا ألمع من ألمع النجوم في عالم الحيوانات، لا، بل في عالم السيرك كله!».

قبضت لاو دو على ورقة الاتفاق وهي تقول: «أريد أن أرى الدب!».

«آنستي الأعز من أعز الناس إلى قلبي، هل أدركتِ مَن الطرف الأول في هذا الاتفاق؟ إنه الدب! هذا يعني أنني أحترمه وأبجله كثيرًا».

نظرت لاو دو بطرفي عينيها إلى الكعكة المستديرة وهي تقول بنبرة مستهزئة: «فعلًا؟!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسنًا، حسنًا. آنستي الأعز من أعز الناس إلى قلبي، فلتعدّي مرة أخرى الأصفار بعد رقم (5)».

قالت لاو دو فجأة بحزم وصرامة: «هذا الاتفاق باطل!».

«يا إلهي! ألم تنامي جيدًا بالأمس آنستي العزيزة؟».

«كيف ذلك؟ لقد نمت بالأمس نومة هنيئة».

قال لها الكعكة المستديرة بحقد مرير: «إذن فأنتِ الآن بكامل وعيك؟ على هذا الحال لا ينبغي لكِ يا آنستي العزيزة أن تتفوهي بكلام أحمق!».

«لم أقل كلمة حمقاء! على حد علمي، يجب أن يتم الاتفاق بين شخصين».

صفق الكعكة المستديرة وهو يقول: «كلامك صحيح تمامًا تمامًا يا آنستي، والمصاب بمرض التحول هو مجرد مريض، سواء تحول إلى دب أو إلى قط، فما تغير هو الشكل الخارجي فحسب، لكنه ما زال إنسانًا من حيث المبدأ، وأصيب بمرض مؤقت، فأصبح كمريض يعجز عن النهوض من الفراش، أم أنكِ تقولين إنه ليس إنسانًا؟ يمكن فقط القول إنه إنسان غير طبيعي، لكنه ما زال إنسانًا، أليس كذلك؟ ومن ثم فإن دبك إنسان، صحيح؟».

ولاو دو في هذه النقطة تتفق معه تمامًا!

«ألا توافقينني الرأي يا آنستي؟ أنتِ بالتأكيد تتفقين معي وإلا لما ظللت تقولين إنه أبوك! أرأيتِ؟ نحن متفاهمان إلى حد كبير، لذلك أرجوكِ أن تتركيه لي وأنتِ مطمئنة، وأنا على يقين أنه لا أحد في هذا العالم يفهم المريض بالتحول مثلما أفهمه أنا، وما من أحد يمكنه أن يوفر له دعمًا أفضل، وما من أحد غيري يمكنه أن يساعده على كسب المجد والتألق في عمله، وما من أحد غيري يمكنه أن يوفر له مسرحًا مشرقًا يبهر الناظرين، وما من أحد غيري...».

كان الرذاذ يتطاير من فم الكعكة المستديرة ليتساقط بجنون على وجه لاو دو ويديها وملابسها، وذلك الناب البارز من فمه قد جعله أشبه بالخُلد.

عضت لاو دو شفتها وفكرت قليلًا ثم قالت فجأة: «حسنًا. أنا أيضًا أرغب في الانضمام».

ذُهل الكعكة المستديرة أول الأمر، ثم صفق وقهقه عاليًا وهو يقول: «ممتازًا ممتازًا أحب الفتيات الصريحات كثيرًا كثيرًا، فهن يتمتعن بجرأة وشجاعة!».

وعلى الفور أمسك الكعكة المستديرة ورقة وقلمًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت له لاو دو: «لا، لا داعي لأن توقع معي اتفاقًا، فما عليك إلا أن تتعهد بتوفير الطعام والسكن لي يوميًا».

قال الكعكة المستديرة: «رائع! اتفقنا!» ومد يده بتأثر بالغ، ولكن لحسن حظ لاو دو أنها هذه المرة وضعت يديها في الحال على ظهرها.

أخذ الكعكة المستديرة لاو دو لترى الدب وهو مفعم بالفرح.

خرجا من الغرفة وسارا حول غرف صغيرة لا يحصى عددها كالنجوم في السماء، ثم اجتازا سجادة حمراء إلى أن وصلا إلى خلف «القصر»، ثم عبرا بابًا فرأيا تلك الغابة الموجودة خلف دار الأيتام.

كان المروّضون يعلمون الأسود الغناء ويعلمون النمور الرقص ويعلمون الراكون ضرب الكرة بالرأس ويعلمون الكلاب ركوب العجلات.

سأل الكعكة المستديرة لاو دو بزهو وفخر: «انظري، أليس السيرك الذي أديره يختلف عن غيره تمامًا؟».

لم ترد لاو دو.

«اطمئني، فما دمت أنتِ والدب معي، فلن يلحق بكم أي ضرر قط! كلاكما ستتألقان على مسرحي!».

«أتمنى ذلك».

مالت لاو دو رأسها وراحت تفكر، ربما لا بأس بحياتها هي والدب في هذا المكان، لكنها كانت تتوق للعودة إلى الماضي، إلى القراءة والدراسة والتنزه في الشوارع والطهي والصخب ومشاهدة شروق الشمس والسفر مع يين قه...

أشار الكعكة المستديرة بسبابته وقال: «أوه! انظري! ها هو نجمنا المستقبلي».

كان الدب الحزين جالسًا أسفل شجرة.

«يا دب!».

وفي لحظة تهلل قلب لاو دو المثقل بالهموم فرحًا.

التمعت عينا الدب المظلمتان حالما رأى لاو دو، لكنهما ما لبثتا أن عادتا إلى ظلامهما، كأنما

شهاب مر مرورًا خاطفًا عبر عالمه.

قالت لاو دو: «اسمح لي يا سيد كعكة مستديرة أن أنفرد بالدب بعض الوقت».

«بالطبع، بالطبع سأبذل قصارى جهدي لتنفيذ كل طلباتكما، فقط لا تنسي أنكِ الآن عضو من أعضاء السيرك، وأريد أن تمثلي دور المهرج في العرض الذي نقيمه بعد يومين».

«لك ما تريد يا سيدي».

«ممتاز! أحب الفتيات الذكيات العاقلات كثيرًا كثيرًا كثيرًا».

أصبحت عينا الدب الصافيتان مشدوهتين حائرتين.

رفعت لاو دو رأسها تنظر للدب وتقول له: «دبي العزيز، ما سمعته صحيح، لقد قررت أن أبقى للعمل هنا مهرجًا. أنت تركتني لئلا تتسبب في شقائي، أليس كذلك؟ غبي! ألا تريد البحث عن يين شياوخه؟ هل أنت على استعداد حقًا لأن تكون (دبًا) في السيرك طوال حياتك؟ لا، كلانا يرجو العودة إلى الماضي، صحيح؟ اطمئن، أنا معك، وسأحميك طوال العمر، وبالتأكيد سأجد طريقة نغادر بها هذا المكان يومًا ما للبحث عن يين شياوخه، والعودة إلى تشيباي، وتعود كما كنت مصممًا، وأعود أنا للدراسة، ونخرج لتناول الطعام السريع ومشاهدة الأفلام في السينما في اليوم الثامن عشر من كل شهر كما كنا نفعل...».

نهض الدب فجأة؛ فظلت لاو دو تنظر إليه متعجبة، لكنه لم يتكلم، وضمّ لاو دو النحيفة بين ذراعيه بلطف ورقة.

ضحكت لاو دو، ومدت هي الأخرى ذراعيها الرفيعتين وعانقت الدب بقوة، وقالت له: «هذه أول مرة تعانقني فيها يا دب، حالك يتحسن شيئًا فشيئًا، صحيح؟ أنا على يقين من أنك ستتعافى تمامًا تمامًا في وقت قصير جدًا جدًا، أليس كذلك؟».

لم يرد الدب، ثم أبعدها عنه بخفة وأشار باتجاه مدينة يوقو.

«أتقصد أنك تريد مغادرتي السيرك؟».

هز الدب رأسه.

قالت له لاو دو محاولة اختلاق أسباب لبقائها معه: «لا، سأظل معك هل تذكر يا دب القصة التي قصصتها عليّ فيما مضى؟ قلت إن صبيًا أخبر والدته أنه يرغب في العمل مهرجًا بعدما يكبر، فقالت له أمه: (جميل، فأنت بذلك ستدخل البهجة للقلوب) وحينها قلت لك إنني أيضًا أود

أن أكون مهرجًا بعد أن أكبر، فقلت لي: (حسنًا، ولكن لا تجعليني أضحك حتى البكاء). ما قلته حينها كان حقيقيًا، فأنا بالفعل أريد أن أكون مهرجًا. منذ صغري لا أفعل أي شيء كما ينبغي، فإذا رسمت انتقد المعلمون رسمي، وإذا رقصت قالوا إن ساقيّ متصلبتان، وإذا غنيت قال زملائي إن صوتي تلوث سمعي... إنني لا أفعل شيئًا جيدًا كقص القصص، فأنا أستطيع إضحاك الآخرين، ومع أنني أرغب في أن أبكيهم، لكن الجميع يشعر بسعادة تفوق سعادته بالفوز بجائزة. أترى؟ لديّ موهبة العمل مهرجًا فعلًا، وربما أصبح نجمة مشهورة في هذا المكان...».

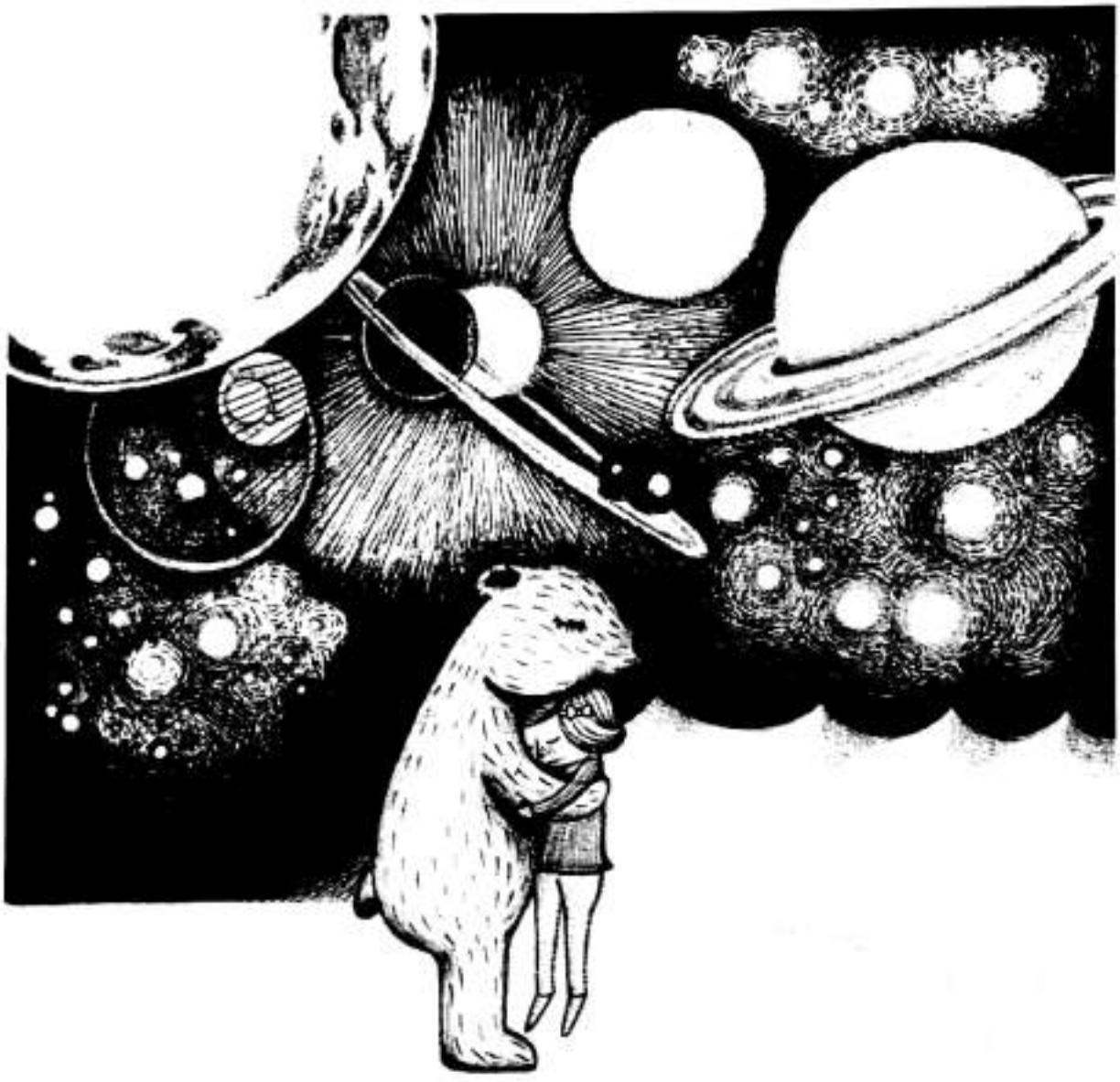

اغرورقت عينا الدب بالدموع.

«كف عن ذلك يا دب، ما دمنا معًا، لن تسوء الأمور إلى ذلك الحد».

وفي هذه اللحظة، أقبل عليهما مروّض يضع قناع دب، وقال بنبرة ناعمة حلوة كالعسل: «فتاتي الحبيبة، آسف، علينا بدء العمل، وأنت كذلك يجب أن تذهبي للتدريب».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا للهول، إنه صوت تلك الفتاة الجميلة التي كانت بالقطار!

أزاحت المروضة قناعها وقالت مقهقهة: «فتاتي الحبيبة، لا تندهشي هكذا. قلت لكِ من قبل إنكِ لن تخسري أبدًا مع السيد الكعكة المستديرة».

إنها بالفعل تلك الفتاة التي كانت تحاول فتح الحوار مع لاو دو في القطار!

انحنت المروضة لتقترب من لاو دو وواصلت حديثها وقهقهتها: «نسيت أن أخبرك، إذا أراد مديرنا شيئًا، لا يستطيع أحد الفكاك من بين يديه. هاه هاه هاه».

ردت لاو دو اعتراضًا: «لقد جاء الدب بمحض إرادته!».

«النتيجة واحدة في النهاية، أليست كذلك؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا صحيح وقد شعرت لاو دو ببعض الأسف لذلك، وقد زاد شعورها هذا حينما تذكرت أن السمكة السوداء قد ضُرب بضع لكمات بسبب ذلك.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

15. المهرج في السيرك

«إن الأهم من أهم شيء في العمل مهرجًا هو امتلاك قلب سعيد، عليك تحويل كل حزنك إلى قوة للضحك، حتى تتمكني من نقل الفرح والبهجة للآخرين...».

كان الذي «يدرّب» لاو دو هو الكعكة المستديرة شخصيًا! لقد مزج جميع الألوان ببراعة، ورسم حول فمها وعينيها خطوطًا بيضاء عريضة للغاية، وطلا جبهتها وخديها بمختلف الألوان، وفي النهاية لصق على أنفها كرة حمراء دائرية كبيرة جدًا.

مال الكعكة المستديرة برأسه على كتفه، وقال للاو دو والزهو والإعجاب بـ «تحفته الفنية» يملأن صدره: «صديقتي الأعز من أعز الناس إلى قلبي، شكلك هذا يبهر الناظرين حقًا!».

يمكن القول إن لاو دو كانت راضية عن شكلها الجديد، وبعدما ارتدت القبعة الملونة، وانتعلت حذاءً كبيرًا للغاية، ولبست سروالًا يسع إنسانًا بكامل جسده داخله وملابس زاهية بالألوان، ضحكت هي نفسها على نفسها حينما نظرت في المرآة. وقد شعرت ببعض الأسف لأنه لا سبيل لدينغ شياو دينغ ومي ران ران وغيرهما من زملائها وأيضًا أساتذتها لرؤيتها بهذا الشكل المضحك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الكعكة المستديرة: «المشي على طوالتين (ساقين خشبيتين طويلتين) أم رمي الكرة في الهواء أم القفز بالحبال؟ اختاري».

تعرف لاو دو المشي على طوالتين ورمي الكرة، لكنها لا تعرف القفز بالحبال.

«يُثبت زنبرك في الحذاء، وتقفزين، يحب الأطفال مشاهدة هذا العرض كثيرًا».

قالت لاو دو: «أنا أيضًا أحب مشاهدته».

أعطاها الكعكة المستديرة حذاء زنبركيًا، وتدربت لاو دو بجدية، على أمل أن تُدخل البهجة على قلب الدب حينما يشاهدها.

تدربت لاو دو أيضًا على رمي الكرة وكانت فيما مضى تحب اللعب مع دينغ شياو دينغ فيرمي كل منهما كرة تنس الطاولة في الهواء، ثم يلقفانها، ثم يرميانها مرة أخرى، وهكذا وأحيانًا لا تتوافر الكرات، فيلعبان بحبات الفول، وقد راجت هذه اللعبة بين جميع زملائهما في الفصل

بفضل حماسهما هذا، ولكنهم كانوا يحبون التقاط الفول بأفواههم لا بأياديهم... شعرت لاو دو بغصة في حلقها وهي تسترجع ذكريات تلك الأيام الغابرة.

تعترف لاو دو بأن الكعكة المستديرة كفء إلى حد ما، فهو على الأقل قد جعل السيرك أحلى كثيرًا مما قرأت عنه لاو دو في الكتب أو شاهدته في التلفاز، وجميع المروضين يضعون أقنعة أو يلونون وجوههم بألوان ثقيلة، كأنهم جاهزون لاعتلاء المسرح في كل وقت، وعروض جميع ممثلي أشكال الحيوانات تبدو بارعة للغاية، فممثلًا حركة ممثل القرد وهو يدخن التبغ تبدو رشيقة متقنة، ويبدو ممثل النمر وهو يرقص على الموسيقى كأنه ممثل راقص بالفطرة، ويبدو ممثل البط الذي يحسب الأرقام وهو يضع النظارات كطفل يحب الحساب... وما أثار حيرة أكبر لدى لاو دو هو أنها وجدت أسدًا يرمقها بنظرات غريبة، وقطة قفزت بغتةً على كتفها وشتمتها.

شعرت لاو دو بأنها دخلت فجأة عالمًا طفوليًا جميلًا، لا، بل هو عالم غريب عجيب وحينما رأت الدب ماهزا في تفريش الأسنان واختراق الأطواق الملونة ومسك القلم والكتابة، وغى عقلها المضطرب فجأة... شعرت لاو دو بأن الحيوانات في هذا المكان جميعًا ربما مصابون بمرض التحول! وأولئك المروضون... فجأة ارتعدت لاو دو خوفًا وهلعًا.

لم تقدر لاو دو على مواصلة التفكير في الأمر وسمعت صوت أطفال يلعبون يأتي من دار الأيتام.

اعترض الكعكة المستديرة طريق لاو دو التي كانت على وشك الذهاب لدار الأيتام، وقال لها باستخفاف مبتسمًا: «آنستي الأعز من أعز الناس على قلبي، هل أفهم من ذلك أنكِ تريدين تقديم عرض في دار الأيتام؟»

سألته لاو دو: «سيدي، هل تقصد أنني لا يمكنني الذهاب إلى هناك؟».

«يمكنك الذهاب بالطبع، ولكن...».

وبقوة داست لاو دو بقدميها في زوجي الحذاء الزنبركي وانسلّت من جانب الكعكة المستديرة سريعًا وهي تقول له: «أليس كذلك؟».

صاح الكعكة المستديرة بأعلى صوته نحوها: «يا آنسة، أنتِ ممثلة في السيرك».

«اطمئن، سأعود!».

ذهل الأطفال عند رؤية لاو دو بهذا الحذاء الزنبركي الذي قفزت به قفزة تلو أخرى حتى وصلت دار الأيتام، ولكنهم بعد ذلك التفوا جميعًا حولها بفرح وحماس.

قالت لاو دو للو جيانغ: «قد جئت إلى هنا من قبل».

عرفت لوجيانغ مديرة الدار لاو دو، ونظرت لشكلها بلباس المهرج وقالت: «ما هذا الذي تلبسين؟ وأين الدب؟».

«ذهبنا معًا إلى السيرك».

«ماذا؟».

كان من الواضح أن ذلك فاق توقعات مديرة دار الأيتام تمامًا.

ابتسمت لاو دو بسمة ملأت وجهها وقالت برقة: «مرحبًا بكِ أنت وجميع مَن هنا في أي وقت لمشاهدة عروضنا».

راح الأطفال يصيحون بحماس: «اضحكي يا بلياتشو! اضحكي يا بلياتشو!» ولهذا صارت لاو دو تضحك، حتى صار شكلها بذلك الأنف الكبير وقبعة المهرج المدببة مضحكًا بالفعل.

لوجيانغ وحدها لم تضحك، بل عادت لمكتبها، ثم خرجت وفي يدها ملف لونه أصفر باهت.

«بعدما غادرتما في ذلك اليوم، أخبرني الجد خوا البستاني باسم والدك، فعدت أقلّب في الملفات القديمة».

رفعت لوجيانغ النظارة من فوق أنفها، وراحت تنظر بشفقة إلى الفتاة الواقفة أمامها، كان المكتوب على الصفحة الأمامية من الملف اسم «يين قه».

فتحت لاو دو الملف على مهل. كانت بداخله صورة يين قه وهو رضيع، وتقرير صحي له وما شابه ذلك، فضلًا عن ورقة كُتبت بخط اليد.

قالت لوجيانغ: «هذه الورقة كتبها مدير دار الأيتام السابق لكل طفل هنا».

فتحت لاو دو الورقة وراحت تقرأ المكتوب:

حينما مرِض يين قه وهو بعمر السنتين والثلاثة أشهر مرضًا شديدًا، رماه أحدهم أمام دار الأيتام. هذا الطفل يسمي نفسه «مويي»، وهو انعزالي وانطوائي، ويقضم أظافره بين حين وآخر، وظهرت عليه أعراض التوحد ولأنه ظل عامًا كاملًا دون أن ينبس بكلمة، ظنوا أنه أبكم وفي الخامسة من عمره، دخلت الطفلة يين شياوخه دار الأيتام، وبفضلها بدأت تتغير شخصيته ويصير منفتحًا شيئًا فشيئًا.

يين شياوخه فتاة طيبة وجميلة، ويحب مويي البقاء معها لاحقًا، وبفضلها، صار مويي يحب حتى الرسم. وفي الثانية عشرة من عمره، غيّر اسمه ليكون يين قه. وكان متفوقًا في دراسته، وبعدما دخل الجامعة، عاد هو ويين شياوخه إلى الدار عدة مرات لزيارة إخوانهما الصغار. لكن اتصالهما بالدار انقطع بعد ذلك ولا أعرف السبب، تقريبًا ذهبا إلى مكان ما للعيش معًا في سعادة، أتمنى لهما السعادة من قلبي!

سونغ ييِنغ

شعرت لاو دو ببعض الأسف وخيبة الرجاء، كانت تلك أول مرة ترى فيها اسم يين شياوخه مكتوبًا مع اسم يين قه، لكنها لم تتوقع أن تجد في ذكرى أحدهم القصيرة أن يين شياوخه لها مثل هذه الأهمية في حياة يين قه!

كان بدار الأيتام ملف يين قه فقط، ولم يكن ليين شياوخه ملف.

قالت لوجيانغ: «ملف يين شياوخه أخذه أحدهم تقريبًا» لكن مَن قد يأخذ ملفها، وما شكل يين شياوخه هذه؟ هل تشبه من رأتها في أحلامها؟ هل أحبتها وأحبت يين قه في يوم؟ لم يكن بالملف أي دليل على مكان يين شياوخه، ما شوّش ذهن لاو دو أكثر.

سلمت لاو دو الملف للوجيانغ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت لها لوجيانغ: «اعتني بدبك».

هزت لاو دو رأسها.

كان البستاني جالسًا أسفل شجرة تفاح شرقي، ولما رأى لاو دو لوّح لها بإحدى يديه.

«كيف حال دبك؟ هل هو بخير؟».

«لا بأس به».

«لا تتجولي به داخل المدينة!».

«أنا وهو الآن في السيرك».

بدا البستاني كأنما يفكر في شيء ما، لكنه سرعان ما تمتم: «هذا أفضل شيء».

هزت لاو دو رأسها بلياقة، وراحت تثب بحذائها الزنبركي إلى أن خرجت من دار الأيتام. لكن البستاني في هذا الحين لحقها سريعًا.

وعند الشفق، اخترقت أشعة الشمس الغاربة سطح المياه الصافية، وقبّلت كل صخرة قابعة في هدوء أسفله.

ما إن رأى الكعكة المستديرة لاو دو عائدة حتى أقبل عليها راكضًا وقال لها بابتسامة تغطي ملامحه كلها: «آنستي الأعز من أعز الناس إلى قلبي، هل كانت رحلتك سعيدة؟».

قالت لاو دو ساخرة: «لا داعي لأن تنتظرني هنا، فأنا لن أهرب».

«يا إلهي! يا إلهي! من أين لكِ بهذا التفكير؟ أفعل ذلك انطلاقًا من اهتمامي بك، فأريد أن أعرف أن طفلتي التي أحبها كثيرًا جدًا جدًا قد سعدت بخلق فرح لا حد له للأطفال، فلا تسيئي فهمي أبدًا أبدًا» ثم فجأة وهو يتكلم دنا من أذن لاو دو كأنه سيقول سرًا: «تذكرت! ادخلي للدب، لقد أهداني اليوم هدية كبيرة، وفاجأني مفاجأة كبرى!».

«حقًا؟» اضطرب قلب لاو دو في الحال، إذ ماذا تعني الهدية والمفاجأة اللتان تحدث عنهما الكعكة المستديرة لدى لاو دو والدب؟

وداخل «القصر»، كان الجميع من بشر وحيوانات يطوّق المسرح الواقع بمنتصف السيرك تمامًا حتى إن قطرة الماء لا تستطيع تخللهم، فزاحمتهم لاو دو باستماتة حتى رأت الدب ففغرت فمها ذهولًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الدب على خشبة المسرح يمسك بالألوان ويرسم على ستارة ضخمة حورية كبيرة وفطرا نفيسا وزهرة مجد الصباح النادرة، وبحرا من السحب لا حد له.

غمز الكعكة المستديرة للاو دو وقال لها مزهوا: «ما رأيك يا آنستي العزيزة؟ لم أكذب عليك، أليس كذلك؟». لكن لاو دو لم تستطع الكلام من الاختناق. هل يستطيع الدب أن يرسم؟ الدب يرسم! كان يين قه في الماضي ماهرا في الرسم، لكنه لم يمسك فرشاة منذ شتاء العام الماضي.

«لا مزاج لي»، «لم يأتني الإلهام»، «لا أريد»، «لا فائدة...».

كانت أعذار يين قه حينها كثيرة وفيرة، ولم تفهم لاو دو السبب في إعراض يين قه عن الرسم رغم حبه الدائم له، ولم تسأله حتى عن السبب... شعرت لاو دو بخجل شديد من نفسها، وبتأنيب الضمير لأنها تجاهلت سؤاله.

التمعت عينا الكعكة المستديرة وهو ينظر إلى رسم الدب، وقال: «يا إلهي! يا إلهي! لم أرَ في حياتي مثل هذا العمل الضخم الرائع إنه يضاهي الرسامين العظام، فرسمه رهيب يهز الأبدان! سيجنُّ الجمهور بالتأكيد، وأنا أقول بكل جرأة إنني متأكد مئة بالمئة من أن ملايين الدببة حول العالم لن يكون من بينها دب يمكنه رسم مثل هذه التحفة الفنية!».

قالت لاو دو: «إنه ليس دبًا، بل هو مصاب بمرض التحول».

«صحيح، صحيح، على كل حال هو رائع للغاية، ولم يكن يريد المرؤض منه إلا أن يجرّب فحسب، ولم يخطر على باله أنه سيفاجئنا بهذه المفاجأة الهائلة! هاه هاه هاه، إنه رائع بكل معنى الكلمة!». وقف الكعكة المستديرة مفعمًا شديد التأثر يطقطق أصابعه، وكانت لاو دو على يقين من أنه يرغب في الغناء والرقص بل والشقلبة.

واصل الدب الرسم، وأضاف على تلك السحب الجميلة أرجوحة، يجلس فوقها دب بني ضخم وفتاة تبتسم.

أخرج الكعكة المستديرة قائمة العروض وراح يصيح بانفعال: «مهما كلف الأمر، يجب أن نضيف إلى برنامج بعد غد فقرة (الدب يرسم)».

صاح الجميع مرحبًا: «الرئيس الذكي! أضفها! أضفها!».

«هاه هاه، إخواني الأعزاء، أصدقائي، ترقبوا معجزة، انتظروا تألقنا! إننا بالتأكيد سنصبح السيرك الأبرز في العالم كله!».

«أبرز سيرك في العالم!».

«أبرز سيرك في العالم!».

وصار المروضون يهتفون جميعًا.

«ممتاز!».

«ممتاز!».

وصرخت معهم القرود والنمور.

أخذت لاو دو الدب وخرجا من بين الحشد المتحمس.

سألته لاو دو: «هل أنت بخير يا دب؟».

خفض الدب رأسه، وربّت بخفة على رأس لاو دو

قالت لاو دو: «ذهبت اليوم إلى دار الأيتام، وقرأت ملفك، وقابلت ذلك البستاني».

في ذلك الوقت، أوقفها البستاني، وسألها: «هل أبوك اسمه ييِن قه حقًا؟».

هزت لاو دو رأسها، ثم قالت: «لكن اسمه في البداية كان مويي».

قال لها البستاني وهو يفرك يديه ويبدو مترددًا في الكلام: «إذن فما أذكر لا خطأ به... لا يُفترض أن أخبرك، ولكن في المرة السابقة بعد أن غادرتما، كنت أشعر كأن شوكة تقف في حلقي في الحقيقة، أنا أعرف والدك، كما أعرف شياوخه التي تسألين عنها. لقد كانا معًا طوال الوقت منذ صغرهما، يلعبان معًا ويذهبان للمدرسة معًا ويقتلعان الحشائش معًا ويساعدان إخوانهما الصغار معًا... وقد كنا نتندر عليهما لذلك ونقول إنهما توأمان ملتصقان. وإذا لم تخني ذاكرتي، فحينما لا تكون شياوخه بجانبه، يصير في حالة اضطراب شديد، ويصبح مرتبكًا حائرًا، ولم يعتد الانفصال عنها حتى بعدما التحق بالجامعة...».

كيف لييِن قه ألا يذكر أيًا من ذلك أمام لاو دو؟ لطالما كان ييِن قه في عيني لاو دو متفائلًا شجاعًا منفتحًا. كان أحيانًا يمسك يدها الصغيرة وينظر إلى أعمدة الإنارة في الشارع ويقول لها فجأة: «لحسن حظي أنكِ معي يا لاو دو» وبعد أن سمعت لاو دو هذا الكلام قالت في نفسها: «هكذا فهو حينما كان يقول لي هذا الكلام كان يفكر في ييِن شياوخه بالتأكيد! لماذا لم أفهم قط ما كان يشغل قلبه واشتياقه الدائم إليها واعتماده النفسي عليها؟ لا بد من أن التعب اشتد به حتى أصابه هذا المرض».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال البستاني: «لا أعرف لماذا انقطع اتصالهما بعد ذلك. ولكن شياوخه قد أتت إلى هنا لاحقًا بحثًا عن أبيك»

أصاب لاو دو الذهول وصاحت: «ماذا؟».

«قد أتت مرة قبل سبعة أعوام، ومرة قبل ستة أعوام... ومن بعدها صارت تأتي كل عام مرة، حتى انقطعت عن المجيء قبل ثلاثة أعوام ولكن يبدو أن اسمها الآن ليس شياوخه».

«فما اسمها إذن؟».

«لا أعرف أنا أيضًا في مرة ذهبت إلى وسط المدينة وقابلتها، وسمعتهم ينادونها بسيدتي تقريبًا».

هي إذن زوجة رجل آخر الآن؟ هل تزوجت بعدما فارقت ييِن قه؟ أم أنها لم تتزوج إلا بعد بحثها عن ييِن قه طوال سنوات دون نتيجة؟ لم تسأل لاو دو الدب هذه الأسئلة، بل فقط أخبرته بأن ييِن شياوخه هي غالبًا في مدينة يوقو.

قالت له لاو دو: «سأجدها لك بكل تأكيد».

ومر اليومان في لمح البصر، وأصبح «سيرك الكعكة المستديرة» جاهزًا رسميًا لتقديم الاستعراضات أمام الجمهور.

لم تكن لاو دو تتخيل أن هذا السيرك جذاب لهذا الحد، إذ أتى أهل مدينة يوقو باردو المشاعر مرتدين ألبسة أنيقة إلى مخاضة النهر تباعًا حتى دخلوا الخيمة الضخمة، كأنهم في انتظار احتفال متأخر.

هل هؤلاء سيحركون شفاههم بالابتسام عند مشاهدة تلك العروض الرائعة؟ شكّت لاو دو في ذلك. لكن الواقع لا يزال يبرهن على أن قلقها زائد عن الحد.

أناس يطيرون في الجو، وآخرون يلعبون بأطواق الهيلاهوب حول خصورهم، وغيرهم يقدمون عروض الأكروبات والسحر، وأسود تخترق الحلقات النارية، وقرود تمتطي الماعز... بدا أهل مدينة يوقو جميعًا في غاية السرور وهم يشاهدون مختلف العروض، ومن حين إلى آخر كانت تصدر منهم أصوات ضحك منخفضة، إلى أن ظهر الدب على الحلَبة، فقد ساد الهدوء حينها بعد أن اهتزت قلوبهم برؤية رسمه الساحر المهيب في المرة السابقة. لكن عندما بدأت لاو دو تمثيل دور المهرج وراحت تلعب بالكرة وهي تتقافز بالحذاء الزنبركي وتضع الشعر المستعار

الأصفر والأنف الأحمر الكبير والملابس الملونة المبهجة، عاودوا جميعًا الضحك على استحياء، وبعدها انفجرت ضحكاتهم المكتومة في لحظة واحدة، تلك اللحظة التي شعرت فيها لاو دو بأن هذه الحياة في الحقيقة لا بأس بها على الإطلاق، إذ يمكنها الذهاب إلى كل مكان لتقديم العروض، وهكذا ستلف العالم، وتسمع صوت الكثير والكثير من تصفيق الجماهير لها، ويمكنها أيضًا إدخال الفرح والسرور على القلوب، والأهم من كل ذلك، أنها تظل إلى جوار الدب في كل لحظة وللأبد.

صاح الأطفال بفرح ومرح: «البلياتشو! البلياتشو!»، وصاح معهم الكبار: «البلياتشو! البلياتشو!».

ودون سبب واضح، شعرت لاو دو بغتةً بأنها رأت وسط هذا الحشد المهيب حبة القهوة والسمكة السوداء. لقد بدا لها أن حبة القهوة تهز شعرها الطويل الذي اشتعل فصار كألسنة لهب، وتلوّح بصخب وجنون بعصا بلورية مشعشعة. كيف يمكن ذلك؟ ما الذي أتى بهذين إلى هنا؟ أحست لاو دو أن بصرها زاغ.

16. ضيف طارئ

نزلت لاو دو بحذائها الزنبركي عن خشبة المسرح، وفجأة أقبل عليها خيال أسود، فأصابها الذعر. إنها قطة!

«قاطع الطرق؟». كان لذلك القط الذي سقط أمام قدمَي لاو دو شعر أسود وعينان زرقاوان. إنه نسخة طبق الأصل من قط حبة القهوة «قاطع الطرق».

خرج السمكة السوداء من وراء الستار، وقال ضاحكًا: «هل أفزعتك؟».

ففرت لاو دو فاها، وإذا بحبة القهوة تقاطع تفكيرها صائحة: «أيها المشاغب، قلت لك هات معك بيضة ولم تفعل، انظر إلى فمها المفتوح الآن، ألا يسع لبيضة بالضبط؟» كانت حبة القهوة واقفة وراء السمكة السوداء تمامًا فرفعت رجلها وضربته ضربة قاسية، واستغل القط الفرصة وقفز فوق ذراعها.

قال السمكة السوداء باستخفاف: «أختي قهوة، ألا يمكنك في المرة القادمة ألا ترفعي رجلك إلى هذا الحد؟ قدمك قدم رياضي!».

«أنتم...» شعرت لاو دو بأن رأسها يدور.

«ماذا حدث؟ هل سعدتِ برؤيتنا إلى درجة أنكِ فقدتِ النطق؟ ما أجملك في هذه الثياب، لكانت خسارة كبيرة حقًا لو لم تكوني بلياتشو!».

«كيف عرفا بوجودي هنا؟ كيف عرفاني؟» كومة من الأسئلة أربكت عقل لاو دو.

وقفت حبة القهوة تنظر إلى أظافرها المطلية على شكل جلد النمر بلا أي مبالاة ثم قالت: «لا تنظري إلى أختك الكبيرة بهذه الطيبة والبراءة، فأنا لا أطيق ذلك إطلاقًا. في الواقع لم أكن أرغب في القيام بهذه الرحلة، لكن هذا القذر عاد وأخبرني أنه قابل إله الطاعون، ولسوء الحظ أضاعك في منتصف الطريق، فجئتِ إلى هذه المدينة الملعونة وحدك. لذلك اضطرت أختك للمجيء بنفسها إلى هنا».

قالت لاو دو: «لم أفهم».

«لم تفهمي ماذا؟».

معها حق، ما الذي لا تفهمه لاو دو؟ ألا تفهم لماذا تعاملها حبة القهوة هكذا؟ أم أنها لا تفهم لماذا لا ترغب حبة القهوة في مجيئها إلى هذه المدينة؟ أم...

سألت لاو دو أبسط سؤال لديها: «كيف عرفتما أنني هنا؟».

دنت حبة القهوة بوجهها من وجه لاو دو بحركة خاطفة، وركزت عينيها في عينيها، وقالت بنبرة شريرة وهي تضحك: «فتاة ودب! هل تدركين مدى عظمة هدفك؟ هل تعرفين السبب في كونك سعيدة الحظ هكذا؟».

وقفت لاو دو محتارة لا تفهم شيئًا.

«لأن عمدة مدينتنا الحبيب قد مرض، ولا أحد أخبره بوجودك أنتِ والدب!».

تراجعت لاو دو خطوة، وقالت: «لا أفهم ما تقولينَ».

«حسنًا يا فتاة، ليس هذا الوقت المناسب لقول هذا الكلام». لوّحت حبة القهوة بيدها، وبينما همّت باستكمال حديثها، تداخل فجأة صوت آخر معسول: «هاه هاه، انظروا مَن شرّف السيرك بحضوره!».

الكعكة المستديرة!

استدارت حبة القهوة تنظر إلى الكعكة المستديرة وتقول له ببرود: «يا سيد برميل، مستديرة، ألا تعرف أن أكثر شيء أكرهه أن يقاطع أحد حديثي؟».

«إن تشريفكما الكريم قد أضاف إلى مكاني المتواضع إشراقًا وبهاء».

أدركت لاو دو تلك النظرة الحادة التي وجهها الكعكة المستديرة إلى حبة القهوة والسمكة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السوداء وهو ينحني أمامهما، فسرَت رجفة لا إرادية في جسدها.

«فعلًا؟ يبدو أن أمورك تسير هنا على أفضل ما يرام، إذ يبدو أن حجمك زاد كثيرًا في بضعة أشهر لم أرك فيها».

«الفضل كله إلى الجماهير، فبهم أجتهد ليكون هذا السيرك أبرز من أبرز سيرك في العالم».

كانت هتافات الجمهور بالخارج تدوي دوي الرعد، إذ اعتلى خشبة المسرح مرة أخرى الدب ومعه بضعة نمور.

قالت حبة القهوة للكعكة المستديرة وهي تشبك ذراعيها أمام صدرها وتنظر إليه شزرًا: «أرى أنه لا داعي لأن تجتهد، ولتفضُ هذا السيرك».

وفجأة صارت نبرة الكعكة المستديرة قاسية كالصخر: «أشكرك على تفهمك ودعمك، ولكن للأسف الشديد قلبي مفتون به».

«أرى أنك عنيد متصلب، صحيح؟».

هبت نسمات باردة على الخيمة.

قال الكعكة المستديرة: «لا أرحب هنا إلا بأصدقائي».

«ونحن لسنا أصدقاءك، فلا داعي للترحيب بنا» وجلست حبة القهوة على كومة من لوازم المسرح وأدوات التمثيل غريبة الشكل، وتابعت: «دعنا من اللف والدوران، فلندخل في الموضوع مباشرة!».

«لم أتوقع أن آنستي ما زالت صريحة كما كانت دائمًا!».

«أريد أخذ هذه الفتاة، ودبها أيضًا».

بدا الكعكة المستديرة كأنه استعد مسبقًا لهذا الكلام، أما لاو دو فعلى النقيض دهشت به دون أن تبرز دهشتها.

قال الكعكة المستديرة بـ «أدب»: «آنستي، لا أحب أن يعيد (التاريخ) نفسه».

«وأنا كذلك، لكن ما العمل مع مَن يريد (تمثيل أو إخراج التاريخ) مرة بعد أخرى؟».

عجز الكعكة المستديرة عن الكلام للحظة.

جلست حبة القهوة تشد شرائط حريرية حمراء من بوق صغير وهي تقول للكعكة المستديرة:

«إذا كنت تريد إيواء أولئك المرضى بالتحول الذين هجرهم أهاليهم فالأمر لك لكن على حد علمي، فهذه الفتاة رافضة تمامًا لانضمام دبها إلى هذا السيرك لذلك يا سيد برميل لا بد لي من التدخل هذه المرة».

انتهى عرض الدب، وأنزله المروض عن خشبة المسرح. وقد فغر فاه ذهولًا هو الآخر برؤية حبة القهوة والسمكة السوداء.

قال السمكة السوداء ضاحكًا وهو يطرقع أصابعه في وجه الدب: «هل ما زلت تذكر أصدقاءك القدامى يا دب؟». ولما رأه القط، نزل عن كتف حبة القهوة ووثب إلى ظهر الدب. نظر الكعكة المستديرة إلى الدب، ثم راح يحدق بشدة في حبة القهوة التي لا تزال تشد الشرائط الحريرية من البوق.

قال الكعكة المستديرة وهو يشير إلى لاو دو: «يمكنك أخذها، أما الدب، فقد جاء بإرادته».

وقفت حبة القهوة وقالت وهي تلف الشرائط الحريرية حول أطراف أصابعها: «أوه! يعني هذا أن الدب حاله يتحسن مع الوقت، فلا داعي إذن لإبقائه هنا، خاصة وأنه لا يعرف إطلاقًا ماذا تنوي فعله معه».

«ماذا تقولون بالضبط؟» لم تُرِد لاو دو الاستمرار في تخمين ألغازهم، وبالصدفة كان كل من حبة القهوة والكعكة المستديرة ينظر إليها.

قال السمكة السوداء: «الأمر بسيط! إن السيد برميل يمارس هذا النشاط القذر، أي شراء المصابين بمرض التحول، لأنهم أذكى من الحيوانات الطبيعية وترويضهم أسهل، كما يمكنهم تقديم عروض مثيرة. كلامي مضبوط سيدي الفاضل، أليس كذلك؟» ثم شبك ذراعيه أمام صدره، وتثاءب بكسل.

قال الكعكة المستديرة باستخفاف: «كلامك صحيح يا سيد سمكة سوداء، لكني لا أريد إلا أن أقدم يد العون لهؤلاء المرضى حتى يعيشوا حياة كريمة أفضل، فأشق لهم طريقًا جديدًا لها».

كانت حبة القهوة تلف الشرائط الحريرية حول أصابعها سريعًا وهي تقول: «على حد علمي، فأنت علاوة على ذلك (تستعبدهم)، صحيح؟ فهؤلاء المرضى ما إن يقعوا بين يديك حتى يصيروا عبيدًا عندك طوال حياتهم، ويصبحوا أداة تحقيق (حلمك) العظيم! إنك لا تضع في حسبانك احتمالية شفائهم وتعافيهم، وتتحكم في مستقبلهم بهذه الطريقة القذرة، صحيح؟».

تظاهر الكعكة المستديرة بعدم سماع كلام حبة القهوة، واستدار نحو لاو دو وقال باحترام:

«صديقتي الأعز من أعز الناس إلى قلبي، كلامها فيه جزء من الصحة، ولكن يمكنك النظر إليه من زاوية أخرى تمامًا، بالضبط كما وصفت لكِ من قبل». سألت حبة القهوة لاو دو بلا مبالاة وهي تهز شعرها الأحمر كألسنة اللهب: «حسنًا. يا فتاة، هل ستبقين أم ستغادرين؟» فبدت كأنها مرت على المكان في طريقها لا أكثر.

نظرت لاو دو إلى حبة القهوة، ثم نظرت إلى الكعكة المستديرة. لم يكن شعورها خاطئًا، فتلك الحيوانات هي جميعًا بشر بالفعل! «كيف سقط كل هؤلاء المرضى في يدي الكعكة المستديرة؟ هل جاؤوا طوعًا إلى السيرك؟ أم تخلى عنهم أهاليهم حقًا؟ هل لو أصابها يومًا ما مرض خطير وتخلى الجميع عنها ستوافق على البقاء في هذا السيرك للأبد؟ وما العمل إذا عاد الدب ليكون بين قه كما كان ولكن لم يرغب في ترك السيرك وأراد تمثيل دور الدب؟». استغرقت لاو دو في التفكير مع نفسها حتى باغتتها رعشة سرت بجميع جسدها لا، ستأخذ الدب وترحل من هنا!

وقفت حبة القهوة على رؤوس أصابعها لتشاكس القط الجالس على ظهر الدب بتلك الشرائط الحريرية، وقالت: «والدب؟ هل أنت موافق حقًا على أن تعيش هنا بهيئة الدب هذه طول عمرك؟».

نصب الدب قامته، وأصدر صوتًا غير واضح، فراحت حبة القهوة تسأل وترد على نفسها: «لا تريد ذلك، صحيح؟ بالطبع لا تريد، إذ مَن قد يوافق على أن يكون دبًا طوال العمر؟».

قال الكعكة المستديرة بكل برود: «الآنسة قهوة الفاضلة، يُستحسن أن تنهي زيارتك الكريمة لي اليوم حالًا».

قالت حبة القهوة: «السيد برميل، أنا أيضًا أرغب في الذهاب، ولكن ما العمل؟ فأنا شخص عنيد للغاية، ولا أرضى بأقل مما أريد قط» ولفت شريطًا حريريًا حول معصم الكعكة المستديرة وهي تضحك.

«لقد وقعت مع الدب اتفاقًا».

قالت له حبة القهوة وهي تشد طرفي الشريط بقوة: «لا تحاول إقناعي بقطعة ورق بالية!».

نظر الكعكة المستديرة إلى معصمه المربوط بإحكام، وقال ببرود: «إنها ورقة بالية بالفعل، لكن لا تنسي يا آنستي أنها نافذة قانونيًا».

قالت حبة القهوة ضاحكةً ولم تزل تشد الشريط الحريري: «حقًا؟ اطمئن يا سيدي، فأنا لا أستغل سلطتي لنهب الآخرين. سأدفع الغرامة!».

صارت لاو دو تفكر في نفسها: غرامة؟ المكتوب في العقد أن الطرف الأول إذا خالف الشروط يدفع ثلاثة أضعاف الغرامة التي يدفعها الطرف الثاني إذا كان هو المخالف! من أين لحبة القهوة كل هذا المال؟ وأيضًا، حتى لو ساعدتها حبة القهوة، فهي لن تقدر مهما فعلت على رد كل هذا المال لها، إلا لو باعت نفسها!

لاحظ السمكة السوداء انشغال فكر لاو دو، فربّت على ذراعها بخفة وهو يقول لها: «اطمئني يا بنت».

قالت لاو دو بصوت خفيض: «لا أريد مالًا مجهول المصدر».

«اطمئني، فأختي الكبيرة لم تحصل على هذا المال بالسرقة ولا بالنصب. هل تعتقدين حقًا أننا لصوص محترفون وقادرون على سرقة مبالغ طائلة؟ فلأقول لكِ الحقيقة، نحن لسنا إلا مجرد لصوص صغار، ونثير الشغب لنرفّه عن أنفسنا وحسب».

سرقوا جميع ممتلكات أحدهم ويقول على أنفسهم لصوص صغار؟ نظرت لاو دو نظرة حادة للسمكة السوداء وقالت له: «ولا أريد مساعدة مجهولة الأسباب».

قالت حبة القهوة وهي تبتسم ابتسامة زائفة مصطنعة: «مَن قال إنها مساعدة؟ يا بنت، لقد وصلت صداقتنا إلى حد أن نساعدك بلا سبب وبكل إيثار... لذلك اطمئني، فأنا أفعل ذلك لأجلي أنا».

لم تفهم لاو دو.

ضحكت حبة القهوة ضحكة خبيثة وقالت: «قريبًا ستعرفي السبب».

لم يوافق الكعكة المستديرة على دفع الغرامة، ولم يرد إلا أن ينفذ الدب الاتفاق.

«سيد برميل، يُفترض أنك على دراية تامة بأمر الحظر الذي أصدرته مدينة يوقو قبل خمس سنوات، صحيح؟ ويُفترض أيضًا أنك تعرف جيدًا أنني يمكنني الذهاب صباح غد إلى ذلك الملعون عمدة المدينة وأسحبه من فوق سريره وأجعله يرسل على الفور أناسًا لتفتيش هذا السيرك، أليس كذلك؟ وحينها، ربما لن تفقد الدب فحسب، بل...».

قال الكعكة المستديرة وهو يضحك ضحكة باردة: «نعم، فأنا لا أشك قط في سعة صدر آنستي، لكن لو اختفينا من هذه المدينة فورًا، فربما لن يهمني ذلك الحظر ولا عمدة المدينة وهذه الأمور التي تتحدثين عنها».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسنًا، يا سيد برميل الحبيب، يجب أن تكون قد سمعت أن هذه المدينة بها مكان سحري أيضًا؟ وإذا أمسك بكم، فأنا أخشى حقًا على ممثليك مما سيلاقونه».

«لا تستخدمي معي أساليب الترهيب والترغيب هذه، فأنا أيضًا لحمي ليس طريًا، الأفضل لكما أن تغادرا السيرك حالًا، وإلا فلا تلوميني على سوء الضيافة» وقد صار وجه الكعكة المستديرة وحشيًا دميمًا وهو يقول ذلك، فانكسر مع صوته المخيف ذلك البوق الذي كانت حبة القهوة تلعب به بين يديها.

سألت حبة القهوة لاو دو بصوت حاد: «يا بنت، ما السعر الذي دفعه هذا السيد لشراء الدب؟».

قالت لاو دو: «50 ألف عملة نقدية». ولم تلبث أن أضافت: «لكنه لم يدفع بعد!».

لم تقل حبة القهوة المزيد، بل أخرجت شيكًا مصرفيًا ووضعته على المكتب، وقالت: «سيد برميل، هذه 200 ألف عملة نقدية، وأنا ليس لدي وقت للكلام الكثير معك، ولا للتدقيق والحساب، وسآخذ الدب معي بالتأكيد، وكذلك هذه الفتاة الساذجة».

Telegram:@mbooks90

«يعني ذلك أننا لن نكمل نقاشنا؟».

نظر الكعكة المستديرة إلى الشيك ذي المبلغ الضخم، ولم ترفّ له عين.

ضحكت حبة القهوة وقالت: «يا سيد، ليست هذه أول مرة نلتقي فيها، فلا داعي إذن لهذا السؤال!».

وفي لمح البصر ابيضّت حدقة عين الكعكة المستديرة الرمادية، وصفّر بفمه تصفيرًا حادًا طويلًا، فجاء جميع المروضين ذوي الوجوه المطلية بالألوان الزيتية سريعًا والتفوا حول «العدو» لمحاصرته. وقد كان الجمهور بالخارج في تلك اللحظة يهلل ويهتف مشجعًا للعروض الرائعة التي تقدمها «الحيوانات».

قال السمكة السوداء ضاحكًا: «أختي قهوة، يبدو أن هناك مَن يصمم على استضافتنا».

«فلنلقّنهم درسًا إذن!» وشدت الشريط الحريري على يديها بقوة، وتلاشت ضحكتها.

ولا أحد يدري أيهم البادئ، هل السمكة السوداء وحبة القهوة، أم الكعكة المستديرة وأولئك المروضين. على كل حال، عندما أدركت لاو دو ما يحدث كان السمكة السوداء قد أناخ عليه أحد المروضين، أما الكعكة المستديرة فقد قيدت حبة القهوة يديه بالشريط الحريري.

«آووه... لا تتعاركوا!» وفي تلك اللحظة بالضبط، أصدر الدب منتصب القامة عواءً عاليًا كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كإعصار هب فجأة فكنس في طريقه كل ذلك الصخب والضوضاء، فخيم على العالم كله هدوء وسكون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

17. مَن يختبئ بالقبو

كانت الطرقات ساكنة موحشة، والقمر شاحبًا خافتًا.

رأت لاو دو حبة القهوة والسمكة السوداء يعبران من شوراع مدينة يوقو وطرقاتها بسهولة ويسر، وحينها فقط اكتشفت أنها لم تعرف عنهما إلا أقل القليل. بعد ذلك، توقفوا أمام فيلا فخمة وقد استطالت خيالاتهم أسفل أعمدة الإنارة ذات الضوء الخافت.

كان فوق باب الفيلا جرس يلفت النظر، لكن حبة القهوة رفعت رجلها وركلت الباب بضع ركلات قوية.

صدر من داخل الفيلا صوت حاد يسأل بغضب: «مَن الطارق؟».

أجابت حبة القهوة: «أنا».

«يا إلهي!» صدر من الداخل صوت مذعور كأن صاحبه يوشك على الهرب، ثم فتحت الباب بقلق امرأة عجوز نحيفة طويلة القامة تلف شعرها كعكة، وقد بدا عليها أنها مدبرة المنزل.

كان لهب الشمعة التي قاربت على النفاد يهتز في صالة الفيلا الواسعة، وزوايا الكراسي التي لا سبيل لضوء الشمعة إليها قد بدت مظلمة موحشة، كأنما أشباح لا تعد ولا تحصى جاثمة فوقها في انتظار القادمين الطائشين شعرت لاو دو ببعض الخوف، وقد شعر الدب كذلك بالغرابة والغموض، فراح يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى ولم يدخل.

قالت حبة القهوة للمرأة التي فتحت الباب: «أضيئي جميع الأنوار».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«آنستي».

«أضيئيها!».

وهكذا في غمضة عين أنارت جميع المصابيح تلك الصالة الواسعة بأكلمها، فظهرت السجاجيد الفاخرة والأقواس المرتفعة والنجف الضخم واللوحات الشهيرة المعلقة على الحوائط أمام الناظرين لم تزَ لاو دو في حياتها مثل هذا المكان الفاخر من قبل، ولا حتى في الأفلام والتلفزيون، ولهذا وقفت فاغرة فاها عن آخره.

سعل أحدهم، ولولا صوت السعال ما عرف أحد منهم بوجود شخص يجلس فوق كرسي جلدي أسود ضخم على السلم العالي. لقد كان رجلًا متوسط العمر ذا ملامح شاحبة هزيلة وقد كان يتفحص بعينيه الرماديتين -لونها رمادي فعلا لا مجازًا- هؤلاء الزوار المتهورين.

قالت لاو دو لتلك المرأة الواقفة كالألف بالجوار: «جهّزي لي غرفتين يا خالة لي».

«تحت أمرك، آنستي» أجابتها المرأة وهي تنظر إلى لاو دو والدب بدهشة واستغراب.

مال السمكة السوداء برأسه إلى لاو دو وقال لها بصوت منخفض: «لا تقلقي يا بنت، اطمئني» أرادت لاو دو أن تقول له «لست أنا مَن يصيبه القلق!»، لكنها كانت تعرف جيدًا أنها قلقة متوترة، فتصرفت بذكاء وأبقت فمها مغلقًا كان الدب ينظر إليها نظرات رقيقة، كأنما يشجعها كما كان يفعل دائمًا ويقول «لا تخافي!».

اتجهت لاو دو إلى الطابق الثاني، وعندما مرّت بجوار ذلك الرجل لم تنظر إليه قط، أما السمكة السوداء الذي كان يسير خلفها فقد انحنى له باحترام وقال: «ليلة سعيدة!».

وبينما كانت لاو دو مترددة لا تعرف ماذا تقول للرجل، باغتها بسؤاله: أنتِ تلك الفتاة التي ظهرت في المدينة برفقة دب؟».

هزت لاو دو رأسها بالإيجاب.

قال الرجل الذي خارت قواه: «لقد أفسدت جو هذه المدينة!».

أفسدته؟

«لم يكن ينبغي لكِ القدوم إلى هنا!» أراد الرجل أن ينهض عن كرسيه، ولكن لأنه لا يقوى على ذلك كما كان واضحًا، فقد صار العرق يتصبب من جبهته.

ترددت لاو دو ولم تنبس بكلمة، ولم يكن أمامها إلا أن تتبع السمكة السوداء في صمت، ولكن

بعد بضع خطوات استدارت بغتةً وسألته: «هل أصابتك الحمى؟».

لم يجب الرجل، بل ظل ناظرًا إليها ببرود، فأخذت الدب وصعدت للأعلى.

أصابت لاو دو والدب دهشة كبيرة عندما فتحت لهما إحدى الخادمات باب الغرفة، إذ كانت الغرفة أكبر من بيتهما، وبداخلها غرفتان منفصلتان، علاوة على خزانة ملابس وخزانة كتب ومنضدة زينة وغرفة استحمام، وقد كان على الأرض سجاد فارسي، وعلى الجدران ورق حائط روماني فاخر، وعلى الأسرّة ألحفة من الريش الناعمة الرقيقة.

وبرؤية تعابير وجه لاو دو والدب، انفجر السمكة السوداء في الضحك وهو يضرب كفًا بكف.

لكن حبة القهوة غطت ملامحها جدية وصرامة وصفعت قفاه وهو يضحك ودون أن تدري لاو دو السبب، فقد شعرت بأن طريقة حبة القهوة المعتادة من ضحك واستهزاء قد اختفت تمامًا بمجرد أن وطأت قدماها الفيلا، وحلت محلها كراهية وغضب.

نظرت حبة القهوة بقسوة إلى لاو دو وقالت لها: «لا تنظري إليّ هذه النظرة الغريبة، وشيء آخر، يستحسن أن تستحمي أنتِ والدب أيضًا، فلا أريد أن أشم منكما هذه الرائحة النتنة بعد الآن».

وقبل أن ترد عليها لاو دو، استدارت حبة القهوة وغادرت دون أن تلتفت اقترب السمكة السوداء من أذن لاو دو وهمس: «ضعي الكثير من المياه بحوض الاستحمام، فهو كبير يمكنك السباحة فيه».

كان السمكة السوداء على حق، فحوض الاستحمام كبير إلى حد مدهش. قالت لاو دو لنفسها: «لا يهمني إن كنت في الجنة أم في النار، فلأفكر في ذلك بعد أخذ حمام منعش» وقفزت إلى الحوض بفرح ومرح.

«لاو دو!».

سمعت لاو دو صوتًا رقيقًا ينادي عليها فور استلقائها على السرير بعد الاستحمام. لقد أهلكها التعب بعد اليومين اللذين قضتهما في السيرك لدرجة أنها لم تقدر على فتح عينيها.

«لاو دو، هذا أنا، أبوكِ».

أبوها؟ فتحت لاو دو عينيها فورًا. لقد كان يين قه حقًا! كان واقفًا أمام السرير، وينظر إليها بعينيه السوداوين اللامعتين برقة وحنان.

«أبي!».

«لاو دو!».

مدت لاو دو يدها لتداعب وجهه المبتسم. لكن هذا الوجه غطاه الظلام شيئًا فشيئًا حتى حجب ظل أسود مجال رؤيتها. قال الظل: «لا بد لكِ أنت ودبك من المغادرة حالًا!».

سألته لاو دو: «أأنت الرجل الذي كان جالسًا في الصالة؟».

لم يجبها...

«أنت والد حبة القهوة، أليس كذلك؟».

لم يزل الظل صامتًا.

«أنت بالتأكيد والدها، فقد رأيت كيف تنظر إليها!».

راح الظل يصيح بحدة: «خذي دبك وامشيا من هنا! امشيا!».

«لا، لن أفعل، مستحيل، مستحيل، مستحيل! لا بد من أن أعثر على تلك المرأة التي تُدعى ييين شياوخه!».

قال الظل وقد صار يقهقه عاليًا: «ييين شياوخه؟ لن تعثري عليها! فقد تحولت إلى دب هي أيضًا».

فاقت لاو دو من نومها بصعوبة بالغة وهي تبكي وتقول: «هراء!».

كان ضوء القمر يغطي الأرض أمام السرير، ولم يكن هناك ييين قه، ولا ظل أحد.

هب النسيم محفلًا بعطر خفيف من زهور العبقة الأريجية لقد مر في لمح البصر شهر كامل منذ أن غادرت لاو دو مع الدب مدينة تشيباي، وصار دينغ شياو دينغ ومي ران ران ولوو داتو كأنما سافروا إلى عالم آخر، فشعرت لاو دو بأنهم بعيدون عنها للغاية، بينما لا تزال تشعر بأن مدينة يوقو غريبة عنها تمامًا. وهناك أيضًا حبة القهوة والسمكة السوداء، ماذا تعرف عنهما؟ ربما لم يكذب السمكة السوداء حينما قال لها إنهم يسرقون لمجرد اللهو والمتعة، إذ لا يبدو مطلقًا أن حبة القهوة التي تسكن في مثل هذه الفيلا الفخمة تفتقر إلى المال.

لم ينم الدب جيدًا، فقد ظل يتقلب مُصدرًا صوتًا كأن أحدهم يلاحقه في الحلم كذلك انحنت لاو دو وقبلت جبهته برقة، مثلما كان ييين قه يفعل معها فيما مضى كم كانت تأمل أن تكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كالأميرة التي استطاعت أن تحوّل الضفدع بقبلتها إلى أمير في إحدى قصص الأطفال، فتحوّل الدب بقبلتها ليعود إلى يين قه! لكن الدب لا يزال دبًا. ومع ذلك، فقد أحسّت لاو دو بأن تغييرًا حدث فيه، فقد بدأ يتكلم.

«لا تتعاركوا!». مع أنه لم يقل سوى كلمتين، فقد أدهش جميع الحضور حينئذ، خاصة الكعكة المستديرة، فقد اتسعت حدقتا عينيه الصغيرتين في الحال عانقت لاو دو الدب حينها بمشاعر فياضة، ورغبت في الرقص والغناء والضحك، وفي البكاء أيضًا، إلى أن داست حبة القهوة على قدمها فأدركت الوضع وأخذت الدب وغادرت معها هي والسمكة السوداء سريعًا إلى هذا المكان الغريب.

صدر من خارج الغرفة صوت وقع أقدام مترنحة، مع صوت بكاء خفي. تُرى مَن يبكي؟

فتحت لاو دو الباب، فرأت ظلًا أسود ينزل راكضًا إلى الطابق السفلي. اضطرب قلبها فتبعته حافية القدمين. كان السجاد ناعمًا كشاطئ جميل يداعب قدميها برقة، كما كان كشحب ناصعة البياض تدفعها إلى الأمام أكثر فأكثر... لم تكتشف أن خلفها هي وذلك الظل رجلًا يستند إلى درابزين السلم وينظر إليهما في صمت.

فتح الظل بابًا سريًا مخفيًا خلف الصالة الكبرى ودخل منه وتبعته لاو دو دون أدنى تردد.

كان الظلام يخيم على ما خلف الباب السري، حتى إنه صار يتدافع للخارج كأمواج عاتية، وكان هناك سلم بدا أنه يؤدي لأعماق الجحيم، وظلت تنزل حتى ظهر أمامها أخيرًا شعاع نور أصفر باهت. كان هناك باب صغير ذو لون أحمر زاهٍ، ومعلّق عليه مصباح وحيد على شكل زهرة دوّار الشمس.

ظهرت في الضوء تلك الفأس القاطعة التي يمسكها الظل الأسود بيده، وظل واقفًا برهة أمام الباب الصغير دون أي حركة، ثم رفع يده بالفأس عاليًا بجرأة.كان ظل فتاة، وراحت تضرب بالفأس بكل قوة وغضب ذلك القفل الحديدي الضخم المثبت فوق الباب فصدر دوي عال، تبعته فورًا ترددات صدى صوت مكتوم صادر من القبو الغارق في السكون، فبدا كأنين مريض يتألم منذ زمن بعيد. كان القفل متينًا، وقرفصت التي كانت تحمل الفأس على الأرض، وراحت تبكي بكاء صامتًا. ثم واصلت لاو دو السير نحوها.

لم تكن الأرض الرطبة كالسجاد الناعم، إذ كانت هبات هواء شديدة البرودة ترتفع منها إلى قدميها بلا توقف كجيش هائل من العدو يندفع باتجاهها حاملًا سيوفه أرادت لاو دو أن تخفف عنها بكلمتين، لكنها فكرت قليلًا ثم أخذت الفأس من يدها، وحاولت كسر القفل بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقع صوت الفأس في قلب لاو دو، فشعرت برغبة شديدة في البكاء هي أيضًا ولكن لحسن الحظ، ففي اللحظة التي شعرت فيها بأنها غير قادرة على تحمل المزيد والمواصلة، انكسر القفل ووقع على الأرض.

انقطع بكاء التي تبكي فجأة، ونظرت بخوف شديد إلى ذلك الباب القرمزي الذي تفكك قيده، كأنما بداخله يختبئ وحش تتطلع إلى رؤيته ويصيبها بالذعر في آن واحد ساندتها لاو دو حتى تقف.

قالت حبة القهوة: «لن أقول شكرًا لكِ».

ردت لاو دو: «وأنا لا أنتظر منكِ ذلك».

غرق القبو في هدوء مؤقتًا، ثم بعد أن مر بعض الوقت كبضعة قرون، دفعت حبة القهوة الباب بحذر شديد.

كانت الغرفة الضيقة كتلة من الظلام، كأنها في أعمق أعماق المحيط.

قالت حبة القهوة: «هذه أنا يا أمي».

لم يُسمع صوت. وبعد أن اعتادت عيناها الظلام، اكتشفت لاو دو أخيرًا بفضل ضوء المصباح الخافت دبة بيضاء بياض الثلج تتكور على سرير فاخر! كانت فاغرة عينيها مذهولة مذعورة، تجلس طول الوقت بذلك الوضع في انتظار مَن يفتح الباب. جثت حبة القهوة أمام الدبة البيضاء وقالت لها: «هذه أنا يا أمي».

لم تحرك الدبة ساكنًا. «أمي، هذه أنا يا أمي، ابنتك حبة القهوة...» ظلت حبة القهوة تكرر كلامها مرة بعد مرة إلى أن بدأت الدبة البيضاء تنظر إليها بعطف وحنان.

تراجعت لاو دو وخرجت.

«هل ذهبتِ إلى القبو؟» قالها السمكة السوداء وهو يقف متكئًا على أحد الأعمدة الرخامية الفاخرة التي تزين الصالة الكبرى، وينظر دون مبالاة إلى لاو دو التي انسلّت من الباب السري.

هزت لاو دو رأسها بالإيجاب.

«تلك أمها» تردد السمكة السوداء برهةً ثم تابع: «هي أيضًا أصابها مرض التحول».

لم تعرف لاو دو ماذا تقول، إذ اتضح أن مدينة يوقو ليست كما تبدو عليه في الواقع، فعلى

الأقل بها مريض بالتحول.

سألها السمكة السوداء: «هل تعرفين بذلك الأمر بالحظر؟».

كانت تلك المرة الثانية التي تسمع فيها لاو دو كلمة «الحظر».

قال السمكة السوداء: «إن مدينة يوقو في الحقيقة هي أول مكان يظهر فيه مرض التحول، وقد تحول المصابون به جميعًا إلى دببة. لكن عمدة المدينة من أجل أن يحمي صورة المدينة الرائعة دومًا، أخفى هذا الأمر، بل أصدر قانونًا يفيد بمنع سكان المدينة من الإفصاح عن هذا الأمر. وقد شيّد أيضًا (قلعة الدببة)، وجمع بها كل المصابين، زاعمًا أنها لعلاجهم، بينما في حقيقة الأمر لم يشيدها إلا خوفًا على صورة المدينة».

ابتلعت لاو دو لعابها بصعوبة وقالت: «وماذا بعد؟».

«دعم سكان المدينة هذا الأمر في البداية ورحبوا به، لكنهم اكتشفوا لاحقًا أن المصابين كانوا في الواقع قيد الإقامة الجبرية، والمخيف أكثر هو أنهم أدركوا أن علماء الأحياء والخبراء الطبيين الذين استقدموهم بأموال باهظة لا يعالجون المرضى، بل في الواقع يجرون تجارب دوائية عليهم. ولذلك طالب الناس بهدم (قلعة الدببة)، وإعادة المرضى لبيوتهم، لكن عمدة المدينة عارض ذلك بشدة».

سألته لاو دو باستغراب: «وماذا بعد؟».

«بعد ذلك لم يكن بيد أهالي المدينة حيلة، فتقبلوا الوضع دون كلام. لكن المرضى الذين ظهروا لاحقًا اختبأوا في بيوتهم بكل السبل الممكنة، ووالدة حبة القهوة واحدة منهم».

«لكن، الدب»...

قاطع السمكة السوداء كلام لاو دو قائلًا: «دبك الآن في أمان، ويجب أن تكوني ممتنة لأهل مدينة يوقو على طيبة قلوبهم، وأن تشكري عمدة مدينتنا الصارم على مرضه في الوقت المناسب».

«مدينتنا؟ أتقصد أنك من مدينة يوقو؟».

أجابها السمكة السوداء وهو يرفع كتفيه إلى أعلى: «تقريبًا، فقد تسكعت في الشوارع في صغري إلى أن وصلت إلى هنا. وفي فترة من فترات حياتي كنت أظن أنني لن أجد في هذا العالم مكانًا أحلى من يوقو، فالناس هنا طيبون وودودون، فشعرت بأنني وسط أهلي. لكن بعد

ظهور مرض التحول، دمر هذا الحظر كل شيء، فقد صار الناس خائفين من أن يظل أحباؤهم دببة إلى الأبد، ومن أن يكتشف أحد بوجود مرضى مختبئين في بيوتهم، لذا صار كل واحد هنا يحذر من الآخر. وهكذا أصبحت المدينة شيئًا فشيئًا على حالها هذا، وزادت قلوب الناس برودة، وزادت نظراتهم برودة، وزادت تعبيراتهم برودة... ومع الوقت تحولت عيونهم الزرقاء والخضراء والعنبرية إلى اللون الرمادي، وحتى شعورهم الأرجوانية والوردية والبيضاء أصبحت بمرور الوقت رمادية، ووجوههم عابسة مكفهرة باستمرار...».

هكذا الأمر إذن! اختلطت مشاعر لاو دو فجأة، فقد كانت تمقت برود أهل يوكو، لكنها لو كانت مكانهم، هل كانت ستتصرف أفضل منهم؟ ليس بالضرورة، بل ربما أسوأ كثيرًا إذن فهذا التجاهل والتباعد الذي يبدو متعمدًا منهم تجاهها هي والدب هو في الحقيقة «حماية» لهم، ورغبتهم في طردهما من المدينة أمر مفهوم تمامًا

أخبر السمكة السوداء لاو دو أيضًا أن حبة القهوة في البداية كانت مثلها، وتصر على اصطحاب أمها التي تحولت إلى دب للتنزه في الشوارع والتسوق، لكن أمها اختفت حتى قبل أن تنفذ حبة القهوة رغبتها تلك. وقد ظنت في أول الأمر أن عمدة المدينة أخذها، ثم أخبرتها الخالة لي لاحقًا أن أمها محبوسة في القبو ولذلك تشاجرت مع أبيها شجارًا عنيفًا، ثم تركت البيت وغادرت إلى مدينة يوكو.

«لذلك فهي حينما ساعدتك لاستعادة الدب من الكعكة المستديرة كانت لأجلها بالفعل، إذ أرادت أن تقنع أباها عن طريقك بأن يعيد أمها إلى حياتها الطبيعية، وبأن ذلك يساهم في تعافيها أسرع. لكن كما رأيت... لا أحد هنا يعير الآخر اهتمامًا، وأنا في الواقع أشفق كثيرًا على ذلك الرجل المسكين».

كان والد حبة القهوة واقفًا على الدرج خلفهما، وقال منهكًا: «لا أريد شفقة من أحد!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

18. شرق الدب

رأت لاو دو في غرفة حبة القهوة صورة امرأة لها شعر أسود فاحم، وعينان مبتسمتان، لامعتان ومستديرتان، وخدان بهما غمازتان، وبشرتها بيضاء بياض الثلج، ما إن تنظر إليها حتى تعرف أنها امرأة رقيقة وجميلة على نحو غير عادي.

نظرت حبة القهوة للصورة وقالت: «أكبر عيوبها الجبن والضعف».

مَن قال غير ذلك؟ يقولون إن أغلب المصابين بمرض التحول يعيبهم العيب نفسه، ولكن مَن منا لا يشعر بالضعف والتخاذل أحيانًا؟

قالت حبة القهوة للاو دو: «لحسن الحظ لم أرث منها هذا العيب» ثم وضعت الصورة في جيبها الكبير

«هل ستأخذين أمك حقًا وتغادران معًا؟».

«نعم، سأفعل مثلك، وآخذها للتنزه معًا في الشوارع والسفر والتنقل بالتماس الجولات المجانية وركوب القطار، وسنذهب معًا إلى البحار والغابات ومشاهدة جميع المناظر الخلابة، حتى نصل إلى جميع الأماكن الجميلة حول العالم».

فغرت لاو دو فاها، وأرادت أن تخبرها أن سفرها لن يكون بهذه السعادة التي تتخيلها، ومع أنها ستجد ما يسرها، فأغلب ما ستجده مشقة وصعوبات.

«يا بنت، إذا كان عندك استعداد فيمكنك اصطحاب الدب والذهاب معنا!».

رفعت حبة القهوة رأسها، فبدت عيناها ذواتا اللون الأخضر الفاتح وقد ملأتهما نظرة تنم عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دعوة صادقة.

هزت لاو دو رأسها وقالت: «لا، لن أذهب معك، والأفضل لكِ أنت أيضًا ألا تغادري».

«هل صحيح ما سمعت يا بنت؟».

أخذت لاو دو نفسًا عميقًا وقالت: «صحيح. لن أغادر، لأنني ما زلت أريد العثور على يين شياوخه وأنتِ لا يمكنك المغادرة لأن أباكِ هنا».

«لا تذكري اسم هذا الرجل أمامي!».

«لقد مرض، ولا تنخفض حرارته، وهو على الحال نفسه الذي كان يين قه عليه في بادئ الأمر».

استدارت حبة القهوة بسرعة وقوة وهي ترمق لاو دو بنظرات حادة قاسية.

«يقال إن أول أعراض مرض التحول ارتفاع حرارة الجسم، وهذا ما حدث مع يين قه قبل أيام من تحوله إلى دب...».

«هراء!».

«لا!».

«اخرجي من هنا!».

ما إن «طُردت» لاو دو وخرجت من الغرفة، حتى رأت السمكة السوداء مستندًا إلى الباب ويحمل بين شفتيه بكسلٍ عود تخليل أسنان.

مِيل العود باتجاه الغرفة وسألها: «ماذا قلتِ لها؟» بينما صدر من داخل الغرفة صوت تكسير أشياء، تلاه سلسلة من الشتائم واللعنات الغاضبة.

«والدها حرارته مرتفعة».

«وما المشكلة في ذلك؟».

«هذا أول أعراض مرض التحول. لم ترتفع حرارة يين قه قبل ذلك، لكنه قبل أن يتحول إلى دب ببضعة أيام أصابته الحمى، بالإضافة إلى الحكّة...».

سقط عود التخليل من بين شفتي السمكة السوداء وهو يقول: «ماذا؟ أنتِ متأكدة؟».

«أنا لا أعرف كذلك، أشعر فقط بأنه في الحالة نفسها التي كان عليها يين قه قبل تحوله».

قال السمكة السوداء ضاحكًا: «حسنًا إذن، فهكذا تسافر حبة القهوة بصحبة دبّين».

ما إن قال هاتين الكلمتين حتى سمع صوت فتح الباب الموارَب «أيها المشاغب، ما زلت في مزاج يسمح لك بالضحك والاستهزاء!» ورفعت حبة القهوة ساقها وضربت السمكة السوداء بقوة.

نهض واثبًا: «ألا يمكن أن ترفقي بي قليلًا؟».

أشارت حبة القهوة إلى كل منهما على حدة وهي تقول: «ادخل، وأنتِ كذلك أيتها البلهاء!»، وجرّت كل منهما من ياقة قميصه إلى الداخل.

عضّ السمكة السوداء شفتيه وهو يقول لها: «ألم تكن رغبتك واضحة جدًا قبيل قليل في طرد شخص ما من هذه الغرفة؟» وقد أراد بذلك أن يداعبها حتى تضحك، لكنه لمّا رأى وجهها الشاحب من الغضب، تصرف بذكاء وقطع الكلام.

وراحت حبة القهوة تسأل وترد على نفسها: «أخبريني، ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أتركه وأغادر دون اعتبار لأي شيء؟ على كل حال، لم تكن علاقتي به في يوم ما على ما يرام. ماذا لو انتظرت حتى يتحول إلى دب وحبسته هو أيضًا في القبو؟ فهكذا فعل هو مع أمي».

قال السمكة السوداء باستخفاف واستهزاء: «رائع، أنا أوافقك على الرأي تمامًا في حبسه بالقبو ليجرب شعور الحرمان من نور النهار» أرادت لاو دو أن تقول شيئًا ما، لكن السمكة السوداء غمز لها بعينه.

«أيها السمج، أهذا جزاء أن عاملك بالحسنى وأن أطعمك وآواك؟ ناكر للجميل!».

«صحيح في الحقيقة، كان يعاملني معاملة حسنة، وعلى ما أذكر، فلم يقصّر معكِ أيضًا؛ حينما اشتهيتِ الآيس كريم بالياسمين الأزرق، استدعي أمهر الطهاة لتحضيره لكِ، وحينما أردتِ تعلم العود، استدعى لكِ على الفور عازف العود الوحيد الباقي على قيد الحياة، وحينما كنت تريدين رؤية الثلوج، كان يصطحبك أنتِ وأمكِ للذهاب إلى الغابات الثلجية، وحينما يصيبك المرض، يهرع حتى في أحلامه للبحث عن طبيب لكِ، وحينما تغضبين منه وتطردينه من غرفتك، يطلب مني مواساتك والتخفيف عنك، وحينما كسرتِ المزهرية العتيقة الغالية على قلبه بسبب موضوع والدتك، ظل صامتًا ولم ينبس بكلمة، وحينما صرخت وقلتِ إنك تريدين أن تقطعي علاقتك به، اغرورقت عيناه -وهو الرجل القوي الصامد دومًا- بالدموع الحارة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«اخرج من هنا أيها السمج!».

قال السمكة السوداء وهو يهز كتفه: «حسنًا لقد اعتدت أن أطرد على أي حال» وبعد أن ضحك للاو دو ضحكة ذات مغزى عميق خرج من الغرفة يتمايل في مشيته.

ألقت حبة القهوة بجسمها على كرسي.

«لا يكن ينبغي لكِ إخباري بأمر تحول والدي يا بنت».

«إنه أبوكِ».

قالت حبة القهوة: «نعم، إنه أبي» وفركت وجهها بكل قوتها كأنما تريد أن تعيد دموعها التي أوشكت على الانهمار إلى حيث كانت.

كانت حديقة الفيلا الخلفية عبارة عن أرض خاوية على عروشها، مغطاة ببقايا جافة يابسة من شجر صريمة الجدي والأقحوان الأخضر والهدرانج، تدل على أنها كانت يومًا ما أرضًا خصيبة وافرة النماء. وكان الضباب يتساقط فوقها كتلة بعد كتلة.

قالت لاو دو وهي تنظر للضباب: «إنه منتصف الصيف».

لم ينبس السمكة السوداء الواقف بجوارها ببنت شفة.

سألته لاو دو: «هل يكثر الضباب هنا في فصل الشتاء؟».

قال السمكة السوداء وعلى وجهه بسمة مصطنعة: «لا، على الإطلاق. فيما مضى، لم نكن نرى الضباب هنا إلا في فصل الشتاء، ولكن يبدو أن سكان هذه المدينة قد أثروا في مناخها، فتولّد الضباب من حزنهم وكآبتهم، كتلة بعد كتلة، تتلاحق بلا انقطاع».

«كذاب!».

«لا أكذب، ألا تشعرين أن شخصية المرء دائمًا ما تشبه المكان الذي يعيش فيه؟ أولئك السعداء الفرحون يأتون دومًا من مدن ساحرة جذابة، وأولئك العابسون المتجهمون يأتون دومًا من مدن حزينة كئيبة، أو يمكنك القول إن المدن الساحرة من السهل أن يكون مَن بها ذا شخصية ساحرة، والمدن الكئيبة من السهل دومًا أن يكون مَن بها ذا شخصية كئيبة».

عضت لاو دو شفتيها وقالت: «ينبغي لك أن تشارك بنظريتك حول البشر والمدن في الندوات العالمية».

«أنتِ لا تصدقيني لأنكِ لا تعرفين شيئًا عن مدينة يوقو، في حين أنني أرى أن هذه النظرية العظيمة تنطبق على الأقل على مدينة يوقو».

«إذن فأنت وحبة القهوة استثناء؟ أرى كل منكما كشعلة نار».

قال السمكة السوداء ضاحكًا: «هذا لأنني لا أعد من أبنائها الأصيلين، أما حبة القهوة... إن مظهرها الخارجي فقط يوحي بأنها شعلة نار، لكنها في الحقيقة كنبع صاف».

ثم انقطع كلاهما عن الحديث، وراحا ينظران إلى الضباب الذي يجري في الحديقة، وإلى الطيور التي تتراقص فوق الشجر.

هبت لسعة برد على حين غرة، فشدّ كل منهما ملابسه على جسده.

التفتت لاو دو إلى السمكة السوداء فجأة وسألته: «أنت تعرف مدينة يوقو جيدًا، أليس كذلك؟».

قال السمكة السوداء مزهوًا بنفسه: «بالتأكيد، فأنا» وضحك فقفزت من بين شفتيه سنّه البارزة الظريفة.

«وهل سمعت عن امرأة تُدعى ييِن شياوخه؟».

«أهي تلك المرأة التي تبحثان عنها أنتِ ودبك؟».

هزت لاو دو رأسها إيجابًا...

«التي هي أمك؟».

هزت لاو دو رأسها إيجابًا...

«فهل تعرفين مهنتها؟».

«كانت ترقص الباليه».

قال السمكة السوداء: «لم يعد هنا أحد يرقص الباليه منذ زمن طويل!» وتوقف قليلًا ثم قال: «أنتِ تعرفين شكلها على الأقل؟».

هزت لاو دو رأسها نفيًا.

لا تعرف لاو دو شكل ييِن شياوخه، فلا تعرف ما إذا كانت عيناها ذات جفنين أحاديين أم جفنين مزدوجين، ولا تعرف ما إذا كان وجهها دائريًا أم بيضاويًا، ولا تعرف ما إذا كانت قصيرة

أم طويلة القامة، ونحيفة أم سمينة... لقد كانت أمها غريبة عنها بدرجة أكبر من الغرباء أنفسهم. وفي وقت من الأوقات كانت لاو دو تتمنى معرفة شكلها، لكن ييين قه كان يرفض إخبارها بشيء، وكان يكتفي بقوله لها «أمكِ جميلة ورقيقة وطيبة القلب، وهي الآن في مكان بعيد جدًا، وستعرفين شكلها بعدما تكبرين» وبعد ذلك، بعد أن كبرت لاو دو حقًا، حينما صار ييين قه أخيرًا يحدثها عن تلك المرأة بصراحة، لم تعد لاو دو ترغب في الاستماع إليه، فقد كانت دومًا تسد أذنيها بيديها، وتصيح في وجهه: «لا أريد سماعك! ليس لديّ أم!» ييين شياوخه هي ألم أبدي لدى لاو دو وبين قه، وهي جرح مستمر لا تصفه الكلمات.

«فكيف ستبحثين عنها إذن؟».

أجابت لاو دو: «إذا كانت هنا سأجدها بالتأكيد» كانت لاو دو تأمل لو سطعت الشمس فتبدد ذلك الضباب المتراكم. وفي تلك اللحظة صدر فجأة صوت صراخ من داخل الفيلا.

انطلقت لاو دو والسمكة السوداء راكضين باتجاه الصالة الكبرى.

«ماذا تريدون؟».

«لا يمكنكم أخذه!».

كان الصراخ من الخالة لي! لقد كانت تحاول منع بضعة رجال في ملابس سوداء يحاولون أخذ الدب لكنهم لم يلقوا بالًا لصراخها ومحاولاتها، وجزوا الدب الجالس بالصالة يرسم عنوةً.

حاول الدب بكل قوته أن يصرخ، لكنه حين فتح فمه حقنه أحدهم في صدره بمخدر، فسقط على الأرض. وعندما وصلت لاو دو والسمكة السوداء، كان أولئك الرجال قد وضعوه بسرعة في سيارة سوداء.

صرخت لاو دو وأطلقت ساقيها للريح تريد أن تلحق به، لكن السمكة السوداء أمسك بها وقال: «لا، توقفي».

استماتت لاو دو للخلاص من يده، لكنه على العكس أحكم قبضته أكثر.

قال السمكة السوداء: «فلنذهب إلى حبة القهوة؛ بالتأكيد لديها الحل!» وحاول بكل قوة أن يشد لاو دو إلى داخل الفيلا.

وجدا حبة القهوة في الغرفة الأكبر حجمًا والأكثر خواء.

كانت جالسة فوق فراش كبير، وتمسح بالكحول يدي ذلك الرجل الذي لا تنخفض حرارته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشديدة.

قال السمكة السوداء: «أختي قهوة، لقد جاء مسؤولو قلعة الدببة وأخذوا الدب!».

سمعت حبة القهوة السمكة السوداء، لكنها حتى النظرة لم تنظرها إليه، بل ظلت تتمتم للرجل بكلام سريع دون توقف: «لاوكا، هل تريد بذلك أن تخيفني؟ أنصحك بألا تتعب نفسك، ألست أنت مَن قال إنني أشبهك تمامًا في جرأتي وعدم خوفي من أي شيء؟ دعني أخبرك، أنت لست معرّضًا لاحتمالية التحول إلى دب هل تظن أن ذلك المرض يصيب غريبي الأطوار مثلك؟ لا، فهو لا يصيب إلا ذوو القلوب الطيبة، مثل أمي، أما قساة القلوب مثلك، فكيف يصابون به؟ لذلك لا تقلق، واسترح جيدًا وأنا اليوم في مزاج جيد، فسأساعدك، ولكن إياك وأن تظن أنني بذلك أريد أن أصالحك...».

علت وجه لاو دو حمرةٌ من فرط التوتر.

صاح السمكة السوداء: «أختي قهوة...».

«ألا تراني مشغولة أيها السمج؟».

كرر السمكة السوداء قوله: «لقد أخذوا الدب!».

عاودت حبة القهوة مسح جبهة الرجل بالكحول. وقالت له: «ألم يكن هذا الأمر ليحدث عاجلًا أو آجلًا؟».

كان الرجل مغمضًا عينيه بإحكام، ولا يظهر إن كان مستغرقًا في النوم أم يتظاهر بذلك...

«أختي!».

ردت: «أنا مشغولة» وألقت على لاو دو نظرة بلا أي مبالاة، بينما كانت لاو دو تحدق النظر فيها. شعرت لاو دو بأن قلبها سيحترق حتى يجن جنونها، إذ لم تستطع بأي حال أن تتخيل شكل عالَمها بدون يين قه، فهي لا تزال كما كانت دومًا، تحبه حبًا جمًا لا مثيل له، حتى وإن صار دبًا.

أدركت حبة القهوة ما يعتمل بداخل قلب لاو دو، فقالت لها بنبرة هادئة على غير عادتها: «لا داعي للعجلة، ولا فائدة من قلقك على أي حال».

«ولكن...».

«ولكن ماذا؟ مالكما لا تفكران سريعًا في طريقة ناجعة لتخفيض الحرارة؟!».

قال السمكة السوداء: «لا يأتي ببالي شيء».

«وأنتِ؟ يا بنت».

«أخذ حمام دافئ، والمسح بالكحول، وتناول الدواء، والنوم على قربة ماء مثلج»...

«هل يفيد ذلك المصابين بمرض التحول؟».

«يقال إنه لا يفيد».

«فلماذا تخبريني بهذا إذن؟».

استدرات لاو دو تريد أن تغادر، لكن السمكة السوداء صدّها وهو يقول لها: «يا بنت، هل يمكن أن تهدأي قليلًا؟».

«إنك...» قاطعتها حبة القهوة: «لا تصبي غضبك علينا، فكري معي في حل، وإلا تحوّل هذا البيت فعلًا إلى جحر دببة».

أي طريقة يمكن أن تنفع؟ وقف ثلاثتهم برهةً يحدق في الآخر. وفجأة قطعت لاو دو الصمت بقولها: «جربي أن تعامليه بلطف».

«أعامله بلطف؟» وبدا على حبة القهوة والسمكة السوداء تفاجئهما من «وصفة» لاو دو.

«نعم، فأنا حينما أمرض وأتألم، وعندما أحزن وأغتم، آمل أن يعاملني الآخرون بلطف، خاصة أقرب الأقربين إلى قلبي».

قالت حبة القهوة: «أنا الآن لطيفة معه بما يكفي».

«أنتِ لا تنادينه بأبي حتى».

«لقد صدأت هذه الكلمة في عالَمي منذ زمن بعيد».

رد السمكة السوداء ضاحكًا مستهزئًا: «يمكنك مسحها بالكحول».

«مسحها؟».

«نعم، افتحي فمك، هكذا: أ- بي، سهلة جدًا!».

تمتمت حبة القهوة: «أ- بي».

تحرك جفنا الرجل الراقد فوق الفراش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت حبة القهوة متظاهرةً بالغضب: «اخرجا من هنا!».

خرجت لاو دو والسمكة السوداء من الغرفة بعد «طردهما».

قال السمكة السوداء للاو دو وهو يرمقُ الغرفة بعينيه: «تخجل من معاملته بلطف أمامنا».

وفي الظهيرة، أخذ كلاهما بعضًا من الفواكه إلى حبة القهوة. ما إن دخلا الغرفة، حتى طارت فوطة من يد حبة القهوة القهوة إلى رأس لاو دو «لا تنظري إليّ بهذا الوجه السخيف!». نظر السمكة السوداء إلى لاو دو العابسة وقال: «بالها مشغول بالدب».

قالت حبة القهوة: «حسنًا، بما أننا سنذهب إلى قلعة الدببة على أي حال، فلنذهب الآن» وفجأة قفزت حبة القهوة عن فراش لاوكا وهي حافية القدمين.

قال السمكة السوداء: «ممتازا كنت أعرف أن أختي قهوة تُخلص كل الإخلاص لأصدقائها، وهكذا تتصرف معهم وقاطعته قائلة: «دعك من هذا التملق، فأنا سأذهب لأنني منذ زمن أنتظر هذه الشرارة التي تُشعل ذلك المكان»

وفي هذه الأثناء، فتح لاوكا الراقد فوق الفراش عينيه فجأة، ونادى بصوت خفيض: «قهوتي». كانت حبة القهوة منحنية تنتعل حذائها، وتظاهرت بعدم سماعه...

سألها لاوكا بصعوبة ومشقة: «هل قررت الذهاب إلى قلعة الدببة حقًا؟». لم ترد حبة القهوة جوابًا، بل ظلت تربط وتفك رباط الحذاء.

حاول لاوكا الجلوس بصعوبة، وقال للاو دو: «سمعت أن دبك تكلم صحيح؟». هزت لاو دو رأسها إيجابًا.

راح الرجل يغمغم برهةً: «لم أتوقع ذلك، إطلاقًا» ثم قال لحبة القهوة: «يا قهوتي، داخل المكتب الموضوع في يسار غرفة الكتب تصريح دخول خاص بقلعة الدببة كان عمدة المدينة أعطاني إياه».

ردت حبة القهوة بخشونة: «فهمت».

«وأيضًا، ضعي عليكِ المزيد من الملابس، ويفضل ألا ترتدي حلقة الأنف مرة أخرى، إذ يقال إنها تسبب جروحًا بالأنف».

«هل يمكنك التوقف عن هذه الثرثرة؟».

قال لاوكا بنبرة فيها تردد: «صرت أحسن كثيرًا الآن، وإذا أمكن... إذا كان ممكنًا، أريد أن أرى الدب لا، أرى أمك».

قالت حبة القهوة: «هي في غرفة الزهور التي طالما أحبتها، اذهب لها» ثم خطت خطوات واسعة إلى خارج الغرفة و شعرها الأحمر الكثيف يهتز فوق كتفيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

19. الدخول سرًا إلى قلعة الدببة

كان الضباب كثيفًا كما هو دومًا، وثقيلًا كمرارة دفينة لن تزول، وكان السائرون وسطه كأرواح تتهادى كل روح منها وحيدةً في هذا العالم شعر السمكة السوداء بالخوف من هذه الوحدة، وبادر بكسر الصمت قائلًا: «هل سمعتِ قصة قلعة الدببة من قبل؟».

هزت لاو دو رأسها نفيًا.

«طبيعي، فأنت لا تعرفين قلعة الدببة من الأساس، فكيف لكِ أن تعرفي هذه القصة».

وراح السمكة السوداء يحكي بلا توقف:

«كان قلعة الدببة قديما تسمى القلعة الخضراء، وقد كانت أكبر وأفخم مكان في مدينة يوقو ممراتها كالمتاهات، وغرفها رائعة لا مثيل لها.

عاش بالقلعة الخضراء أجمل امرأة وأوسم رجل، ومعهم ابنهم الذكي الموهوب، حياةً سعيدة هنيئة لا حزن فيها ولكن في أحد الأيام، كبر ذلك الابن، وأحبّ ابنة إسكافيّ فقير بائس، وبادلته تلك الفتاة الجميلة المشاعر نفسها.

Telegram:@mbooks90

ولكن، كأي أبوين في هذا العالم، عارض أبواها الثريان وجميلا المحيا هذا الحب بشدة، وأملا أن يجد ابنهما فتاة تتكافئ معه حسبًا وثراءً. قاومهما ابنهما بكل الطرق، من البكاء إلى الامتناع عن الطعام، ولكن دون فائدة، فقرر الهرب مع حبيبته ولكن في الليلة السابقة ليوم الهروب، حبسه أبواه في غرفته.

ولأجل أن يذهب إلى موعده، خاطر ذلك الصبي وقفز من القلعة القديمة، ولسوء حظه لم يقع

على أرض عشبية، بل كان في انتظاره كابوس أبدي، فقد شلت ساقاه، وصار من تلك اللحظة عاجزًا عن المشي وبعدما عرفت الفتاة بهذا الخبر، اختفت، إذ ذهبت في السر إلى مكان آخر، ولم تعد بعدها أما الصبي، فقد نسي لاحقًا تلك الفتاة، وتزوج بابنة خبّاز، وعاش حياة عادية كغالبية الناس إلى أن مات».

قالت لاو دو بشفتين متبرمتين: «هذه القصة مؤلمة».

قال السمكة السوداء: «ولكنها على الأقل بلا نهاية مأساوية».

«هذا لأنك لم تحكِ نهاية تلك الفتاة التي تخلت عن حبيبها».

«أي نهاية إذن تتمنينها لها؟».

هل تتمنى لها السعادة؟ أم هجران الحبيب كما فعلت؟ لم تعرف لاو دو أي النهايتين تفضّل، مثلما لا تعرف ماذا تتمنى لبين شياوخه، هل تتمنى لها العيش في سعادة؟ أم العيش في ندم ولوعة؟

وفجأة ظهر صوت حبة القهوة بالجوار تقول: «لو كان الأمر بيدي، لزوّجتها بأوسم أمير في العالم، ثم أفقدت ذلك الأمير ثروته شيئا فشيئا إلى أن يصبح متسولًا، وغيرت أيضًا ملامحه الوسيمة شيئا فشيئا، إلى أن يتحول إلى دب».

«أفكار أختي قهوة دائمًا شريرة ومتفردة أما أنا فأتمنى لها مقابلة شخص عادي، وعيش حياة عادية».

قالت حبة القهوة: «غبي، ألا تعرف أن الحياة العادية لا يعيشها إلا سعيد الحظ؟» ثم تنهدت وتابعت: «أسعد حياة يمكنني تخيلها هي عيش حياة عادية رتيبة».

لم يتمالك السمكة السوداء نفسه فضحك ضحكة مكبوتة، وضحكت لاو دو كذلك، إذا بدا هذا الكلام من فم حبة القهوة غريبًا عجيبًا إلى أقصى حد.

قالت حبة القهوة بنبرة جدية صارمة: «أقول الحقيقة».

قال السمكة السوداء: «حسنًا، أعرف أنكِ تقولين الحقيقة أما أنا فأرى أن أسعد حياة يمكن أن أعيشها هي العثور على زوجة جميلة وطيبة، تنجب لي دستة أطفال، وأجلس أنا تحت أشعة الشمس لبيع بيض الشاي».

قالت لاو دو: «وأنا أكثر ما أتمنى أن ألف العالم مع يين قه حتى نرى جميع الأماكن الجميلة،

ونتناول جميع الأطعمة الشهية».

مالت حبة القهوة برأسها وسألتها وهي تلوك الكلام: «أليست أمنيتك هذه... بعيدة المنال؟ وغير ذلك، ألن تتزوجي وتنجبي؟».

«أنتِ التي ستتزوج وتنجب!».

قالت حبة القهوة ضاحكةً وهي تلف ذراعها على لاو دو: «بالتأكيد سأتزوج وأنجب. ألم تفكري في ذلك من قبل؟»

«لا».

«حقًا؟».

«حقًا!».

رفع السمكة السوداء سبابته فجأة وهو يقول بصوت منخفض: «صه، وصلنا قلعة الدببة».

قلعة خضراء مشيدة على النمط الباروكي يغطيها بالكامل شجر لبلاب بوسطن واللبلاب دائم الخضرة، تقف شامخةً وسط الضباب الكثيف فلا يكاد يُرى منها شيئًا، كعملاق ذي ملامح صارمة، يريد صدّ كل زائر يضمر شرًا.

«من هناك» أخرجت حبة القهوة تصريح الدخول، ثم رفعت ذراعها بها أمام البوابة الحديدية الضخمة، بعد أن وقفت طويلًا تنظر من خلال الشق إلى ما بالداخل.

فُتحت البوابة فجأة، وبسهولة أكبر من المتوقع.

بدا الفناء الفسيح أمام القلعة كجيب كبير مفتوح، في انتظار الغزاة يوقعون أنفسهم في الفخ.

سأل السمكة السوداء مستغربًا: «ألا يوجد ولو حارس واحد هنا؟».

قالت لاو دو: «أمر غريب فعلًا» وسكتت قليلًا ثم تابعت: «على العموم، كل شيء هنا غريب».

اقترب الثلاثة من القلعة. قال السمكة السوداء: «لقد جئت هنا من قبل بالطابق السفلي 30 غرفة، وبالطابق العلوي 25 غرفة، ولا بد لنا من أن نعرف أولًا إلى أين أخذوا الدب بالتحديد».

حدجته حبة القهوة بنظرة زاجرة وقالت: «يبدو أنك تعرف المكان هنا معرفة وافية».

قال السمكة السوداء مبتسمًا بوقاحة: «بالطبع، فأنا السمكة السوداء الأشهر من نار على علم، فكيف يفوتني مثل هذا المكان الفريد؟» فضربته حبة القهوة بكفها على قفاه.

قال السمكة السوداء منكسرًا: «أهذا وقت ضرب يا أختي قهوة؟».

فردت حبة القهوة على سؤاله بسؤالها: «وهل هذا وقت مزاح أيها السمج؟» وقاطعتهما لاو دو قائلة: «وهل هذا وقت شجار؟».

وقفوا يحدق كل منهم بالآخر، ويهدئ نفسه، إلى أن قرروا أخذ لفة حول القلعة القديمة بمحاذاة الأرض الزلقة وعلى غير توقع، فسرعان ما اكتشفوا غرفة كبيرة للغاية، بها عدد هائل من الدببة ما بين جالس وراقد ونائم وسائر.

قال السمكة السوداء مندهشًا: «إنهم المصابون بمرض التحول من أهل المدينة».

اكتشف بعض الدببة وجودهم خارج النافذة وبدؤوا يصرخون، فدخل رجل يلبس زيًا رسميًا، فقرفصوا سريعًا لئلا يراهم.

راح الرجل ذو الزي الرسمي يثرثر في كلامه: «لا تعووا، إن كان لكم صبر على ذلك فأنا ليس لي، وإن كنتم ترغبون في الخروج من هنا بأقرب وقت، فرغبتي في ذلك أكبر، وإن كنتم تشعرون بأن هذا المكان حبس، فأنا أشعر بأنه سجن... اطمئنوا، وانتظروا حتى يكف أولئك المتحذلقون عن إجراء التجارب عليكم، ويعجزوا عن إيجاد علاج لكم، وحينها تصيرون أحرارًا».

وفجأة صدرت طقطقة عندما جزت حبة القهوة على أسنانها وهي تقول: «إنهم يتعاملون مع المرضى على أنهم دببة فعلًا! الأوغاد!» أما لاو دو، فما إن فكرت في أن الدب سيجلب إلى هذه الغرفة أيضًا وسيحقن بمختلف العقاقير المجهولة، حتى تحزقت رغبةٌ في الدخول على الفور، وقلب جميع الغرف رأسًا على عقب...

«سوف ترون، الأيام بيننا، ويومًا ما سأصفّي حسابي مع ذلك الملعون عمدة المدينة ستصير هذه المدينة جحيمًا عمّا قريب بسبب ذلك الذي يسميه بالحظر».

قال السمكة السوداء: «لا تذكري الجحيم أمامي، اتفقنا؟ انظري، لقد اقشعر جسمي كله» ورفع كمه ليُري لاو دو وحبة القهوة جلده المحبب، لكن أيًا منهما لم ترفع نظرها إليه، وظلت تسير مقوسةُ ظهرها نحو نافذة أخرى تاركةً إياه خلف ظهرها.

ظلوا يدورون حول جدار القلعة كالأبراص حتى وجدوا أخيرًا الغرفة التي حبسوا الدب فيها. كان بداخل الغرفة أستاذ جامعي قد عمّ الشيب رأسه ويضع نظّارة سميكة. كان يسأل الدب الجالس على كرسي أمامه بنبرة فيها شك: «هل هذا رسمك؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أومأ الدب برأسه وهو ينظر إلى الرسم الزيتي لبحر كبير يقف أمامه فتاة تمسك بيدها الصغيرة يد أبيها أسفل أشعة الشمس.

«سمعت أنك تستطيع الكلام؟».

أومأ الدب برأسه ثانيةً.

قال السمكة السوداء بصوت منخفض: «ذلك الملعون الذي يسمى الكعكة المستديرة هو بالتأكيد مَن أفشى لهم هنا بهذا الأمر، كان عليّ في تلك الليلة أن ألقنه درسًا لا ينساه».

قالت له حبة القهوة مخفضةً صوتها غنوةً وهي ترميه بنظرات متحجرة: «وكيف ستلقنه هذا الدرس؟ بالكلام؟» ثم أطبقت يدها على فمه بقوة لتمنعه من مواصلة الحديث.

تقمص ذلك البروفيسور شخصية الصديق المهتم بصديقه، وراح يربت بقوة على كتف الدب وهو يقول له: «سيدي الدب، يبدو أنك لا تعرف هذا المكان؟ السيد الإصبع الحديدي الفاضل، لا، أقصد السيد عمدة المدينة، قد أسس هذا المكان خصيصًا من أجل جميع الأسر، وأيضًا بالطبع من أجل الحفاظ على صورة جميلة لمدينة يوقو، وكان هدفه علاج مرضكم بأسرع ما يمكن، حتى تعودوا إلى هيئتكم الأصلية، وتعيشون حياة هنيئة».

هز الدب رأسه دلالة على فهمه الكلام...

«ولكن، كما ترى، قد بذلنا جهودًا مضنية طوال خمسة أعوام كاملة، وجربنا عقاقير لا تحصى، وبنينا العديد من الألعاب التي تساهم في علاجكم، كما افتتحنا مكتب علاج نفسي مخصصًا لكم، ولكن دون جدوى... حسنًا، فلأتحدث معك بصدق، حتى الآن لا يوجد مريض يمكنه التواصل معنا بسهولة مثلك، وبالطبع لا يوجد مريض استطاع الحديث من جديد. لذلك أود أن تخبرني فضلًا كيف استطعت ذلك؟».

لم ينبس الدب بكلمة.

«ربما يمكنك إخباري بالرسم» ورفع البروفيسور نظارته، وأعطى للدب قلمًا وورقة. وبعد مرور بعض الوقت، أخذ الورقة ليجد أن المرسوم بها وجه فتاة فحسب.

«مَن هي؟ ملاك؟».

هز الدب رأسه نفيًا.

«ابنتك؟ بالمناسبة، سمعت أنها مَن جاءت بك إلى هذه المدينة، صحيح؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أومأ الدب برأسه. «وهل هي مَن عالجتك؟».

عوى الدب.

تمتم البروفيسور ذو النظارة: «لا أفهم ما تقصد بالتحديد. هل هي نابغة جديدة في علم الطب؟ فكيف لم أسمع باسمها من قبل؟».

وفي تلك اللحظة دفعت حبة القهوة الباب بقوة ومعها لاو دو، وقالت له: «مَن يضع نظارة ذات عدسات سميكة مثلك بالتأكيد لن يفهم».

وقف خلف حبة القهوة مباشرةً شرطي فسن ذو ملامح غليظة كالغوريلا وزعق: «لم أستطع منعهم من الدخول يا بروفيسور، وتقول هذه الآنسة إن معها تصريح دخول».

«أليس بسبب أنك غفوت إذن؟».

«لا يا بروفيسور، لم أغفُ اليوم. معها تصريح حقًا».

«معه حق معي تصريح خاص بالفعل». وخطفت حبة القهوة ورقة الرسم من يد البروفيسور، وتابعت كلامها: «والآن، دعني أشرح لك».

رد البروفيسور ببعض الحيرة: «حسناً، كلّي آذان صاغية».

«الفتاة الموجودة بهذا الرسم هي نفسها التي الآن أمامك، صديقتي الآنسة لاو دو. لا داعي يا بروفيسور لأن تفرك عينيك لترى أوضح، فهي بكل تأكيد وبلا أدنى شك الفتاة التي في الرسم أوه، لا تؤاخذني، فأنا دائمًا ثرثارة هكذا، هذه الفتاة هي ابنة هذا الدب، لا، أقصد السيد يين قه. جاء كلاهما من مدينة تشيباي، وقد رافقته ولم تتركه في كل ما مرّا به، مصرةً على أن تجعله يعيش حياته الطبيعية كما كان قبل التحول، فتأخذه إلى المطاعم، وتصحبه للتسوق، وتخرج معه للتجول في الشوارع... باختصار، إنه في عيني هذه الآنسة الفاضلة ليس دبًا، بل مريض بالتحول لا أكثر، إنه والدها! أرأيت؟ هكذا الأمر بكل بساطة».

سألها البروفيسور بارتياب وهو يدفع نظارته السميكة إلى الأعلى: «هل تقصدين أن خلق المعجزة ممكن وأن المصاب بالتحول يمكنه استعادة هيئته الأصلية تدريجيًا بمجرد أن يعيش حياة طبيعية كالبشر؟».

«لا يا بروفيسور، لم تفهمني، المعجزة لم تحدث لأن المريض عاش حياة طبيعية، بل لأن ابنته لم تتركه يومًا ورافقته منذ البداية دون أدنى تردد».

خفض البروفيسور رأسه متمتما: «يعني كلامك أن... أن الحب هو الذي خلق المعجزة؟» وقد بدا أنه لم يستوعب الأمر. وحينها غمزت حبة القهوة للاو دو. أومأت لاو دو برأسها، وربتت يدها بخفة على الدب وبينما كان الجميع يهمّ للهرب، وقف البروفيسور يدقق نظره في لاو دو.

«لم يخطر على بالي قط أن العلاج الذي عجز عشرات من الأساتذة الجامعيون والعلماء الحيويون عن اكتشافه بسيط بهذا الشكل. ممتازا ممتازا! ولكن، لماذا أشعر بأن وجه هذه الفتاة مألوف لديّ؟ هل تقابلنا من قبل؟».

قالت حبة القهوة ضاحكةً وهي تغمز مرة أخرى للاو دو: «سيدي البروفيسور، إنك ماهر حقًا في التقرب من الآخرين والتودد إليهم كيف يمكن أن تكون رأيتها من قبل؟».

قالت لاو دو: «آسفة يا بروفيسور، أظن أنك مخطئ، فنحن لم نتقابل من قبل قط».

«مستحيل أنا متأكد من أنني رأيتك بمكان ما من قبل».

وبينما كانت لاو دو تفكر في دفع ذلك الرجل صاحب النظارة الذي يسد طريقها للهرب، سمعت فجأة وقع أقدام بالخارج، وذلك الشرطي العجوز الواقف عند المدخل يصيح بأعلى صوته وقد كاد يطير فرحًا: «مصيبة يا بروفيسور، لقد شبت النار في غرفة الوثائق! مركز جمع البيانات يحترق!».

قال البروفيسور: «تحترق؟ دعها تحترق، فتلك الوثائق لا فائدة منها على أي حال» وألقى بجسده على كرسي، وجلس ينظر ببلاهة إلى حبة القهوة ولاو دو ومعهما الدب يركضون أمامه للخارج.

دبت الفوضى في قلعة الدببة، وركض جميع الموظفين والضباط والعاملين بالشؤون الداخلية والعاملين الطبيين لغرفة الوثائق. ولم يعِر أي أحد اهتمامًا لذلك الصبي الذي يسير في الاتجاه المعاكس.

وفور أن رأت حبة القهوة السمكة السوداء، نزلت بكفها على قفاه مرة أخرى، وقالت له: «عليك اللعنة، ألم تستطع إشعال النار مبكرًا قليلًا؟».

قال لها السمكة السوداء لاهث الأنفاس وهو يمسح عرقه الذي ملأ وجهه: «لقد تحركت بأسرع ما يمكنني يا أختي».

«هل تعرف كم أتعبت لساني في حديث طويل وإسهاب غوغائي لإثارة تعاطفه حتى تأتي؟».

«أنتِ إذن تعرفين الديماغوغية» الغوغائية»؟ لا يبدو عليكِ أنك مثقفة».

«أعرفها بالطبع، فقد كنت نابغة في الدراسة».

«نابغة؟ هاه هاه» وانفجر السمكة السوداء ضحكاً.

سمعت لاو دو ضوضاء وصوت وقع أقدام آتية تركض من مكان ليس ببعيد، فزعقت وقد نفد صبرها: «يا أنتما، ليس الآن وقت الجدال في هذه الأمور».

«يا بنت، اهدأي، وخذي هذا واذهبي إلى البوابة وانتظرينا، وإذا لم نصل في الوقت المناسب، خذي الدب وارحلي» ووضعت حبة القهوة تصريح الدخول بيد لاو دو..

«ألن تظلّا معًا؟».

تحسست حبة القهوة الحلقة التي تضعها في أنفها، وهزت شعرها الأحمر الناري، وقالت وعلى وجهها بسمة باردة: «هناك أمر أهم يجب أن أنجزه».

قال السمكة السوداء للاو دو وهو يدفعها بقوة هي والدب باتجاه البوابة: «ما لكِ تقفين شاردة الذهن يا بنت؟ خذي الدب وغادري فورًا!».

كان الدخان الكثيف يتصاعد من إحدى غرف الطابق الثاني دون توقف، حيث كان الناس يتدافعون ويهرعون منها وإليها، بينما كان بعضهم يقف بالجوار يصرخ، ولم ينتبه أي منهم للاو دو والدب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفت لاو دو عند البوابة الحديدية الضخمة ترتجف من التوتر والخوف من أن يلحق بهما أحد، ومن أن يمسكوا بحبة القهوة والسمكة السوداء. لكن هناك مَن شد على يدها بقوة...

إنه الدب!

نظر الدب في عيني لاو دو، وفجأة قال: «لا تخافي!».

كانت نظرات الدب بذلك الدفء، تلك نظرات يبين فه التي تفيض حبًا وحنانًا، كما كانت دومًا...

تنادي لاو دو برقة: «أبي» لم تقل هذه الكلمة منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، منذ أن كانت ترفض أن يرى مذكراتها، وأن يدخل غرفتها، وأن تخبره بما يجري معها في المدرسة... لقد كانت تناديه باسمه، ظنًا منها أنها بذلك تساير موضة العصر، وأنها بذلك صارت على قدم المساواة معه، وأنها كبرت ولم تعد بحاجة إليه، لكنها وفي تلك اللحظة، نطقت مرة أخرى هذه الكلمة اللطيفة الدافئة إلى أقصى حد، والمفعمة بالحب والسعادة.

أشرقت شمس يوم جديد، والتمعت في السماء، فبدت كقرص صفار البيض الخارج لتوّه من الفرن وتبدد الضباب الكثيف شيئًا فشيئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

20. زوّار فيلا الفأس المكسورة

نظرت لاو دو إلى الدب، ثم رفعت رأسها لتتطلع في سعادة إلى قرص الشمس المألوف والغريب في آن واحد.

وفي هذه اللحظة، خرج السمكة السوداء فجأة من قلعة الدببة، وصاح بكل حماس: «اخرجوا يا رفاق!».

وقبل أن تدرك لاو دو ما حدث، شعرت بأن الأرض تهتز تحت قدميها، إذ خرجت مجموعة من الدببة خلف السمكة السوداء، وركضت باتجاهها هي والدب بسرعة فائقة. وقبل أن تطبق لاو دو فمها الفاغر، رأت حبة القهوة بشعرها الأحمر تركض نحوهما كالريح مثل روح شيطانية وسط نيران لاهبة.

تقدم السمكة السوداء مجموعة الدببة وهرعوا جميعًا إلى خارج القلعة، وتبعتهم حبة القهوة، ثم لاو دو والدب أخيرًا بعد أن أدركا ما يحدث.

كان وقع أقدامهم يهز مدينة يوقو بكاملها، ولاو دو التي كانت تركض بسرعة البرق مع الدب ملأتها الحماسة والانفعال فتسارعت دقات قلبها حتى كاد أن يخرج من صدرها، ويتعالي الصوت «اركضوا! اركضوا!» كأن خلفهم جيشًا جرارًا يلاحقهم... ولكن في الواقع، لم يكن خلفها أي أحد! أمر غريب، وغير مفهوم مطلقًا، كأن كل مَن كان يحرس المصابين بالتحول داخل القلعة من الضباط والخبراء والعاملين الطبيين والعاملين بالشؤون الداخلية، لا يعرفون شيئًا عنهم ويجهلون أمر هروبهم تمامًا.

وعندما اجتاز ذلك الجيش الجرار بقيادة السمكة السوداء شوارع مدينة يوقو، توقف جميع سكانها، وقد اتسعت حدقات عيونهم من الصدمة، وفُتحت جميع نوافذ المدينة كلها نافذة تلو الأخرى، وامتلأت بالرؤوس التي خرجت تنظر إليهم... صار العالم كله ساكنًا على نحو غريب،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمشهد الوحيد فيه هو أولئك الأطفال الراكضون الثلاثة ومجموعة الدببة من خلفهم.

بدت الفيلا الذهبية أسفل أشعة الشمس مشرقةً متوهجة كأم حنون تفتح ذراعيها على اتساعهما لاستقبال هذا الحشد القادم مع السيد لاوكا والدبة البيضاء.

أشار السيد لاوكا الواهن خائر القوى للسمكة السوداء الذي يدور أمامه مثل دوّامة هواء: «اصطحب الدببة... لا، أقصد المصابين بالتحول، للداخل».

وهكذا اندفع جميع الدببة كالأمواج خلف السمكة السوداء إلى داخل الفيلا الفاخرة.

استدار لاوكا وأمر الخالة لي التي تقف قريبًا منه دومًا: «خالة لي، جهزي الحمامات والطعام الشهي من أجل الضيوف».

«تحت أمرك!».

توقفت خطى حبة القهوة بغتةً حين رأت تلك الدبة البيضاء الجميلة.

نادت برقة: «أمي».

«أمي!».

«أمي!».

ظلت حبة القهوة تنادي وهي «تطير» كالعصفورة نحو الدبة البيضاء بفرح وسعادة.

تعلقت حول عنق الدبة وقالت وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة: «أمي».

حكت الدبة جبهتها بوجه حبة القهوة بخفة، كما لو كانت تخبرها بشيء ما.

نظرت حبة القهوة إلى لاو دو الواقفة خلفها لتسألها: «ستتعافى بكل تأكيد، أليس كذلك؟».

أومأت لاو دو برأسها مرارًا بكل قوة.

عانقت حبة القهوة الدبة ورفعت رأسها وقالت: «أرأيت يا أمي؟ ستتعافين بكل تأكيد، وستستعيدين ملامحك الجميلة، وستمسكين بيدي وتأخذينني إلى الحديقة كما كنا نفعل من قبل، وسنخرج للتنزه في الشوارع والتسوق وتناول الطعام... سأرافقك في كل لحظة، وسأبقى بجوارك للأبد!» كان الفرح يغمرها وهي تتحدث وتضحك كما لو أن هذا العالم لم يعد مهمًا فيه إلا أمها التي أمكنها أخيرًا معانقتها تحت الشمس بكل حرية وبلا أي مانع وقف لاوكا ينظر إليهما ولم يستطع أن يحبس دموعه.

ناداها بصوت منخفض: «قهوتي».

توقفت حبة القهوة عن الضحك، ونظرت إليه بطرفي عينيها.

«لقد انخفضت حرارتي كثيرًا» وتوقف قليلًا ثم تابع: «شكرًا لك!».

سألته بازدراء: «علام تشكرني؟».

قال لاوكا متمتمًا: «على... علام أشكرك؟».

نظرت حبة القهوة نظرة لعوب إلى لاوكا الحائر قليلًا، وفجأة تغيرت نبرتها دون وعي لتصير ناعمة رقيقة وهي تقول: «نعم، علام تشكرني؟».

وفي غمضة عين تحولت عينا لاوكا من اللون الرمادي إلى الأزرق الفاتح، وتطايرت منهما شررًا جميلًا، وغمرتهما سعادة مفاجئة. فهم أنها سامحته، فسار نحوها، ولفّ ذراعه حولها.

لم تستطع على ذلك صبرًا، فحاولت التملص منه وقد ارتسمت بسمة على شفتيها دون أن تشعر وهي تقول له: «أيمكن أن تكف عن ذلك؟ لم أعد طفلة!»، فضحك لاوكا، ورفع ذراعه عنها، ووقف أمام الدبة البيضاء، وراح كل منهما ينظر في عيني الآخر كما لو كانا يتحدثان بلغة لا يفهمها سواهما.

قالت حبة القهوة: «لاوكا، لا تظلم أمي مرة أخرى».

قال لاوكا بلطف: «تحت أمرك».

«ولا تتخلَّ عنها حتى لو ظلت دبة طوال العمر».

«أقسم لكِ أنني لم أفكر بذلك قط».

«خذها للتجول في الشوارع والتسوق وتناول الطعام بالخارج».

«من اليوم سآخذها ونخرج معًا للتجول في الشوارع والتسوق وتناول الطعام» ثم غيّر موضوع الحديث فجأة، وقال بجد وصرامة: «صحيح، ابنتي الحبيبة، حلقة الأنف ضارة حقًا».

دقت حبة القهوة الأرض بقدميها غضبًا وهي تقول: «هل تعرف إلى أي مدى أنت مخرب للمزاج الحلو - مفسد للمتعة - هادم للحظات الحلوة يا أستاذ لاوكا؟».

ولا تعرف ما إذا كان نظرها يخدعها، ولكن لاو دو رأت الدبة البيضاء الواقفة جوارهما تبتسم. هب عطر زهرة أغلايا خفيف، وقد ذهب لاوكا ووقف أمام لاو دو.

«اسمك لاو دو، صحيح؟».

أومأت لاو دو برأسها. «أعتذر إليك مما قلت في تلك الليلة من كلام لا يليق».

«لا مشكلة».

«وأيضًا، أريد أن أشكرك على أن أعدت ابنتي إلى جواري».

«لقد بقت بإرادتها إلى جوارك للاعتناء بك».

«على كل حال، أريد أن أشكرك، أنتِ ودبّك أيضًا، لا، أقصد والدكِ» ورفع لاوكا رأسه ليسأل الدب: «أنت بالتأكيد سعيد لأن لديك مثل هذه الابنة!».

لم يقل الدب شيئًا، بل نظر فقط إلى لاو دو بحنان ودفء، بينما كانت واقفة تستمتع بأشعة الشمس المبهجة الساحرة وهي تشعر بأنها في هذه اللحظة تعيش سعادة لا مثيل لها...

امتلأت صالة الفيلا بالدببة، وشعرت لاو دو بأنها في حلم.

راحت لاو دو «تستجوب» السمكة السوداء: «كيف فعلتما ذلك؟».

قال لها بزهو وغرور وهو يرفع إبهامه نحوه: «مَن أنا؟ أنا السمكة السوداء الأشهر من نار على علم، ولا يعجزني شيء في هذا العالم».

«صحيح، نسيت أنك لص، ويقال إن اللصوص ماهرون مهارة فائقة في فتح الأقفال الموصدة».

ولما سمع السمكة السوداء قولها حكّ رأسه وقال مقهقهًا: يا بنت، ألم أعد لكِ كيس جواربك؟ لمَ ما زلتِ تحملينها لي في قلبك؟! وفضلًا عن ذلك، فقد قررت أن أنظف يديّ وأتوب عن السرقة».

تقدمت نحوهما حبة القهوة بحذاء جلدي أحمر، وقالت: «ومتى قررت ذلك أيها المشاغب؟».

ضحك السمكة السوداء ضحكة سخيفة وقال: «الآن، قبل دقيقة واحدة».

«لن تستطيع أن تنظف يديك إطلاقًا، مطلقًا، ما دمت أنا موجودة».

«حقًا؟ ولا حتى قبل الأكل وبعد قضاء الحاجة؟».

قذفته حبة القهوة بوسادة الأريكة وهي تقول له: «أيها المشاغب السمج!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسنًا، لن ننظف أيدينا، ولكن هل سيوافق والدك؟».

«ليس له علاقة!».

«لا تتبجّحي، إذا كنتِ لا تطيعينه فعلًا، فهل كنت ستخلعين حلقة أنفك؟»

«ذلك لأنني أنا انزعجت منها».

جلس الدببة بعد الاغتسال نظيفين مهندمين في الصالة الكبيرة، وخرج إليهم بضعة خادمين بملابس أنيقة نظيفة أحدهم تلو الآخر حاملين أطباق الفواكه الطازجة. سألت الخالة لي عما إذا كان من الضروري أن تجهّز غرفًا لمبيتهم.

قال لها لاوكا: «لا داعي لذلك».

بعد ذلك، جلس السمكة السوداء ينظر بفضول إلى بوابة الفيلا المفتوحة على مصراعيها، وقال: «عجيب! أين مسؤولو قلعة الدببة حتى الآن؟».

ردت عليه حبة القهوة شاردةً وهي تلقي بحبة كرز في فمها: «لا تنتظرهم، لن يأتوا».

قالت لاو دو وهي تشعر ببعض الحيرة أيضًا: «وكيف عرفتِ؟».

قالت حبة القهوة: «أنا أعرف بالتأكيد! فكّرا قليلًا يا أغبياء. لقد دخلنا القلعة بكل سهولة، واقتحمنا غرفة ذلك البروفيسور الغبي بكل سهولة، وخرجنا بالدببة بكل سهولة. لقد سارت الأمور كلها بسلاسة ويسر. ألا تران أن الأمر غريب؟».

قال السمكة السوداء ضاحكًا بخفة ظل: «ألا تكون النار التي أشعلتها قد تأججت فأصابهم الذعر؟».

«أتظن حقًا أيها السمج أن أفعالك عظيمة إلى هذا الحد؟ أنا أرى أنهم منذ زمن بعيد يريدون التوقف عن البحث للتوصل إلى علاج وعن حراسة الدببة، ولذلك انتهزوا فرصة الحريق، وتعمدوا تركنا نهرب».

«تحليل منطقي! تستحقين أن تكوني أختي الكبيرة».

شعرت لاو دو كذلك بأن كلام حبة القهوة صحيح، إذ ما من تفسير آخر لعدم لحاق مسؤولي قلعة الدببة بهم.

«بالمناسبة، ألا يخشون من عمدة مدينتنا الصارم والعادل؟» ولأنه تذكر فجأة هذا السؤال،

فقد غص السمكة السوداء بعصير البطيخ.

فكرت حبة القهوة بعض الوقت، ثم قالت وهي ترفع أعلى كتفها: «لا أعلم. أختك الذكية لا تفهم ذلك أيضًا».

جلس الدب والدبة البيضاء معًا، وضرب كل منهما كفه بكف الآخر دلالة على أنهما فهما أخيرًا.

قالت لاو دو: «يقولان إنهما سيتعافان».

قالت حبة القهوة والسمكة السوداء في صوت واحد: «وكيف عرفتِ؟».

«أخمّن».

ودون أن يلحظ أحدهم، ظهر لاوكا فجأة خلفهم وقال: «صحيح، فمساعدة المرضى بعضهم بعضًا تساهم في علاجهم، أتريدون أن يساعد الدب جميع الدببة الآخرين؟».

لم ترد حبة القهوة عليه، بل نظرت إليه نظرة استنكار، فضحك، وحمل مشروبًا إلى الدب وبعد برهة، وقف الدب.

قال الدب متلعثمًا: «نحن... أنا، وأنت، وكلنا... سنتعافى».

ولما سمعه الدببة القلقون والمضطربون، هدأوا واطمئنوا جميعًا، وبدت عليهم علامات الدهشة.

قال لاوكا مزهوًا: «انظروا، هؤلاء الدببة يفهمون كلامه».

قالت له لاو دو تريد أن تصحح قوله: «لأنهم ليسوا دببة، بل مرضى».

وفجأة قالت حبة القهوة وهي تتمطع في كسل: «لقد أهلكنا التعب يا بنت، ألا تريدين الصعود معي إلى الأعلى لنستريح قليلًا؟ وتبدلين ملابسك أيضًا؟».

احمرّ وجه لاو دو، إذ لم تُحضر معها من تشيباي إلا طقم ملابس آخر فحسب لتخفف على نفسها الحِمل في السفر، وما عليها من ملابس قد فاحت رائحته الكريهة...

قالت حبة القهوة بلا مبالاة وهي تصعد إلى الأعلى: «أما أنا فلا أحب لبس الفساتين، خاصة تلك التي تشبه فساتين الأميرات والفساتين المنفوشة، وإنْ لم يكن لديك مانع، فلتخلّصيني منها كلها».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت لاو دو: «وأنا لا أحبها كذلك».

«تبدو الفتاة أجمل في الفساتين» فدهشت لاو دو وقالت: «تُرى مَن قال هذا الكلام؟ أوه، إنه لاوكا، يبدو أن الآباء كلهم في العالم كله يقولون لبناتهم هذا الكلام» ولفّت حبة القهوة رأسها وقالت تمازحها: «ما رأيك في أن ترتدي فستانًا منهم وتريه للدب؟».

قالت لها لاو دو: «لن أفعل!» ومع ذلك، فقد استدارت لتنظر إلى الدب الجالس في الصالة. كلام حبة القهوة صحيح، إذ إن ييين قه أيضًا قد قال لها إن الفتاة تبدو أجمل في الفساتين، لكنها ما إن تجاوزت العاشرة من عمرها، لم تعد تحبّذ ارتداء الفساتين، وبعد أن قال ييين قه ذلك،

توقفت تمامًا عن ارتدائها. إنها لا تصدق هذا الكلام، فهل هي لا تبدو جميلة حقًا إلا في الفساتين؟ وفضلًا عن ذلك، فكيف ستتزلج على الجليد أو تلعب كرة القدم أو تتعارك أو تجري خلف أحدهم وهي ترتدي فستانًا؟ ولكن لمَ شعرت بغتةً بأن التزلج على الجليد ولعب كرة القدم والعراك وكل هذه الأمور بعيدة عنها هكذا؟ كأنها لن تفعلها بعد ذلك. إذن فماذا ستفعل؟ لم تعرف لاو دو إجابة، بل شعرت فقط بهذا الشعور الغريب.

وبعد أن أخذت حمامًا ساخنًا، اختارت لاو دو لنفسها من فساتين حبة القهوة المتراصة بعضها بجوار بعض فستانًا فستقيًا اللون مزين بصفٍّ أزرار... إنه الفستان الذي كانت يين شياوخه ترتديه في الحلم.

شعر قصير متناثر، وجفنان أحاديان، ووجه بيضاوي، وشفتان رفيعتان، وأنف صغير، تعلوه بضع نقاط بنية شعرت لاو دو أمام المرآة بأنها ذاتها كما كانت، مع اختلاف بسيط ولكن واضح جدًا.

أقبل الليل وخيم الظلام، وامتلأت السماء بالنجوم.

وقفت حبة القهوة تنظر للسماء، وقالت بكسل: «سيكون الغد يومًا صافيًا مشرقًا».

عقّب السمكة السوداء على كلامها بقوله: «لولا الشمس لتعفنت هذه المدينة وأهلها».

«فلتتعفن، في أسوأ الأحوال سنترك البيت معًا كما فعلنا من قبل».

«أنتِ تهربين من بيتك، ولكني أهرب من المدينة، أتفهمين؟».

«أيها المشاغب السمج، كم سنة أكلت وشربت فيها هنا في هذا البيت، ألا يُعد بعد كل ذلك بيتك أيضًا؟ ولكن سواءً تركنا البيت أم تركنا المدينة، ففي كل الأحوال سأذهب بالتأكيد إلى مدينة يوكو. ولكن ماذا سنفعل في المرة القادمة هناك؟».

«ما رأيكِ في... التسوّل؟».

«نعم. لم نمتهن هذه المهنة من قبل، فلنجربها المرة القادمة».

هبّ تيار دافئ على لاو دو الجالسة بالجوار تبتسم وهي تسمعهما يدردشان ويبحثان عن كلام يقولانه لقد شعرت لاو دو بأن هذين الصديقين مرحان وممتعان للغاية.

ولكن السمكة السوداء في تلك اللحظة فجأة قال: «هُس!».

كان رجل يرفع ياقة قميصه يخطو نحو الفيلا. وقبل أن يفتح فمه، أشارت له حبة القهوة

لدخول الفيلا وهي تقول له: «ادخل، ينتظرونك بالداخل».

وما إن دخل الرجل الفيلا حتى جاءت امرأة مقنّعة، وتبعها مُسن أشيب مع شاب... جاءوا واحدًا تلو الآخر، ودخلوا جميعًا تلك الفيلا التي تسمى «الفأس المكسورة».

خرج الرجل ذو الياقة المرفوعة من الفيلا بصحبة أحد الدببة.

وعندما مرّ أمام لاو دو، تباطأت خطواته دون أن يشعر، وقال لها بهدوء: «شكرًا لكِ» وعندما كان خارجًا من البوابة، استدار وأضاف: «ولدبّكِ أيضًا».

قالت لاو دو: «إنه أبي».

«إذن، شكرًا لكِ، ولأبيكِ».

«عفوًا».

«أتعرفين؟ إنه أخي الصغير، لقد تحول إلى دب...».

«أتمنى لأخيك الشفاء العاجل!».

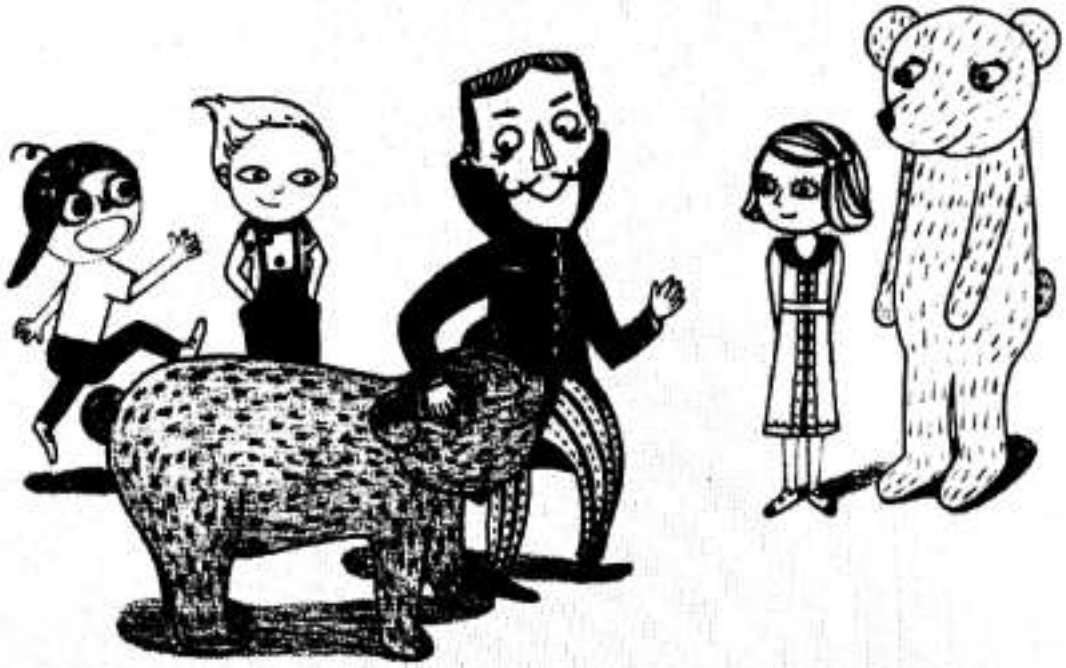

«أشكرك ومرحبًا بكم في مدينة يوقو».

«شكرًا».

خرج الدببة مع ذويهم تباعًا، وكانوا حينما يمرّون أمام لاو دو، يقولون لها بلطف بضع كلمات.

«إنها أختي الكبيرة!».

«هو زوجي!».

«إنها أمي!».

«هو ابني!».

كان كل منهم يُعرّفها بعلاقته بالدب الذي يصحبه، وكانت لاو دو أحيانًا تواسيهم قائلة: «سيتعافى بالتأكيد!» وكانت أحيانًا تكتفي بقولها: «عفوًا».

كانت لاو دو وحبة القهوة والسمكة السوداء واقفين عند الباب، وبمغادرة آخر دب، تنفسوا الصعداء. ولمّا رأى الدببة يغادرون مع ذويهم في الضوء الشاحب، قال السمكة السوداء متنهدًا: «كان لاوكا محقًا حينما رأى ألا داعي لتجهيز غرف لهم».

قالت حبة القهوة وهي ترمي شعرها الأحمر إلى الخلف فاهتزت معه حلقتا الأنف اللامعتان اللتان وضعتهما من جديد: «كفاك كلامًا فارغًا! ادخل كُل شيئًا!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانوا يظنون ألا زائر آخر سيأتي، فلم يتوقعوا أن تدخل الخالة لي بعد قليل ومعها شخص يعرفونه جيدًا. إنها امرأة الحضض!

وفور أن رأت امرأة الحضض لاو دو بالفستان الطويل، اندفعت نحوها، وحدقت فيها كأنها رأت حورية من الأساطير، وراحت تقلب نظرها فيها من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار، وتصدر فرقعة بلسانها متعمدة أن ترفع صوتها فيها، وقالت لها: «أوه أوه يا جنية، لم أركِ منذ أيام معدودة، فكيف زدت جمالًا هكذا؟».

قال السمكة السوداء ضاحكًا مستهزئًا: «قال القدماء إن المرء زينته الرداء والجواد زينته السرج. وجمال الزي يغلب جمال الخلقة».

«تنحّى عن طريقي أيها الصغير الماكر، فلم آتِ إلى هنا لأتناقش معك عن سرج الجواد» وبعد أن أزاحته إلى خلفها، ألقت بحبة حضض في فمها.

نزل لاوكا من الطابق العلوي، وسألها: «من أنتِ؟».

«أوه، سيد لاوكا، يا رجل الأعمال الأذكى والأغنى في مدينة يوقو على الإطلاق، تشرفت كثيرًا بمقابلتك. لقد جئت لأسألك، لماذا أخذت مني المستأجرين بلا سبب؟ أنت تعرف أنني أعتمد كل الاعتماد على تأجير تلك الغرفة البالية، وهذه الصبية الملعونة سكنت عندي عدة أيام. حسنًا، فلتخبرني بصراحة، كيف تنوي تعويضي الآن؟».

قهقه لاوكا عاليًا وقال: «خالة لي، هاتي لامرأة الحضض أشهى أفخاذ دجاج ورقاب بط ولحم متبل، وأيضًا زجاجة نبيذ أحمر معتق».

«لا، لم أعتد شرب نبيذ معتق، فالأفضل أن تعطيني زجاجة بيرة».

ألقت امرأة الحضض بجسدها على أريكة، وفي لحظات أتت الخالة لي بمختلف الأطعمة الشهية والبيرة.

«هكذا يعد تعويضًا معقولًا» تفلت امرأة الحضض بقايا الثمرة، ورمقت بعينيها لاو دو وهي تلتهم أفخاذ الدجاج، وقالت لها: «وكيف حال دبك؟».

«يأكل جيدًا وينام جيدًا. إنه في أفضل حال».

مسحت امرأة الحضض فمها، وراحت تتكلم بلا انقطاع: «حينما تكلم فجأة في السيرك في تلك الليلة أرعب أهل هذه المدينة كلهم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما حدث أن الدب تكلم فجأة وهو في السيرك، فلم يكن الكعكة المستديرة وحده الذي انتفض ذعرًا كأنما جلس على جمرة ملتهبة، بل أيضًا كل الجمهور من أهل مدينة يوقو قد ذعروا كأنهم رأوا سحرًا عجيبًا ذلك ألا أحد توقع أن المصاب بمرض التحول يمكنه الحديث! وفي اليوم التالي، بدأ أهالي المدينة يذهبون تباعًا إلى مكتب عمدة المدينة، ويطلبون منه تحرير الدببة من القلعة، ويقولون مرارًا وتكرارًا له: «انظر للدب الذي قدم إلى المدينة مع تلك الفتاة، إنه يستطيع الكلام، وهو ما يدل على أنه سيتعافى قريبًا، وأن مرض التحول يمكن الشفاء منه، وأن حالة المريض يمكن أن تتحسن دون أدوية، أليس كذلك؟ فلتُعِد إلينا ذوينا!» ولكن عمدة المدينة لم يكتفِ برفض مقابلتهم، بل بمجرد أن عرف بأمر الفتاة والدب، أرسل على الفور رجالًا من قلعة الدببة لأخذ الدب، ولكن «الحمار ذهب يطلب قرنين، فعاد مصلوم الأذنين»، إذ تمكنت لاو دو وصديقاها من إطلاق سراح جميع الدببة.

«هاه هاه، سأموت من الضحك! من المؤكد أن عمدة مدينتنا المبجل يشتاط الآن غضبًا وحنقًا» وصارت امرأة الحضض تضحك وتهتز طربًا فوق الأريكة.

«هكذا الأمر إذن! وقد كنت أظن أنهم أخذوا الدب بسبب أمر قام به الكعكة المستديرة في الخفاء!» لم تتوقع لاو دو أن أهل مدينة يوقو قد «باعوا» الدب.

قالت امرأة الحضض مزهوة وهي تلوّح بيدها الكبيرة: «الكعكة المستديرة؟ أهو ذلك الرجل الذي يبدو مثل البرميل؟ هاه هاه، لقد ترك المدينة!».

«ترك المدينة؟».

قالت امرأة الحضض: «نعم. كان يريد أن يجني أموالًا طائلة من هنا، ولكني خرّبت عليه خطته» ثم شدت لاو دو وهمست في أذنها: «لقد ربح مالًا كثيرًا في الأيام السابقة، فحتى أنا المرأة العجوز ذهبت إلى السيرك لمشاهدة تلك العروض الرائعة. ولكن، خمّني ماذا وجدت هناك؟».

«ماذا وجدت؟».

«كان من الواضح جدًا أن جميع الحيوانات التي تصعد على المسرح مرضى بالتحول، وذلك الرجل الملعون يظن أن جميع سكان هذه المدينة أغبياء إلى هذه الدرجة، فلم يتوقع أنني سأكتشف الأمر بهذين العينين الثاقبتين وقد أبى أن يعترف، لذلك قلت له إنني سأبلغ عمدة المدينة ومسؤولي قلعة الدببة، حتى يحبسوا جميع الممثلين، فارتعب ذلك الحقير وفقد رشده، وأعطاني هذا القدر من المال» وأشارت امرأة الحضض بأصابعها للاو دو وهي تقول ذلك.

«ألف ورقة نقدية؟».

«نعم وهو ما يثبت أنه قلق وخاف ومع أنني أخذت المال منه، فلم أعده بأنني لن أحكي ما رأيت ولكني كلما قابلت أحدًا في الطريق دردشت معه قليلًا، فعرف الجميع بالأمر ولفا أدرك ذلك الرجل خطورة الوضع، فز هاربًا في صباح اليوم. ما رأيك فيّ أيتها الجنية؟».

رفعت لاو دو إبهامها لامرأة الحضض وقالت بكل صدق: «عظيمة!» لكنها في أعماق قلبها كانت تشعر بالقلق على أولئك المرضى في السيرك، فمن المؤكد أنهم يتوقون إلى العودة إلى حياتهم الطبيعية على الرغم من تخلي أهاليهم عنهم. والآن، صار أمل لاو دو الوحيد أن يعاملهم الكعكة المستديرة بالحسنى.

وبعد أن أكلت وشربت حتى شبعت، وتجشأت بعد شرب البيرة، نهضت أخيرًا وسارت باتجاه الباب وهي تهتز وتتمايل بجسدها الثقيل. ثم قالت: «اللعنة على ذاكرتي هذه! هناك على ما يبدو سبب أهم لمجيئي إلى هنا» ودقت على رأسها، ثم قالت للاو دو: «صحيح، امرأة تسكن في 00 شارع صفيرا اليابان تقول إنها تريد مقابلتك، وتريدك أن تذهبي إليها غدًا».

امرأة تسكن في 00 شارع صفيرا اليابان؟ من المؤكد أنها والدة تشونغ لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

21. قصة يين شياوخه

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، استعدت لاو دو للذهاب مع الدب إلى 00 شارع صفيرا اليابان. ولكن الدب رفض الخروج من البيت.

اكتشفت لاو دو في هذه اللحظة أن الدب يشعر بحكة في كامل جسده، كما انتشر به طفح وردي.

خمنت لاو دو: «أيكون بسبب ارتفاع حرارة الجو فجأة؟».

قال السمكة السوداء بكل ثقة: «هي البراغيث بكل تأكيد».

«مستحيل! قد تظهر في بيتنا كائنات فضائية، ولاَ تظهر مثل هذه الأشياء!».

ثم تابعت: «ربما بسبب السيرك».

شعر كل من حبة القهوة والسمكة السوداء بأن تخمين لاو دو غير منطقي، لذلك أخذا الدب على الفور لنقع جسده في حوض الاستحمام، وإخراج البراغيث منه فيما ذهبت لاو دو لموعدها على الرغم من قلقها على الدب الذي يحك جلده بدرجة لا تحتمل.

فتح تشونغ لي الباب للاو دو، فلمّا رآها نادى بفرح: «أمي، لقد أتت!».

وما إن رأت لاو دو والدة تشونغ لي، لم تطق صبرًا على سؤالها: «هل هو بخصوص يين شياوخه؟».

أومأت والدة تشونغ لي برأسها بالإيجاب.

قالت والدة تشونغ لي: «في الحقيقة، ترددت كثيرًا في بادئ الأمر ولم أعرف هل أخبرك بهذا أم لا» وأعطت لاو دو كوب شاي بالحليب، ثم تابعت حديثها على مهل: «لأن لا أحد يعرف على وجه التحديد أخبارها في الآونة الأخيرة يقول أصدقاء إنها كانت أفضل فتاة ترقص باليه في هذه المدينة ولكن في الوقت الذي لمع اسمها كنجم في السماء، انتشر خبر إصابتها بمرض خطير حزن الجميع عليها، فمع أنها تربّت في دار أيتام، كانت شخصيتها مستنيرة متفتحة، وكانت مرحة تحب الضحك، وكانت فتاة طيبة، فأحبها الجميع».

قالت لاو دو وقد بدأ حلقها يضيق: «وماذا بعد؟».

«بعد فترة وجيزة من مرضها، رآها أحدهم وقال إنها حامل قال الجميع إنها جنّت وقيل إنها فعلت ذلك من أجل رجل تحبه كثيرًا، إذ إن ذلك الرجل كان يدرس في بلد آخر حينئذ، وقد أرادت أن يرافقه أحد في ذلك البلد بعدما يغادر...».

شدت لاو دو قبضتها على الكوب الذي بين يديها، وشعرت فجأة بألم في مكان ما بقلبها حتى عجزت عن التقاط أنفاسها.

«بعدما وضعت ذلك الطفل، اشتد عليها المرض وساءت حالتها، ولكنها أخفت هذا عن ذلك الرجل، ليس هذا فحسب، بل لأجل ألا تكون سببًا في حزنه، تركته هو والطفل، وذهبت إلى بلد آخر وبعد وقت قصير، أرسلت إليه رسالة تقول فيها إنها أحبت رجلًا آخر، ولن تعود أبدًا إلى يوقو، وأنها ترجو أن يربّي الطفل ويعيشا معًا حياة سعيدة».

هذا إذن ما دفع يين شياوخه إلى ترك يين قه!

«ولا ندري إن كانت إرادة السماء أم ساعدها أحد الآلهة، لكنها حينما أوشكت على الرحيل عن عالمنا، قابلت صدفةً ابن أحد الأثرياء وقد بذل كل ما بوسعه من أجلها، إذ أخذها وسافرا للخارج بحثًا عن أفضل طبيب قد يعالجها وبعد مرور عامين، تعافت تمامًا، ربما بسبب العلاج الناجع، أو لأنها قاومت بكل قوتها من أجل الشفاء لكنها بعد أن عادت إلى هنا لم تجد ذلك الرجل ولا طفلها ومنذ ذلك الحين لا يعرف أحد أحوالها، وحتى ذلك الصديق الذي أخبرني بهذه القصة لا يعرف كيف حالها الآن».

تنهدت أم تشونغ لي، وسحبت يد لاو دو بلطف وشدّت عليها...

«أنتِ ابنتها. أليس كذلك؟».

أومأت لاو دو برأسها... نعم، هي ابنة يين شياوخه هذه أول مرة تعترف فيها لاو دو بصلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدم التي تربطهما

«آسفة. لا أعرف عنها إلا هذا».

«شكرًا لكِ. هذا يكفي».

ولكن أم تشونغ لي قالت: «في الحقيقة، الشكر لكِ. لقد عاد أبي إلى البيت مع أخي مساء الأمس، وكلنا واثقون في أنه سيتحسن مثل أبيك، وأنه سيتمكن من التواصل والحديث معنا في أقرب وقت كنا نخجل منه بعدما تحوّل إلى دب، كما كنا نألم بسبب ذلك، ونظن أنه لن يعود إلى جوارنا أبدًا لكنكِ أعطيتِ لنا بصيص أمل».

كانت سماء هذا اليوم صافية حقًا، وقد اختفى الضباب تمامًا، وغطت أشعة الشمس الذهبية مدينة يوقو بكاملها.

شعرت لاو دو ببعض الإحباط، كما شعرت ببعض الحزن، لكن في الوقت نفسه سعادة خفيفة ملأت شغاف قلبها لقد ظنت أنها ستعثر في الحال على يين شياوخه من أجل يين قه، ولم تتوقع أن تخرج بلا أي معلومة جديدة عنها ومع ذلك، فتلك «القصة» التي سمعتها ربما تخفف عن يين قه وتواسيه، مثلما خففت عنها وواستها... ظلت لاو دو تفكر على مهل وهي تمشي على مهل في طريق عودتها إلى الفيلا.

اندفع السمكة السوداء نحو لاو دو فور أن رآها ليقدم لها «تقريرًا» عن «انتصارهما في المعركة»، وقال: «أمر غريب، لم نجد برغوثًا واحدًا».

زادت الحكة لدى الدب إلى حد كبير، بل بدا كأنه يودّ لو استطاع أن ينتف كل ما يغطي جلده من شعر قصير وأرسل له لاوكا خادمًا يحك له جلده بحكّاكة الظهر، ولكنها زادته انزعاجًا.

قالت حبة القهوة: «فلنستدعِ طبيبًا».

قال لاوكا مترددًا: «أي طبيب؟ البيطري أم...؟».

«طبيب المستشفى بالطبع!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحيّر لاوكا، وقال: «نستدعي أساتذة قلعة الدببة ليكشفوا عليه؟ ربما لديهم خبرة أكبر».

قالت له حبة القهوة بغضب: «مَن؟ ليس كأن تستدعي بضعة خنازير من الشارع!».

قال السمكة السوداء ممازحًا: «إذن فلأذهب الآن لاستدعاء بضعة خنازير لتكشف على الدب».

نظرت حبة القهوة بغيظ إلى لاوكا وهي تقول للسمكة السوداء: «اذهب، ويستحسن أن تأتي بخنازير أذكياء».

تنهد لاوكا مرة أخرى، وغيّر موضوع الحوار، وقال لها: «قهوتي، حلقة الأنف التي تضعينها اليوم كبيرة جدًا، كبيرة جدًا!» وقبل أن يُكمل كلامه، كانت حبة القهوة قد خرجت من الغرفة.

راحت لاو دو تفحص بعناية ذلك الطفح الوردي الذي ملأ جسد الدب، فاكتشفت أن الشعر الكثيف الذي يغطيه يتساقط بلا توقف من الأماكن التي يشعر فيها بالحكة، وجلست برهةً حائرة لا تدري ما عليها فعله وبينما كانت على هذه الحال، إذا بها تكتشف أن لاو كا قد أرسل بالفعل في طلب أحد الأساتذة من قلعة الدببة.

بدا ذلك البروفيسور ذو النظارة الذي التقت به لاو دو وصديقاها في قلعة الدببة، إما أنه يتظاهر بأنه لم يرَ أحدًا منهم من قبل، وإما أنه مصاب بفقدان الذاكرة، إذ قال بعدما دخل: «اعذروني، لا بد لي من إجراء فحص شامل أولًا كي أعرف جميع أعراض هذا المرض».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقبل أن ترد لاو دو، نقل رجل الميزان والسماعة الطبية ومقياس الحرارة والملقاط وغير ذلك من الأدوات إلى غرفة الدب، أما البروفيسور صاحب النظارة فقد وضع كمامة ولبس السترة البيضاء، وراح يفحص عيني الدب ويسمع ضربات قلبه ويتحسس نبضه ويفحص تجويف فمه...

وقف البروفيسور يصيح بنتائج الفحص إحداهما تلو الأخرى، وبجواره وقف مساعده لتسجيل النتائج في السجل الطبي:

درجة الحرارة: 59 درجة

النبض: 233

ضربات القلب: 80

انتهي الكشف أخيرًا، فسألت لاو دو دون تمهل: «هل عرفت سبب الحكة؟».

«حكة؟».

كانت تعابير وجه البروفيسور توحي بالحيرة وعدم الفهم، فلم تدرِ لاو دو أتضحك أم تبكي قالت له: «نعم، فهو يشعر بحكة شديدة، وقد ملأ جسده الطفح الوردي!».

قال البروفيسور كأنما أدرك الحقيقة فجأة: «أوه، لا عجب إذن من اضطرابه وحكه في جميع أجزاء جسده بلا توقف» ثم بعد ذلك بدأ فحصًا جديدًا ولمّا رأته لاو دو مشوّش الذهن بطئ الفهم، عرفت أنه لن يصل إلى تشخيص دقيق على أي حال.

وبالفعل، فبعدما فحص البروفيسور الطفح الوردي بجلد الدب بكل عناية، قال بصرامة وجدية ووقار: «يُحتمل أن يكون ذلك بسبب تدهور حالته، ويُحتمل أن يكون علامة على التحسن».

ألا يعد هذا كلامًا فارغًا؟ كأنه لم يقل شيئًا! لولا أنه جاء بأمر لاوكا، لكانت لاو دو أطاحت به إلى خارج الفيلا في الحال ولحسن الحظ لم تكن حبة القهوة موجودة، وإلا لربما لم تكتفِ بإطاحته إلى خارج الفيلا، بل لكانت «شخصت حالته» بالطريقة نفسها التي شخص بها حالة الدب وبينما وقفت لاو دو تفكر، دخل لاوكا حاملًا كوبين نبيذ. كرّر البروفيسور ما قال قبيل قليل، فلم يدرِ لا وكا أيضحك أم يبكي.

وظل الدب يحك جسمه بكل قوته وهو يكرّر: «جلدي يأكلني، أريد أن أهرش بلا توقف».

أدار البروفيسور رأسه لينظر إلى الدب بدهشة ويقول: «أنت تتكلم حقًا! مع أنني أعرف ذلك،

وقد سمعتك بأذني... فما زلت لا أصدق».

لم يُعر لاوكا اهتمامًا لدهشة البروفيسور، وسأل: «فهل معك دواء للحكّة؟».

صار البروفيسور يقلّب كثيرًا في صندوق الأدوية، حتى أخرج زجاجة صغيرة حمراء، وقال: «كنت من قبل في قلعة الدببة حينما يقرص أحد الدببة قمل أو براغيث أعطيه هذا الدواء. إنه دواء فعّال».

ولكن الدب أبعد عنه اليد الممدودة إليه بالدواء، وغمغم: «مياه، مياه».

وسرعان ما أتت إليه لاو دو بكوب مياه.

قال الدب: «مياه باردة، أستحم».

فهمت لاو دو ما يريد، وعلى الفور ملأت أكثر من نصف حوض الاستحمام بالمياه وما إن دخل بها الدب حتى بدا كأن الحكّة قد هدأت كثيرًا بالفعل.

قالت لاو دو للدب تثني عليه وهي تحك له أذنيه: «أنت الأذكى من بين الجميع أيها الدب، فلم يخطر هذا الحل ببال أحد» فضحك لها، ثم أغمض عينيه في راحة واستسلام.

وربما كان ذلك بسبب التأثر أو بسبب الخمر، فقد كان وجه البروفيسور منتفخًا حتى صار أكثر احمرارًا من قرص الشمس في عز النهار وهو يقول: «معجزة! معجزة! إنه قادر ليس فقط على التواصل مع الآخرين بل أيضًا على الكلام. إنه يفكر ويُعمل عقله!».

فقالت لاو دو لنفسها بغضب «هل يغد المصابين بالتحول حيوانات حقًا؟ الدب ليس دبًا حقيقيًا، فهو بالطبع قادر على التواصل مع الآخرين وعلى الحديث والتفكير!».

بدا لاوكا كأنما يفكر في الأمر وراح يكرر الكلام الذي قالته لاو دو من قبل: «ذلك الأمر بالحظر الذي أصدره السيد الإصبع الحديدي، لا، السيد عمدة المدينة، يجب إلغاؤه حقًا، والأفضل أن يظل المرضى برفقة أحبائهم، فهكذا يعيشون حياة طبيعية كالبشر الطبيعيين، ويذهبون للتجول والتسوق وتناول الطعام، فإننا إذا حسبناهم غير طبيعيين، كيف سيحسبون أنفسهم طبيعيين؟ وكيف سيأملون في التعافي؟».

رد البروفيسور على تساؤله بسؤال: «الحظر؟ ألم تكن من مؤيديه؟».

«ولكني الآن من معارضيه! وسأذهب لمقابلة الإصبع الحديدي، لا، أقصد السيد عمدة المدينة، لأطلب منه إلغاء هذا الأمر!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ربما عليك الانتظار بعض الوقت، فقد سمعت أنه مريض، ونحن سكان المدينة لم نره منذ أيام».

«أنا أيضًا سمعت أنه مريض...» وفي تلك اللحظة نظر لاوكا والبروفيسور أحدهما إلى الآخر في اللحظة نفسها، كأنه السؤال نفسه قد خطر على ذهنهما: هل أصيب عمدة المدينة أيضًا بمرض التحول؟

وضع لاوكا كأس النبيذ من يده، وقزر فجأة: «على كل حال، سأذهب لمقابلته اليوم».

قال البروفيسور: «أتمنى لك التوفيق».

وبينما همّ بالمغادرة، نظر البروفيسور مرة أخرى إلى لاو دو وقال: «آنستي، هل أنتِ متأكدة من أننا لم نلتقِ من قبل؟».

«متأكدة!».

«ولكن، لماذا أشعر بأن وجهك مألوف لديّ هكذا؟ هل يمكن أن أكون رأيت صورتك في مكان ما؟».

شعرت لاو دو بأن كلامه مضحك. «كيف يمكن ذلك؟».

وصار البروفيسور يقدح زناد فكره وهو يتمتم: «نعم، نعم، معك حق. ولكنني أشعر حقًا بأن وجهك مألوف لديّ جدًا، أين يمكن أن أكون رأيت صورتك؟» ثم غادر أخيرًا.

وبينما كان لاوكا يستعد للذهاب لمقابلة الإصبع الحديدي بخصوص الحظر، إذا بسكرتير عمدة المدينة يصل إلى الفيلا.

قال سكرتير عمدة المدينة وقد خلا من وجهه من أي تعبير: «يريد السيد عمدة المدينة مقابلة الآنسة لاو دو»

قالت لاو دو باندهاش: «يريد مقابلتي أنا؟».

«نعم».

22. السر وراء «الإصبع الحديدي» عمدة المدينة

يقع مقر عمدة المدينة في وسط مدينة يوقو، وتبدو جدرانه الرمادية مهيبة رصينة، فيبدو كقاضٍ صارم يجلس طوال العام داخل المحكمة.

«لماذا يريد عمدة المدينة مقابلتي؟ هل أصيب هو أيضًا بمرض التحول حقًّا؟ ماذا سيفعل بي وبالدب؟ هل سيحبس أولئك المتحولين من جديد في قلعة الدببة؟».

قاد السكرتير ذو الوجه الجامد لاو دو التي ملأت ذهنها التساؤلات إلى قاعة داخل مقر عمدة المدينة.

وبدخول لاو دو، ساد القاعة الصاخبة هدوء مفاجئ، وأفسح جميع العاملين الطريق للاو دو، كأنها أميرة أو بطلة خارقة.

وفور أن عرفت أن عمدة المدينة طلب مقابلة لاو دو، قالت لها حبة القهوة مازحة: «إنه مُسن صعب المِراس، ويود لو استطاع أن يكتب على جبهته (جاد وحازم) لكن اطمئني ولا تخافي، اعتبري نفسك ذاهبة لمقابلة... لمقابلة بومة. هاه هاه، بالضبط، ذلك العجوز يشبه البوم».

أما السمكة السوداء فراح ينقل «خبراته» إلى لاو دو، إذ قال لها بزهو وغرور: «إذا علا صوته عليكِ، أو حملق نظره فيكِ، تصرفي كأنكِ لم تسمعي شيئًا، وحدقي النظر فيه أنتِ أيضًا. هكذا فعلت أنا معه».

لم يُطمئن لاو دو كلامهما، بل على العكس أصابها ببعض التوتر لم تعتد لاو دو التعامل مع أولئك الأشخاص الصارمين الجادين، وتشعر أن الحديث مع حائط أفضل من الحديث مع شخص مثل هذا ولكن بما أنها نوت الذهاب، فلا داعي إلى القلق، وفي أسوأ الأحوال ستتركه وتغادر.

وقف المصعد الكهربي في أعلى طابق بمقر عمدة المدينة.

قال السكرتير ذو الوجه الجامد الذي لم ينبس ببنت شفة طوال الطريق وهو يشير إلى مكتب عمدة المدينة: «السيد عمدة المدينة ينتظرك بالداخل».

سألته لاو دو: «سمعت أنه مريض. صحيح؟».

«إنه ينتظرك بالداخل».

«يقول الجميع إن أحدًا لم يره منذ أيام».

انتاب لاو دو دون سبب واضح قلق شديد إذ شعرت بأنها حين تفتح الباب سترى خلفه وحشًا.

«إنه ينتظرك بالداخل» وفي هذه المرة، استدار السكرتير مباشرة وغادر.

دقّت لاو دو على الباب عدة دقات قوية.

سمع صوت ضعيف يقول: «ادخل!» فدفعت لاو دو الباب.

كان مكتبًا ضخمًا مملوءًا بالكتب والوثائق، وجلس خلف المنضدة المرتّبة رجل مسن ذو ملامح رمادية شاحبة وقد خيمت على وجهه غيوم الحزن الرمادية، إذ كان يرتدي زيًا رماديًا، ويغطي رأسه شعرًا رماديًا.

لم تتوقع لاو دو أن عمدة مدينة يوقو المهيبة يبدو بهذا الشكل، فلم يكن لديه مطلقًا مخالب البوم الحادة ولا عيونها الثاقبة.

«أنتِ لاو دو؟».

«نعم».

قال الإصبع الحديدي وقد خلا وجهه من أي تعبير: «سمعت أنكِ ودبك جئتما إلى مدينتي منذ أيام عديدة. صحيح؟» وفي الحال فهمت لاو دو من أين «نسخ» ذلك السكرتير وجهه الجامد.

«صحيح».

قال وقد أضفى زيه الرمادي على عينيه كآبة وشحوبًا: «هل تعرفين بأمر الحظر الذي أصدرته؟».

«سمعت به».

«يشمل الأمر ما يلي: أولًا: لا يمكن الخروج إلى الشوارع برفقة مريض بالتحول، ثانيًا: لا بد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إرسال جميع المرضى بالتحول إلى قلعة الدببة».

قالت لاو دو: «لست من أهل مدينة يوقو».

نهض الإصبع الحديدي عن كرسيه، ووقف يتفحص بجدية هذه الفتاة الأقصر منه بأكثر من شبرين كاملين، وقال لها: «حقًا؟ أرى أنه أمر غريب، إذ كيف تمكنت من تضليل فكر أهل مدينتي المخلصين، حتى أخفوا عني وجودك بالمدينة طوال هذه المدة؟ سمعت أنكِ تصحبين الدب ليس فقط للتجول والتسوق بل كذلك لتناول الطعام الغربي! صحيح؟».

«إنه ليس دبي. إنه أبي».

قال الإصبع الحديدي وقد تشنج وجهه: «حسنًا. إذن اسمحي لي أن أسألك، كيف تمكنتِ أنتِ وأبيكِ من تحريض أهل مدينتي حتى صاروا يطالبون بإلغاء الحظر؟ وكيف استطعتِ أنتِ ورفيقاكِ من إطلاق سراح جميع المرضى؟ بل وجعلتِ أولئك الموظفين بقلعة الدببة يقفون متفرجين وأنتِ تفعلين ذلك؟ لولا أن وثائق المراقبة التي يأتونني بها في وقت محدد يوميًا لم تصل إليّ في ميعادها، لكنت جاهلًا بكل ذلك حتى هذه اللحظة» وقد ظنت لاو دو أنه سيستشيط غضبًا، لكنها على غير توقع رأت ملء عينيه حزنًا وألمًا.

«هل تعرفين كم أحب أهل مدينتي؟ كنت أخشى أن يدمر أولئك المتحولون هذه المدينة، ويقضون على كل مَن فيها... لقد اقتطعت من مالي الخاص مبلغًا ضخمًا لاستقدام أمهر العلماء والأطباء والأحيائيين ليعالجوهم في أسرع وقت ممكن لكن أولئك عديمي النفع أخذوا مالي هباءً، فلم يصلوا بأبحاثهم لأي علاج ناجع والآن، بعد ظهورك أنتِ ودبّكِ، نفضوا أياديهم من الأمر برمّته، مدّعين احتمالية علاج هذا المرض بأبسط الطرق سألتهم ما هي تلك الطريقة، فما كان جوابهم إلا أن قالوا إنكِ تعرفينها حسنًا، آنستي العزيزة، أخبريني إذن ببساطة واختصار، ما تلك الطريقة؟».

قالت لاو دو: «إلغاء الحظر».

«ماذا؟».

«إلغِ الحظر، وأعد المرضى إلى جوار أهاليهم، حتى يرجعوا إلى حياتهم الطبيعية، ويتمتعوا بالحب والأمل من جديد».

وقف الإصبع الحديدي ينظر إلى لاو دو.

كان الهدوء يعم الغرفة، ووراء النافذة كانت أشعة الشمس ساطعة، والطيور محلقة.

قال الإصبع الحديدي للاو دو بنبرة حزينة حتى بدا مجرد مُسن واهن يريد أن يحكي من قلبه ويفضفض معها: «هل تعرفين لمَ لم أخرج إلى الشارع منذ مدة طويلة؟».

«يقولون إنك لم تظهر منذ 61 يومًا».

ابتسم الإصبع الحديدي ابتسامة صفراء وقال: «هؤلاء هم أهل مدينتي الصالحون. لم يضيعوا تعبي وكدّي طوال هذه السنين هباءً، ويحسبون أيام غيابي بدقة عني».

«يقولون إنك مرضت».

«نعم، لقد مرضت حقًا أصبت بالاكتئاب، لأنني كلما خرجت إلى الشوارع رأيت الغيوم تلف السماء، ورأيت الشوارع التي كانت فيما مضى صاخبة مزدهرة وقد صارت باردة لا حياة فيها، فيصيبني الهم والغم، ولا أجرؤ على الخروج من هذا الباب. ظننت أن كل ذلك بسبب ظهور مرض التحول في المدينة، وبسبب أنني لم أشارك المصابين به آلامهم وأحزانهم... مكثت هنا طوال الأيام والليالي أريد أن أعثر من بين أكوام الوثائق هذه على علاج لهم، ولكن... آنستي، تقولين لي اليوم...» ثم سكت الإصبع الحديدي عن الكلام من جديد.

قالت لاو دو: «هذا ليس خطأك».

«هو بالتأكيد خطئي لأن في هذه الأيام التي مكثت فيها وحدي، حيث شعرت بأنني أيضًا على وشك الإصابة بمرض التحول، تمنيت أن يكون برفقتي أهلي وأحبابي، واشتقت للشعور بالمحبة والسعادة التي كانت، وأردت أن يكون كل شيء كما هو في الحياة الطبيعية».

أومأت لاو دو برأسها تعبيرًا له عن فهمها لكلامه...

قال الإصبع الحديدي: «حسنًا، طفلتي. سأفكر في اقتراحك، وسأسامح أولئك الموظفين في قلعة الدببة، وكذلك أهل المدينة، على إخفائهم عني ما حدث» ولوّح بيده ملمّحًا بانتهاء اللقاء ولكن، بينما همّت لاو دو بالمغادرة، إذا بها تنظر إلى تلك الصورة فجأة كأنما قوة خفية دفعتها إلى ذلك غضّت لاو دو بلعابها وتقلص حلقها، وقالت: «هذه أسرتك؟».

«نعم. ابني وزوجته».

«هل يمكنني رؤيتها؟».

أعطى الإصبع الحديدي الصورة للاو دو.

تسارعت أنفاس لاو دو فجأة، إذ كان في الصورة خلف الإصبع الحديدي رجل وسيم وامرأة

جميلة، عينها بجفن واحد وشفتاها رقيقتان وأنفها صغير ووجها بيضاوي، وترتدي زيًا أبيض.

سألته لاو دو: «ما اسمها؟».

«مَن؟».

«زوجة ابنك».

«يين شياوخه».

جلست لاو دو على الأرض، وقد ملأت شغاف قلبها مشاعر الفرح والحزن معًا. كانت أشعة الشمس تتلألأ في الغرفة، وذرات الغبار تتراقص على أوتارها الذهبية.

Telegram:@mbooks90

نظر الإصبع الحديدي للصورة، ثم ثبت ناظريه على وجه لاو دو.

وعادت لاو دو إلى الفيلا بخطى ثقيلة.

لا يختلف النصف الأول مما حكى الإصبع الحديدي كثيرًا عما سمعته من والدة تشونغ لي، فالفرق الوحيد هو أن الإصبع الحديدي يقول إن يين شياوخه هي زوجة ابنه، وأن ابنه كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحبها حبًا جمًا، وقد ترك لأجلها سكنه وانتقل إلى بلد آخر، وبذل كل ممتلكات عائلته تقريبًا لأجلها، لكنها أخبرت ابنه بعد كل ذلك أنها تحب رجلًا آخر، وأنها أنجبت طفلة من هذا الرجل... لم يعترض الإصبع الحديدي عليها لكونها يتيمة، ولا لأنها أصيبت بمرض لا شفاء منه، بل لأنها تحب رجلًا آخرا لذلك عارض وجود ابنه معها بشدة لكن ابنه كان مفتونًا بها، ولم يتغير شعوره تجاهها مُطلقًا وبعدما تعافت يين شياوخه، رافقها ابن الإصبع الحديدي للبحث في كل حدب وصوب عن ذلك الرجل، ولكن دون جدوى وربما لأنها شعرت بأن ذلك الرجل قد وجد السعادة بعيدًا عنها، وربما بفعل تأثر مشاعرها بهذا الرجل الذي رافقها دومًا ولم يتركها يومًا، فقد قررت يين شياوخه أخيرًا الزواج بابن الإصبع الحديدي.

وفي النهاية قال الإصبع الحديدي: «في الحقيقة، باستثناء أنها كانت تحب رجلًا قبله وأنجبت منه، فلم يكن يعيبها شيء».

سألته لاو دو: «هل ما زالت بمدينة يوقو؟».

«يسكنان في مدينة أخرى».

لقد عرفت لاو دو الحكاية كلها شعرت بحزن يفطر القلب على يين قه حتى وڈت لو تصرخ بأعلى صوتها وتبكي

وبينما تفتح الباب وتهم بالمغادرة إذا بها تسمع الإصبع الحديدي فجأة يقول لها من خلفها بصوته الخافت: «ولكنهما بعدما سمعا أن صحتي ليست على ما يرام، فسيأتيان بعد غد لزيارتي».

كان ملء الشوارع أناس ودببة يجلسون تحت أشعة الشمس وكان لاوكا وزوجته الدبة البيضاء كذلك جالسين أمام مقهى، ويتسامران على مهل.

في الليلة الفائتة، حينما قالت الدبة البيضاء للدب «شكرًا» عمّت الدهشة أرجاء فيلا الفأس المكسورة كألعاب نارية يتناثر شرارها بكل مكان.

ألقت حبة القهوة بحذائها وجوربها وركضت حافية القدمين وشعرها الطويل الأحمر كألسنة اللهب يهتز فوق رأسها وهي تصيح عاليًا: «أمي تستطيع أن تتكلم! أمي تكلمت!» كأنها تودُّ أن يعرف العالم كله بهذا الخبر.

أما لاوكا فقد بلغ به التأثر أن دعا جميع الدببة بالمدينة وأهاليهم، وأقام عرض ألعاب نارية مهيبًا قال السمكة السوداء إنه لم يرَ حبة القهوة ولاو كا بمثل هذا الجنون منذ زمن طويل جدًا، كما أن مدينة يوقو لم تشهد مثل هذا الصخب منذ سنوات طوال، لذا فقد قرر أن يأكل بشراهة ويملأ بطنه حتى يكتظ من الشبع تعبيرًا عن الاحتفال وكذلك فعل حقًا، وفي المقابل لم تُبدِ حبة القهوة ضعفًا قط، فجلسا يأكلان بشراهة حتى غلبهما النعاس في حين كانت لاو دو والدب يغادران بهدوء.

ولحسن الحظ كان بالقرب من المحطة محل كيك فكرت لاو دو قليلًا ثم اختارت هي والدب تورتة على شكل قلب ذات لون وردي.

أشارت صاحبة محل المعجنات لهما إلى فيلا صغيرة جميلة الشكل بمكان ليس ببعيد وهي تقول: «منزل عمدة المدينة هناك».

كان عطر زهور الغلسنغ والمنثور والياسمين يفوح من حديقة الفيلا، أما عبق زهور الموراية العنكولية فقد غطى الفيلا بأكملها وضعت لاو دو والدب التورتة على كرسي طويل تلتف حوله سيقان مجد الصباح وكان بالداخل شخص يتحدث، وامرأة ترتدي فستانًا عليه ورود متناثرة، وتخرج وبيدها صبي صغير. طار أمامهما يعسوب أحمر، فترك الصبي يد المرأة فجأة وعلا صوته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالضحك، وسار مترنحًا يريد اللحاق به.

قال الدب: «هي سعيدة الآن. أليس كذلك؟».

أومأت لاو دو برأسها، واستدارت لتواسي الدب وإذا بها ترى يين قه واقفًا أمامها. كانت تريد أن تضحك، لكنها ما إن فتحت فمها راحت تبكي بصوت خفيض. مسك بيدها وسارا نحو المحطة.

وفي نسيم الصباح جلس أحدهم يدندن:

هذه السماء الجميلة،

تبدو كبحر معلّق فوقنا.

سحب الصباح الوردية الساحرة

هي ما يلوّن حياتنا

يا ربيع العمر،

أنا قادم إليك بلا خوف!

Telegram:@mbooks90

(1) شخصية كرتونية في مسلسل رسوم متحركة صيني.

(2) الدمية المتمايلة أو لعبة الصنم البوذي roly-poly toy.

(3) The big bad wolf: صورة خيالية لذئب شرير يظهر في الأساطير التحذيرية.

(4) المنتو: خبز صيني يصنع من الدقيق والماء ويشكّل على شكل كرات ويطهى على البخار

(5) فن: وحدة نقدية صينية تساوي 1/100 رنمينبي.